TILL THE LAST BREATH

حتى رحيل الروح

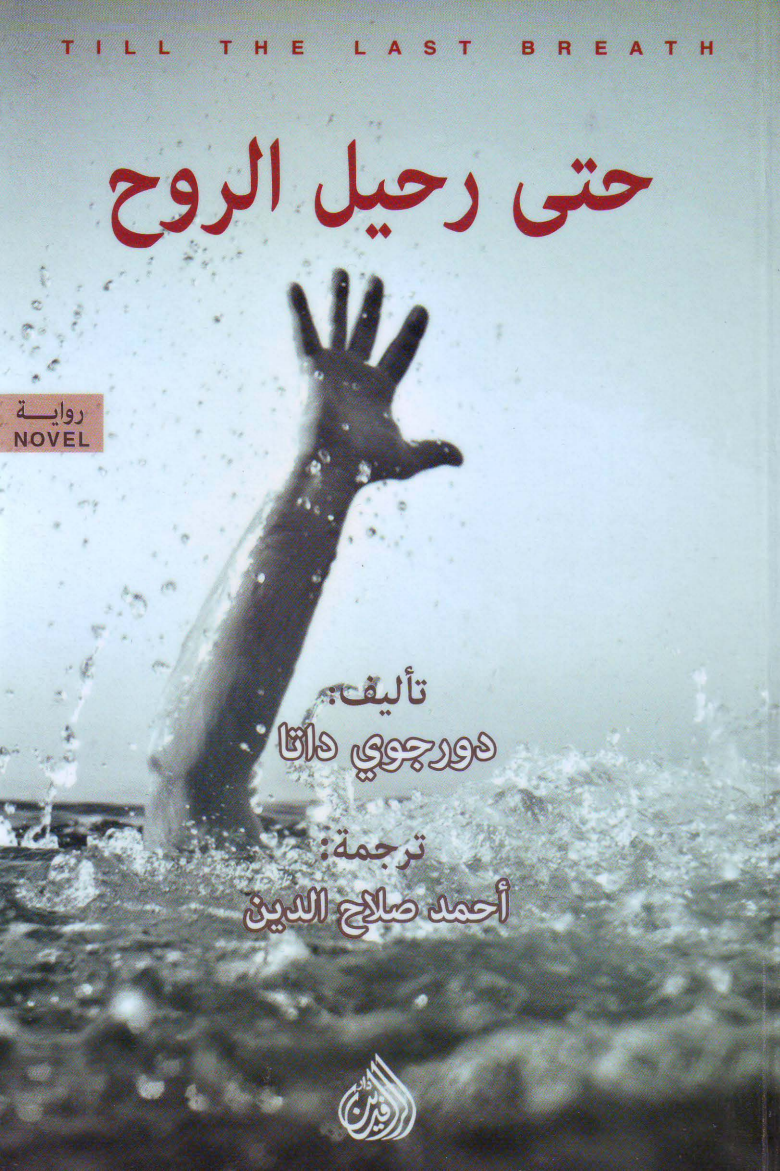

رواية
NOVEL

تأليف:
دورجوي داتا

ترجمة:
أحمد صلاح الدين

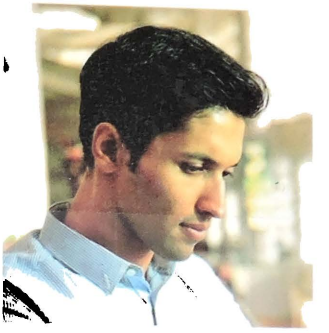

دورجوي داتا

دورجوي داتا المولود في السابع من فبراير عام 1987 هو مؤلف ستة أعمال بين الأكثر مبيعا في الهند، فقد باع أكثر من مليون نسخة من أعماله خلال الثلاث سنوات الماضية. ترتيبه الثالث في الهند بين الكتاب الأكثر مبيعا وفق احصائيات ايه سي نيلسين لمبيعات الكتب. دورجوي داتا من أكثر الكتاب شهرة في عالم الأدب في الهند وخارجها، تتميز شخوص رواياته بالكوميديا السوداء والواقعية، وهو من الكتاب المعروفين بالجرأة في كتاباته. اختارت التايمز الهندية دورجوي داتا عام 2009 كأفضل رائد شاب في الهند. وقد أشارت مجلة أوتلوك انديا إليه كواحد من الكتاب الهنود القلائل ممن ساهموا في احداث ثورة نحو إعادة صياغة صناعة النشر الهندية. رواية "حتى رحيل الروح" هي أحد أهم روايات الكاتب الشاب، والتي حققت نجاحا كبيرا فور صدورها عام 2012. وهذه هي أول ترجمة عربية لأحد أعمال الكاتب الهندي الشاب. تتحدث الرواية عن مفهوم الحب كفعل وحالة، عن اثر أحداث الطفولة والعلاقة مع الأبوين على مسار حياة الناس، عن المواجهات المؤجلة التي تنحر في حياة البشر حتى تحدث. أول رواية قدمها الكاتب الهندي كانت رواية "طبعا أحبك" عام 2008، التي كتبها وهو لا يزال طالبا في الجامعة. ثم تلاها برواية "الآن وقد صرت غنيا" التي صدرت في صيف عام 2010. أما آخر أعمال الكاتب كانت رواية "فتاة أحلامي" والتي قدمها عام 2016. له قصتان قصيرتان "مدرس اللغة الانجليزية"، "ظلال الحب"، قدمهما عام 2012.

حتى رحيل الروح

حتى رحيل الروح

Till The Last Breath

دورجوي داتا

ترجمة: أحمد صلاح الدين

الطبعة الأولى: بيروت ـ لبنان، 2017

First Edition: Beirut - Lebanon, 2017

A Novel

Till The Last Breath by Durjoy Datta
First published by Penguin Random House India
Original text copyright © 2012 Duryjoy Datta
Arabic translation and publishing copyright © 2017 BY Al-Rafidain Publication
© جميع حقوق النشر محفوظة للناشر، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة،
إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله، بأي شكل أو واسطة من وسائط
نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو
التسجيل أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من أصحاب الحقوق

لبنان ـ بيروت / الحمرا
تلفون: 345683 1 961+ / 541980 1 961+

daralrafidain@yahoo.com
info@daralrafidain.com
www.daralrafidain.com
dar alrafidain
Dar.alrafidain
DAR ALRAFIDAIN@maassourati

تنويه: إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن رأي كاتبها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي الناشر.

ISBN: 978 - 1- 77322 - 253 - 0

رواية

دورجوي داتا

حتى رحيل الروح

ترجمة:

أحمد صلاح الدين

www.daralrafidain.com

1 ـ دوشيانت روي

ظلت الستائر مفتوحة عن آخرها لفترة ليست بالقصيرة، تاركة أشعة الشمس الحادة تسطع عبر النافذة المفتوحة، في وجه دوشيانت المستلقي في فراشه، وقد التحف ملاءة سرير بالية، منزعجاً جداً في رقاده لكن دون حراك. عيناه ترتعشان طيلة الليل بينما ترتجف أصابعه. ظل نائماً ولم يستيقظ. لم يكن نومه هانئاً في تلك الليلة.

أخيراً، وبعد أن تقلب من جانب إلى آخر، نهض محاولاً أن يفتح عينيه. امتنعت إحداها، حيث انتفخت بفعل شجّ كبير فوق حاجبه الأيسر مباشرة، كان مضمداً يغطيه شريط لاصق محكم. لمس الضمادة بيديه بحثاً عن دم يتساقط بينما فتح نصف عينه الأخرى المتعبة. تنفس الصعداء لأنه لم يجد شيئاً... تجاسر فقط بمحاولة النظر في أرجاء غرفة المستشفى. إنه محاط بالعديد من المعدات الطبية المتصلة به، تلفزيون صغير في أحد أركان الغرفة، سرير فارغ على جانبه الأيسر. تحيّرت أفكاره في سبب وجوده هنا. ولم تكن هذه أول مرة له على إحدى هذه الأسرّة، ولكن هذه المرة تبدو أكثر خطورة من سابقاتها؛ السقوط فاقداً الوعي بعد سلسلة من التقيؤات والهزات الدماغية كان طريقة حياة بالنسبة له، كان بمثابة مهرب وملجأ. لم يحقق له وقاره شيئاً، ومحى سكره كل احتمال.

هناك أنابيب متصلة بالإبر، غاصت في عروقه وشرايينه، لتضخ سوائل من عبوات شفافة متدلية من حامل على جانبه الأيمن. كان على يقين أن والديه

ليس لديهما أي فكرة عن مكان تواجده. يعلم أن أياً من أصدقائه لن يعطي إدارة المستشفى أرقام تليفونات والديه أو العنوان. لم يكن فى حالة تسمح له أن يراهما أو يتحدث معهما. لا أريد الآن، ولا في أي وقت.

أشارت الساعة فى هاتفه الخلوي إلى الثانية عشرة مرت أربع عشرة ساعة على دخوله المستشفى. الليلة الماضية، شأنها شأن العديد من الليالي، ليلة حمراء؛ جنس، بوكر، خمر، ودخان، تجمع ستة من أصدقائه في شقة من غرفة واحدة ضيقة على بعد خمس دقائق سيراً من الكلية، بعض زجاجات الخمر، والحشيش، مزيل طلاء الاظافر، كل ما يمكن أن يذهب عقلهم.

بدأ المساء بمزاح معتاد عن أساتذة الكلية، الصبية الجدد الذين التحقوا بالكلية، الفتيات، الأفلام الإباحية. تبادلوا بعض الفيديوهات من هواتفهم الخلوية، تلك التي تعرض الفتيات العاريات أثناء الاستحمام، عبر البلوتوث. وبعد قليل، انفتحت الزجاجات. دوشيانت ـ الذي تخرج منذ بضعة أشهر مضت ـ كان مرشداً لهؤلاء الصبية. كان يعلم النسب الدقيقة للكوكتيلات المهلكة، كما يعلم من لديه إمدادات منتظمة من الحشيش القوي حتى أثناء وقوع محرقة نووية. يعرف كيفية الخروج من مأزق، بل إنه يعلم ما هو أبعد من ذلك، عرف كيف يخلق المتاعب. كما حدث في الليلة الماضية، عندما سقط مغشياً عليه ليستيقظ على سرير بالمستشفى، تذكر أنه ضُبط، تذكر شعوره وكأنه يحتضر، ولكن لا شيء أكثر من ذلك، انتظر بفارغ الصبر قدوم الممرضة لتخبره ماذا يجري بحق الجحيم. فكّر؛ «أريد الخروج من هنا بأي صورة».

وفي مناسبات أخرى، كان يخلّص نفسه من غابة الإبر التي اخترقت يده ويهرب من الحراسة، إلا أن عددها كان كبيراً جداً هذه المرة، أراد أن يعرف ما المشكلة، إذا كان هناك ثمة مشكلة على الإطلاق. لم يكن خائفاً، بل مهتماً إذا ما كان الأمر جدياً بما فيه الكفاية ليكون دافعاً لأمه أن تبكي، ولأبيه أن يشرع

في الصراخ في وجهه واتهامه بعدم المسؤولية والشناعة، وأنه وصمة في جبين العائلة. حدث نفسه: وما اسم العائلة؟ واحد من أحد مدراء ماكدونالدز، قال إنه لم يستوعب أبدا تلك المفاهيم المعيبة للشرف والعائلة. لم يعرها اهتماماً قط، وبصراحة، يعلم أنهما لن يحضرا هذه المرة. رأسه يؤلمه، وهو على يقين أنه في غنى عن المهاترات التي يسببها له والداه دائماً.

وبينما هو مستغرق في الشفقة على الذات، ويصبّ اللعنات على المستشفى، انفتح الباب ودخلت فتاة قصيرة وجميلة الغرفة، لها عينان كبيرتان ـ مثل التلميذات في أفلام الكرتون اليابانية ـ بدت كطفل في متجر الحلوى تحمل عملات ذهبية في كفيها، لا تعرف ماذا تشتري. لكن الأمر غير ذلك، فقط تعلقت كفاها بمقابض العكاز. ساقاها مربوطتان عند الركبة، لا يبدو أن بهما قوة يمكنها تحمل ثقل تلك القامة القصيرة، التي لا تتعدى خمسة أقدام وبوصتان.

قال وهو يلوّح بيده للفتاة، التي ارتدت معطفاً أفضل منه. «عفوًا! هل يمكنك استدعاء الممرضة اللعينة؟»

قالت. «أظن ذلك. تعرف ربما كنت سأصبح طبيبة، لا أزال أدرس». وابتسمت بينما تتطلع نحو دوشيانت. لم يعرف دوشيانت كيف يكون رده على تلك الابتسامة. لا يتذكر المرة الاخيرة التي ابتسمت فيها فتاة في وجهه.

«طالما لست طبيبة بعد، هل بإمكانك استدعاؤها؟ أووف».

قالت. «غضبك لن يحسن حالتك، لكن إذا ما سحبت الابرة ذات الغطاء الازرق من يدك اليمنى، ببطء، ربما يكون مفيداً». ثم تحركت بحذر شديد إلى الفراش المجاور له وسحبت الستارة الفاصلة بينهما، ثم جرتها بعيداً.

«عفواً!».

شرحت له ضاحكة. «افعلها. سيتوقف النبض. سيعتقدون أنك تحتضر وأملي

أنه على أقل تقدير سيأتي شخص ما ليطمئن عليك. إذا لم يفعل أحد شيئاً، فأنت بالفعل فى مستشفى سيئ. ينبغي عليك استشارة شخص آخر رد. «لن أفعل ذلك».

«ثم...» قالتها وهي تعرج ببطء نحو فراشه. أخذت سجله الطبي المعلق على طرف السرير الآخر، عقدت حاجبيها، وواصلت. «عليك الانتظار حتى الساعة الثالثة موعد قدوم الممرضة لسحب عينة الدم لإجراء بعض الفحوصات. لن تنتظر طويلا، فقط ساعتان ونصف!»

قال. «فليكن». ثم أغلق عينيه ووضع رأسه على الوسادة مجدداً.

«حسنا، إلى اللقاء. أتمنى أن أراك مرة أخرى. ربما اختار هذه الغرفة. أنا هنا لإجراء بعض الفحوص، لكني بحاجة إلى أن يمنحوني بعض الوقت».

قال بوقاحة. «نعم، هذا صحيح. لن تريني اليوم. سأخرج بحلول المساء».

لم يكن منها سوى الابتسام، وهي تخطو ببطء نحو الباب. عند الباب، ألقت نظرة على الرقم وهمست لنفسها «الغرفة 502». رأى دوشيانت إيماءاتها ثم توارت في الممر بين مرضى آخرين. قال لنفسه. «لا بد أن أخرج من هنا بأي وسيلة»

صرخ دوشيانت في الهاتف. «لا أعرف ما الذي ينوون عمله!»

كانت الساعة الرابعة. حضرت الممرضة وأخذت بعض عينات الدم ولم تعط أية إجابات. «لماذا أنا هنا؟ متى أخرج؟ هل أخبرتم والداي؟ هل..؟ ماذا يجري هنا بحق الجحيم؟». أومأت رداً على أسئلته دون اكتراث، وأخبرته أن الطبيب سيأتي لفحصه بعد قليل. صب عليها لعناته. لا يعتقد أن الممرضة فهمت ما قال، يعتبر توجيه السباب من الامور المألوفة لديه... تبدأ عباراته وتنتهي بالسباب، الذي تطور وصار متقناً على مدار السنوات الماضية.

المرة الأولى التي وجّه فيها سباباً كانت وهو في الصف الثامن. وصفه أحدهم بالمشاغب، وكان رده أنه ليس لديه أية مشكلة مع هذا الأمر. ردٌّ افتقد الذكاء بالطبع، لكنه ومنذ ذلك اليوم أصبحت كلمة المشاغب طريقة حياة حلّت محل العواطف والمشاعر، مواقف بأكملها، وفقاً للأسلوب الذي يتحدث به.

قال الرجل الذي كان يتحدث معه عبر الهاتف. «عد سريعاً يا رجل» ثم أغلق الهاتف. «مشاغب!»

لم يزره أحد. حقاً ليس له أصدقاء، خلال أربع سنوات، وبضعة أشهر إضافية قضاها في الكلية، كان له رفاق شرب، تدخين، أصدقاء يعبث معهم، لكن ليس بينهم من يهتم لزيارته في المستشفى. لو حدث هذا قبل ستة أشهر، ربما جاء بعضهم لزيارته، لكن الآن كل من تخرجوا معه إما مشغولون بعملهم بالفعل، أو في انتظار خطابات التوظيف. هو أيضاً تم ترشيحه للعمل، لكن شركة تكنولوجيا المعلومات المستغلة الكبيرة لم ترسل بعد خطاب انضمامه للعمل فيها. لم يتغير حاله، ولم يلتحق بأي عمل. قبيل انتهاء دراسته بالكلية، استأجر شقة بالجوار وبدأ في العيش كأنه ما زال يدرس في السنة الخامسة بكلية الهندسة.

أوشك دوشيانت أن يفقد وعيه وقت دخول الطبيب ـ يبدو أنه في الثلاثينيات ـ إلى الغرفة.

قال. «مرحبا، هل أنت بخير؟»

«ولماذا لا أكون بخير؟! أنا بحال جيد». سأل بغضب. «متى أرحل من هنا بحق الجحيم؟»

قال الطبيب بينما ينظر في ملف المريض. «لا أظن ذلك، ربما تحتاج للبقاء هنا بضعة أيام» ثم قال الدكتور أرمان كاشياب وهو يرسم ابتسامة متكلفة على وجهه. «إننا سعداء حقاً لاستفاقتك. مرت ثلاثة أيام ظننا أنك ستغيب للأبد».

«ثلاثة أيام. هل تسخر مني بحق الجحيم؟ ربما تحدث المريض الخطأ أيها الطبيب، لقد جئت إلى هنا بالامس. هل الجميع هنا بلهاء عديمي الكفاءة! لا شأن لي بهذه الاشياء!»

قال الطبيب محاولا شرح الأمر، وهو يبتسم. «حسنا، الغضب، النسيان، الارتباك. إنها الاعراض الشائعة للالتهاب الدماغي الكبدي. أعتقد أنها أخبار سارة لك، أيها الصبي. لديك كل الاعراض التي وردت فى الكتاب. وهذا يسهل مهمة العلاج».

«عفواً. مم أعاني؟».

قال. «تلف كبدي دماغي. وبعبارة أخرى، تليف كبدك ها هو يراوغ خلايا مخك. عانيت من مشاكل فى التبول خلال الأيام القليلة الماضية، لم تخبر أحداً شعورك بالحرج. ومنذ ثلاثة أيام، أصبت بنوبة لكنها مرت بسلام».

«لكني لم أفعل. كنت فقط..»

قال بمزيج فعال من الغطرسة والثقة. «أحكي لك ما حدث، لم أطلب منك أن تؤكد شيئاً. الآن، أعطني أرقام تليفونات والديك، حتى نحكي لهما كم كنت طفلاً شقياً».

غمغم مرتبكاً. «لست مضطراً لهذا». لم يكن الارتباك من أعراض التلف الدماغي الكبدي الذي عانى منه، لكنه رد فعله على ما قاله الطبيب لتوه.

أوضح الطبيب. «إنها قواعد المستشفى يا دوشيانت. مهما بلغت كراهيتي للموتى، فلا أكره عندي أكثر من فواتير لم تسدد» بينما كان سارحاً ومشتتاً، كتب دوشيانت رقماً لتلفون أرضي قديم وخارج الخدمة، وسأله. «هل ستتصل بهما الآن؟»

«لا أعتقد. ليس قبل أن تمر ببعض الاختبارات الطبية التي تتطلب وجودهما بجوارك. أو في حالة عجزك عن سداد الفواتير».

«حسناً. كم سيستغرق الأمر؟»

قال الطبيب. «إن لم تمت، ستكون على ما يرام خلال ثلاثة أسابيع. أما في حالة إصرارك على العودة لشرب الكحول بإفراط، ربما لا تخرج من هنا حياً. عليّ إلقاء نظرة على مرضى آخرين، لا يحاولون قتل أنفسهم، سأعود لفحصك في وقت لاحق اليوم».

سأل دوشيانت. «هل هذا مؤلم؟»

علق الطبيب. «هل شعرت بألم حين انغرست الابر في جسدك؟ لا تقلق، أفضل شيء في مرضك أنك عندما تموت، ستموت نائماً، التلف الدماغي الكبدي من الأمراض الكسولة جداً؛ النعاس والتصرف بغباء من أهم أعراضه، وقد أديت دور الغبي بالفعل، يبقى هناك عرض آخر. اذهب للنوم».

وقبل أن ينطق بأي كلمة، علّق الطبيب ملف المريض على السرير ثم غادر الغرفة. أسرع دوشيانت إلى الهاتف، بشكل هستيري، لـيتصل بصديقه ليتأكد من مدى صحة ما قاله الطبيب. وكان صحيحاً. فكّر. «إنها كارثة».

كتب على متصفح جوجل بهاتفه الخلوي «تلف دماغي كبدي»، وبعد عدة محاولات وصل لكتابة التعبير بشكل صحيح. ظهرت بعض نتائج البحث القليلة، قرأها في عجالة. بينما يمشط متاهة الكلمات والمصطلحات الطبية، توصل إلى سبب مشكلته؛ إفراطه في شرب الكحول. لا أظن أني أفرطت في الشرب! لقد كان محقاً، لكنه كان غارقاً وسط كم كبير من المعلومات، وكلما قرأ المزيد عن المرض، كلما أدرك مدى خطأه. برزت عدة جمل، بين الجميع، رقد بينما يتنفس بصعوبة، لاعناً كل ما تناوله في الخمس سنوات الأخيرة، لكنه

يرغب بتناول المزيد منها الآن. وفي أجواء مثالية، أحب أن يتناول جرعتين كبيرتين من الفودكا مع بضع جرعات كبيرة من التيكيلا. وإذا ازداد الأمر سوءاً، سيدخن سيجارة، لم يكن دوشيانت مدمناً في أي وقت، وعلى عكس المدمنين ممن يعتقدون أن بإمكانهم الاقلاع عن العادة في أي وقت، كان يقدر على ذلك. أو ربما فكر في هذا.

استولى عليه النوم بسرعة فأغلق عينيه، متسائلاً ما إذا كان سيستيقظ مرة أخرى.

دار ما قرأه برأسه طوال الوقت حتى غلبه النوم.

من يعانون من تلف دماغي شديد (المرحلتين 3 و4) عرضة لانسداد الحنجرة نتيجة لضعف الارتكاسات الوقائية مثل ارتكاس الحنجرة. وهو ما قد يؤدي إلى توقف التنفس. إبقاء الحنجرة مفتوحة من خلال وضع أنبوب يبقى ضرورياً أغلب الاحيان لمنع أية تعقيدات تهدد حياة المريض (مثل: الشفط أو توقف التنفس).

تأمل أثناء نومه. «هل سيفتحون حنجرتي؟»

«ماذا لو تسبب التلف الدماغي في فشل كبدي حاد، هل يعني هذا ضرورة زرع كبد».

«كيف يمكن أن أحصل على هذا!» حتى فى نومه، أراد أن يسكر؛ فودكا. تيكيلا. ويسكي، أي شيء.

2 ـ أرمان كاشياب

حصل أرمان كاشياب على شهادات طبية من أرقى كليات الطب، لكنه اشتهر بدرجته العلمية في السلوك، يعلم اللّه من أين حصل عليها. يمشي في أروقة مستشفى نيودلهي التخصصي مختالا على نحو لا تراه في أطباء يكبرونه بثلاثة عقود، ويفوقونه حكمة. يقول نظرائه أنه متكبر؛ لأنه ينتمي إلى عائلة من أبرز الاطباء ورجال أعمال استثنائيين؛ أبوه أكبر طبيب قلب في القطر، والدته طبيبة نفسية شهيرة تتسم برهافة الحس، من ربات البيوت الاثرياء، اللاتي يعشقن الجنس، والمتاجر. أخته الكبرى طبيبة أطفال، يومها المعتاد مزدحم بمواعيد مع المشاهير، يجري الطب والتميز مجرى الدم في عروقه.

لم يكن هناك علاقة بين خلفيته الاجتماعية وغطرسته، لكنه يعرف فقط قدره وتميزه.

يعلم أنه لم يكن مجرد أبله، ولو كان كذلك لعمل في واحدة من سلسلة المستشفيات التي ضاعف والده عددها خلال العشرين عاماً الماضية. كان يجلس في مكتب رائع بأحد الأركان بصحبة عدد قليل من الأطباء البارعين تحت قدميه، ينفذون ما يأمرهم به، لكنه ابتعد عن هذا الاختيار، فضّل أن يتمرد ويثبت جدارته في كل دقيقة من كل ساعة يقضيها في مستشفى ليس له فيها أي نفوذ. تمتع بكل ذرة شهرة حققها لنفسه خلال السنوات الثلاث الأخيرة. ملامحه تعكس إخلاصاً وطيبة؛ بلغ طوله ستة أقدام، شعره قصير، يرتدي نظارات طبية بدون إطار، وقد ساعده حماسه الهادر على تحقيق النجاح.

«يبدو أنك حولت حياة إنسان لجحيم اليوم». قالت زهرة حين اقترب منها أرمان

«جحيم؟! من هم مثله يحولون حياتهم لجحيم ثم يأتون إلى هنا يحملون أمراضاً لا رغبة لي في تشخيصها أو علاجها. هذا إهدار للموارد». ثم أضاف بابتسامة خبيثة. «كنت أصلي حتى لا يستيقظ، ألم يكن من الافضل أن يحدث هذا؟»

سألت مصدومة. «أتتمنى له الموت؟!» مرت أسابيع قليلة على برنامجها التدريبي تحت إشراف أرمان، وما زالت تحاول أن تصل إلى سلام مع غرابة أطوار سلوك الطبيب العبقري. يعلم أرمان أنه لم يكن أفضل المدراء أو أكثر الزملاء تعاوناً، لكنه يعتقد أن المسؤولية تقع على الآخرين في قبوله كما هو. إنه على كل حال عبقرية نادرة.

«ألا تظنين أن الأجدر به أن يموت؟ لقد فشل في اجتياز اختبار القبول في واحدة من أفضل كليات الهندسة كي يشرب ويدخن حتى الموت. هل يستحق أن يعيش؟ أم البشر الذين يموتون في الشوارع يستحقون الفرصة؟»

قالت زهرة محاولة التغلب عليه. «حسنا، هذا ليس في مقدورهم».

«لا يعنيني أمرهم، لكن هذا الانسان لا يستحق أن يعيش. تخيلي ما على والديه أن يواجهانه. إنها وصمة عار. تبدين وكأنك تنسجمين مع والديك».

«كيف كان الأمر بينما كنت تكبرين يا زهرة؟ هل كان والداك يمليان عليك ما لا يجب فعله؟ لا تقابلي هذا الشخص، لا تتأخري، ورجاء لا تحصلي على درجات أقل من 95% في الامتحانات؟ متى توقف هذا؟ عندما التحقت بكلية الطب في دلهي ولم يكن لديهم أدنى علم عن دراستك أو ما عليك تحقيقه من درجات؟ كيف كان لهم التحقق مما إذا كانت درجة 100/70 درجة جيدة أم سيئة؟»

«حسنًا، ربما». أجابت

«تخيلي هذا، أسوأ بثلاثة أضعاف. ترسل المستشفى رسائل بريد إلكتروني بتفاصيل كل حالة أعمل معها ويمضون في إصدار تعليمات عما يجب عليّ أن أفعله. يتقيأ المريض دماً، يتصل أبي؛ إغماء، تتصل أمي، وإذا ما أصاب أحد نوبة، تتصل أختي! إنه منزل مجنون. كما لو كان إنقاذ الحمقى مثله لا يكفى، عليّ أن أجيب على كل سؤال لعين يوجهه لي والداي».

«هل هذا هو سبب عدم عملك في مستشفى والديك؟»

«لا أعمل عندهم، لأني أعتقد أني أستحق ما هو أفضل من ذلك».

«أتمنى أن أفهم ما تقصد يوماً، سيدي». قالت زهرة وهي تضع شعرها خلف أذنها

«هذا ليس أسوأ ما في الأمر. الاسوأ ـ أن الصواب غالباً ما يكون في صفهم!»

«هذا شيء مضحك، سيدي».

«عليك أن تكفي عن دعوتي بـ«سيدي» أولا. إن هذا يجعلني أشعر، حسناً، أني كهل. على أي حال، لدينا مريض جديد. حالة نموذجية تماماً. الجيد أن الفتاة تشبهك، لكنها أصغر سناً. التحقت بكلية الطب العام الماضي، اكتشفت أن شيئاً بديهياً ليس على ما يرام، شخّصت الحالة بنفسها. رائع. أليس كذلك؟».

نظر إلى وجهها، أدرك أن زهرة لا تعرف كيف يكون رد فعلها على ما قاله، وما إذا كان تأثر بالفعل أو أنه يسخر. على أي حال، كان يشعر دائماً أن ثمّة أمراً ليس على ما يرام عند زهرة. كانت متحفظة على نحو زائد عما يوحي مظهرها. بطول يزيد على مئة وسبعة وسبعين متراً، مما جعلها أطول من بعض الأطباء الذكور. لم يكن لديها أدنى قدر من الدهون في جسدها، ربما لأنها تدخن بشراهة. لكن شفتيها المكسوتين بظل وردي خفيف، ليس بهما أثر لاعتياد التدخين. ولا جلدها

البرونزي الغريب، المخملي الناعم. وللحق، في أول مرة رآها أرمان في معطفها الطبي الأبيض، وكعبها ذو الثلاث بوصات، ظنّ أنها ليست هندية على الاطلاق. قد تكون من البرازيل أو تشيلي أو الاوروجواي. أي مكان آخر غير الهند. وعادة ما تكون الطبيبات الجميلات فصيحات. زهرة، على الجانب الآخر، كان تحفظها أمر يثير الحيرة. ربما كانت حالة مثالية لوالدته، الطبيبة النفسية الشهيرة. ووفق كلام والدته، فهي مدمرة.

رجاها. «أيمكنك فحصها واستكمال الاوراق؟» ثم أعطاها الملف. «إنها هنا لإجراء بعض الفحوصات. سنقبلها بالمستشفى خلال يوم أو يومين».

«حالا، يا أرمان». أخذت زهرة الملف من يده وبدأت تقرأ. «تقول البيانات في الملف أنك كنت مستشارها خارج المشفى؟ لم أكن أعلم أنك تفعل هذا».

رد أرمان بوجه جاد. «إنها حالة خاصة. وسيكون من الافضل إذا ما احتفظت بهذا لنفسك».

«بيهو مالهوترا. السن 19». لمح أرمان عيني زهرة مثبتتين على الملف. لم تحرك ساكنا.

«هل هناك مشكلة؟»

«تعاني من التصلب الجانبي الضموري؟ كما في مرض لو جيهريج؟»

يمكن لأرمان أن يشعر بالصدمة في صوتها؛ علامة واضحة على كونها طبيبة شابة دون خبرة. توقع هذا. عندما سمع بالحالة للمرة الاولى، انتابه نفس الشعور؛ صدمة، عدم تصديق، شفقة.

«نعم، لماذا تبدين مصدومة؟»

«ألا يصيب هذا المرض الناس فوق سن الاربعين؟ إنها لا تزال في التاسعة عشرة».

«وهذا ما يجعل الأمر مثيراً. هل سمعت عن ستيفن هوكينغ؟»

سألت لتتأكد. «العالم الفذ؟ الطبيب الذي لازم الكرسي المتحرك وفقد القدرة على الكلام؟»

«تم تشخيصه في عمر الحادية والعشرين. قال الأطباء أن أمامه ثلاث سنوات. مر أربعون عاماً منذ ذلك الحين. كان مرضه يتقدم ببطء، أما مرضها، على العكس، يتقدم بسرعة كبيرة» وأشار إلى الملف. «تم تشخيصها منذ عام مضى وربما لن تظل حية خلال الاشهر الثلاثة المقبلة».

«ماذا نفعل؟ أليس هناك علاج؟»

«كلا، لا يوجد. أحاول العثور على علاج. فلنر ما سيحدث». قال وهو يهم بالعودة للعمل. «سنتخذ قراراً عندما يحين الوقت المناسب». ليس لديه أي نوايا في الاستغراق في حوار ـ الفتاة الفقيرة ـ مع زهرة. من الواضح أن زهرة كانت في حالة دهشة وقد تعرج وجهها ليعبر عن الشفقة، التي شعرت بها تجاه بنت التاسعة عشر التي تحتضر.

درست زهرة كي تعمل في هذه المهنة النبيلة لتنقذ أرواحاً وتجعل الناس أصحاء، ولم تملك يوماً قلباً يتجاهل آلام الناس في المقام الاول. وذكرُها لهذا يفزعها. شعرت بالأسف لأجل بيهو، كما انتابها نفس الشعور تجاه الأحمق الذي يرقد في الغرفة بكبد تالف.

3 ـ بيهو مالهوترا

تطلعت بيهو إلى أكوام الكتب المصطفة قبالتها. التوت شفتاها لتصنع ابتسامة شعور بالحرج. تطلعت حولها آملة الا يراها أحد. الامتحانات على الابواب، الجميع في حالة توتر، يتناولون الكثير من الكافيين. بينما هي في حالة ترقب. فقد أنهت المنهاج، مرتين.

انتشى أبواها لأنها اجتازت كل الاختبارات الطبيّة وقررت الالتحاق بكلية طب مولانا ازاد، أفضل كليات الطب في الهند. تبسمت بيهو، صافحت وعانقت. مدركتاً أنها مجرد بداية. لم تقدم لها المدرسة أبدا أية فرصة لتستغرق في كتب المنهاج بالطريقة التي كانت دائماً تتمناها، ولم يشكل لها تحدياً. أما امتحانات القبول، هى شرّ لا بد منه. كانت على يقين أنها ستجتازها. وعندما انتشرت أخبار حصولها على الترتيب الثالث في مدينتها، تدفق أصحاب معاهد التدريب الماكرون من أصحاب الكروش الضخمة إلى منزلها، رغبة في الترويج لمدرسيهم المؤهلين لتأهيل بيهو، ولفصول الدراسة المكيفة، مع صورة مع أبرز طلابهم، بيهو مالهوترا. وبعد بضعة أيام، كانت أخبارها فى الصحف المحلية. ها هي أحلام والديها تتحقق. أما أحلامها هي فقد بدأت للتو.

كانت هذه هي أول مجموعة من الاختبارات فى الكلية.

قال فينوجوبال متسائلاً بينما كان يخط بقلمه الفلورسنت على كتابه. «لا يبدو عليك التوتر؟»

قالت. «أنا بخير» وكتمت ضحكتها بصعوبة.

قرأت كتاب تشريح جسم الإنسان المفتوح أمامها مرتين، لديها رغبة في قراءة شيء آخر. اتجهت عيناها نحو كتاب الأمراض الملقى جانباً. طالب في السنة الثانية ينام فوقه. أرادت التسلل وخطف الكتاب من تحت رأس الطالب الاقدم منها، لكنها لا تريد أن تبدو مثل دودة مذاكرة.

سأل فينوجوبال بريبة. «أنهيت دراسة المنهاج، أليس كذلك؟»

قالت وقد أحمر وجهها. «نعم، لكن على أن أقوم ببعض المراجعة».

«ولكن متى؟ أنك تمضين أغلب الوقت معنا. من أين تحصلين على الوقت لفعل هذا؟ لأراك تدرسين!»

«أتعدني الا تخبر أحداً؟»

قال فينوجوبال. «أعدك». ثم عدّل وضع النظارات على أنفه الضخم. ومن الواضح أنه لن يكتم السر. تعرف بيهو هذا جيداً. قُدر لفينوجوبال وبيهو أن يكونا أصدقاء بعد نداء الاسماء بالترتيب في غرفة الدرس، التي تضم ثلاثمائة وخمسة وثلاثين طالباً. أرقامهما كانت متتابعة؛ لأن اسمه بالكامل بي فينوجوبال. وبي تشير إلى شيء لا يمكن نطقه للهنود في المنطقة الشمالية. كانوا شركاء فى التشريح، قطعوا وشرحوا أول جثة معاً، إنه نوع من الاشياء التى تربط طبيبين معاً بقية حياتهما. نفس الشيء الذي يعنيه تناول طالبي هندسة لأول كأس ويسكي. غير هذا، فقد كانا متشابهين إلى حد كبير. أسرتان متوسطتان، آباء يعملون في وظائف حكومية، أمهات ربات بيوت، وهما أيضاً من الاوائل في منطقتهم على المستوى الدراسي. في عالم متواز توافق فيه شمال وجنوب الهند، وفاق صنع في الجنة.

صارا خلال الاشهر الثلاثة الماضية أقرب الاصدقاء. ليس بينهما أسرار. لم يكونا

مضطرين لذلك، ربما لأن حياتهما بسيطة. بشر بسطاء برغبات بسيطة. ليس لديهما ما يخفيانه. لم يرتادا الحفلات، لم يدخنا أبدا، ولم يشربا. ولم يتأخر أي منهما عن العودة للمنزل بعد الثامنة. لم يشعرا بالحاجة لفعل هذا. قالت بيهو. «قرأت بعض الكتب قبل التحاقي بالكلية».

«حقاً؟ أي كتب؟»

«التشريح. الفسيولوجيا. علم الادوية العامة. وبضعة كتب أخرى».

«لطالما أردت الاطلاع عليها منذ أن بدأت الاستعداد لخوض امتحانات القبول بكلية الطب. هذا كل ما أستطيع وأردت القيام به».

«أنت مجنون».

«لماذا؟»

«أردت دائماً أن أكون طبيبة. ومنذ كنت طفلة صغيرة. في البداية، اعتقدت أنني أحب الحلوى التي أعطاها لي طبيب الاطفال! ولكن مع مرور الوقت، صار لدي هاجس. كنت أدعي المرض وأنا طفلة حتى أستطيع الذهاب إلى المستشفى لأسمع الطبيب وهو يتحدث عن أمراض متنوعة وعلاجها. هذا كل ما تمنيت فعله. ألم تفعل أنت كذلك؟» غمغمت وأطبقت رموشها بخجل.

أجاب فينوجوبال «دائماً ما أردت مهنة. أن أكون طبيباً كانت إحداها. لكنك عظيمة. ستصبحين طبيبة عظيمة».

«شكرًا». احمر وجه بيهو، وقالت. «أنت أيضاً».

«أتمنى ذلك، ولكن لماذا لم تخبريني من قبل؟ ربما علمتني شيئاً. أنا أعاني هنا».

قالت. «يمكنني أن أعلمك».

دفع فينوجوبال بالكتاب نحوها، واضعاً ذقنه على ركبتيه وقال آمراً. «علميني!».

قالت بيهو بهدوء. «لا أريد أن تظن أني مجنونة».

قال فينوجوبال ضاحكاً. «لست بحاجة لذلك».

تنظر بيهو لفينوجوبال كشاب مهذب وسيم. إنه من تشيناي، تاميل نادو، وبالكاد يجيد الهندية. قضت بيهو الأسابيع القليلة الأولى بإجباره على الحديث باللغة الهندية ضاحكة. اكتشفت أنها عثرت على صديق عمر بمكان ما بين محاضرات عن رئة الإنسان والغدد الليمفاوية. أحببت الطريقة التي لعن بها أكل دلهي، شكواه من كافيتريا الكلية البشعة. تعززت صلتهما خلال عدد لا يحصى من وجبات الزبد والدجاج والسلطة الفظيعة، التي تخللها جدلهما عن أفضلها طعماً.

حدقت بيهو في الكتب مرة أخرى متسائلة. «أين الخطأ». خيّم الخوف على عقلها. تعاركت الملايين من الاحتمالات في عقلها حتى أجهشت بالبكاء. قرأت عن الوسواس القهري لطلاب الطب، حالة تصيب طلاب الطب حيث يشخصون إصابتهم بأمراض لا يعانون منها. وهذا نتيجة البارانويا التي يعاني منها شخص بعد انشغال ذهنه بالعديد من الاعراض على مدار اليوم. وهي تعرف على سبيل اليقين أنها لا تتوهم شيئاً.

غادرت قاعة الامتحانات قبل ثلاثين دقيقة من الموعد المحدد. كانت تعرف كل الاجابات. امتلكت الرغبة في كتابتها. القلم في يدها، والأجوبة فى رأسها. تشنجت يدها. ولم يكن هذا بفعل الخوف من الامتحان، إنها لا تعرف ما هو شعور الخوف من الامتحان. هناك ما أصاب يدها.

ولم تكن هذه هي المرة الاولى التي شعرت فيها بهذا، ولكنها تجاهلت الأمر في البداية.

حاولت تحريك يديها دون جدوى. بعد صراع مع الألم المتقطع وفقدان الإحساس لمدة نصف ساعة، بدأت في الكتابة. كتبت ثلاث إجابات جيدة عندما عاودها الألم وانعدام الإحساس. سقطت دموعها. لم تعرف ماذا أصاب يدها. مرّ بعقلها كل صفحة قرأتها من كل كتاب طبي. رأسها يؤلمها. تدفقت الدموع على وجهها. قبل نصف ساعة من انتهاء الاختبار، غادرت القاعة والدموع في عينيها، والتشنجات في كلتا يديها.

سأل فينوجوبال. «لماذا لا تردين على الهاتف؟» بينما استبد به القلق والاحباط.

داوم فينوجوبال على الاتصال بها لوقت طويل. لم تجب بيهو على أي من الاتصالات حتى دعته للانضمام إليها فى المكتبة.

شرحت بيهو. «ثمة شيء أصابني. لم أعره الكثير من الاهتمام في وقت سابق، لكني بالتأكيد لست على ما يرام».

قال فينوجوبال مبتسماً. «نعم، أعرف، إنك تبذلين جهداً كبيراً في الدراسة».

«كلا؟ ليس للامتحان علاقة بهذا».

قال. «ماذا؟ ألم تقومي بعمل جيد؟ كل شيء علمتني إياه كان رائعاً! بدا كأنك تعرفين الاسئلة مسبقاً. ستقومين بتدريسي من الآن فصاعداً!» ثم ضحك.

قالت بيهو. «لم أكتب شيئاً بعد السؤال الثالث». ثم انهمرت الدموع من عينيها.

«مهلاً... مهلاً... فما الذي حدث؟ هل كنت متوترة؟ ولكنك تعلمين كل شيء، أليس كذلك؟»

«أعرف كل شيء».

سأل فينوجوبال. «هل نسيت كل شيء؟» وبدا على وجهه الانزعاج.

«لا! عرفت الاجابات».

«شششش». طالبهما أمين المكتبة بالهدوء.

«ثم ماذا حدث؟»

«عجزت عن الكتابة بيدي... فقدت السيطرة عليها». قالتها ثم انهارت باكية. بدت الحيرة على فينوجوبال. وضع يدها بين راحتيه. سألها عما تشعر في يدها. تشعر بيهو بدفء لمسة فينوجوبال، لكنها تعلم أنها ليست على ما يرام. «لماذا أعجز أن أشعر بها!»

سأل فينوجوبال. «هل تشعرين بيدي؟»

قالت. «أنا مرعوبة». أمسكت القلم الرصاص من علبة الادوات.

حاولت كتابة اسمها على قصاصة ورقية. عجزت عن السيطرة عليه.

راقب فينوجوبال مفزوعاً بينما كانت تخط على الورق. لم يكن هذا الخط الفني الجميل الذي تكتبه عادة. من الصعب قراءته. بدا كأنها تستخدم اليد الخطأ. «أعجز عن التحكم في يدي».

«فلندهب إلى الطبيب؟»

«أردت أن أصبح جراحة» قالتها بينما أسندت رأسها فوق الكتب. بكت.

«اهدأي يا بيهو. لا نعرف مم تعانين. ربما يكون الأمر بسيطاً، قد يكون نقصاً في فيتامين سي. هناك حالات مسجلة لنقص فيتامين سي تتسبب في حدوث شلل. حتى إذا لم يكن الأمر هكذا، هناك ملايين الاسباب الاخرى الحميدة!» ثم طمأنها فينوجوبال. «ربما تبالغين».

سألت. «ماذا لو لم يكن سبباً حميداً؟ إذا كان هناك شيء ما أكثر؟» وتساءلت وصوتها يتقطع وهي تبكي.

نظرت إلى يدها. شاحبة عديمة الجدوى.»لا تكوني سلبية! ربما الأمر ليس

بهذا السوء. هذا لا يمكن أن يحدث لي. ربما يكون فينوجوبال على حق». كل الاسباب المحتملة وراء الاعراض بدأت تلقي بظلالها على تفكيرها. كادت تصاب بالجنون، دموعها انهمرت بغزارة.» ما هذا؟ نوبة؟ تلف عصبي؟ شلل؟ تسمم؟ شلل النخاع الشوكي؟ تصلب أنسجة مضاعف؟ متلازمة جيليان بار؟» دون مقدمات، بدا كما لو أنها أصيبت بكل الأمراض التي قرأت عنها حتى الآن. وكلما كان المرض قاتلاً، كلما زاد يقينها من إمكانية إصابتها به. فارقها النوم في تلك الليلة لانشغالها بدراسة كل سبب محتمل لأزمتها. في صباح اليوم التالي، كان لديها قائمة تضم تسعة وثمانين سبباً محتملاً. استعدت لإجراء العديد من تحاليل الدم فى اليوم التالي.

كان على فينوجوبال مواجهة امتحان عسير قادم. قضى وبيهو الليل بطوله في بحث كافة الاسباب المحتلمة لفقدان بيهو السيطرة على يدها. حصرا تحاليل الدم المطلوبة في 20 نوعاً من الأمراض، وقاما بزيارة معمل التحاليل ليلاً، وهو ما يعد وقتاً متأخراً بالنسبة لهما. لم ترغب في إزعاجه، لكنه أصر. انتظرته بيهو خارج قاعة الفحص في اليوم التالي حاملة نتائج تحاليل الدم.

كان الدم يعمل بكفاءة، وبهذا استبعدت ثمانية وثمانين سبباً محتملاً.

قالت بيهو في الهاتف. «لم أكن أعتقد أبدا أني سأكون أول من يقوم بالتشخيص».

لم يكن هناك اختبارات أخرى. فحصت تحاليل الدم البكتيريا والفيروسات، أمراض أخرى؛ أجريت اختبارات التنفس لفحص الرئتين، أشعة الرنين المغناطيسي لفحص إصابة بالرقبة؛ أُجري فحص كهربائي للعضلات لمعرفة حالة أعصاب اليد، أشعة رنين مغناطيسي على الرأس لمعرفة حالتها، إضافة إلى فحص للأعصاب لتستكمل كافة الفحوصات.

قال فينوجوبال على الجانب الآخر من الهاتف. «لا نستطيع الجزم بشيء».

همست. «أتمنى ألا أضطر لذلك». قالتها وهي تسمع صوت تقليب الصفحات، ثم سألت. «هل ما تزال فى المكتبة؟»

«كلا، لست هناك».

«يجب أن تخرج يا فينوجوبال! لقد انتهت الامتحانات لتوها. اذهب لنزهة مع الاصدقاء».

قال. «لن أفعل بدونك. أريدك أن تكوني معي».

أجابت. «لا أظن أنني سأعود».

«لا يجب أن تتحدثي هكذا. لم تذهبي للطبيب بعد. عليك أن تكوني إيجابية».

قالت. «لا بد أنه قرأ ذات الكتب التي لدينا. أنا على يقين من الذي أعاني منه يا فينوجوبال. لا يمكنني أن أكون في حالة إنكار».

جادلها قائلاً. «هل تتصورين أن لا قيمة للخبرة؟ اذهبي للطبيب. ربما يكون هناك سبب آخر».

لا تريد بيهو مواصلة الحديث بأي حال. تعرف جيداً أنه في حالة إنكار لما حدث. يشعر جزء منها بذات الحالة. وباستثناء هذا الاتصال، فإنها لم تكف عن البكاء منذ أن اكتشفت أمر إصابتها. لعنت عدم توازن الطبيعة الجائر. لا تستحق ما تعاني منه. بكت وفاض دمعها على التقارير مراراً وتكراراً، على أمل أن يكون في الأمر خطأ ما. أعربت عن أملها أن تكون مخطئة في تشخيصها. ربما. إنها ما زالت طالبة في السنة الاولى بكلية الطب، وربما لا يجب عليها أن تشخص أي حالة بشكل سليم.

سأل. «هل ستخبرينهم؟»

قالت. «أعتقد أني سأخبر أحد الاطباء بذلك. امتلأت عيناها بالدموع». وصل مسامعها تقليب الاوراق من الجانب الاخر. «سأتصل بك لاحقاً، الاشارة سيئة». ثم أغلقت الهاتف. تنهدت قائلة. «أتمنى أن أكون مخطئة فيما ذهبت إليه». عادت الدموع، والحقيقة أنها لم تتوقف خلال الساعات الثلاث التي استغرقتها رحلتها إلى البيت من حرم الجامعة. تلاشت كل أحلامها فى لحظة.

بمجرد وصولها للبيت، وقفت أمام والديها، تشكو لهما الاحاسيس الغريبة التي تشعر بها في ساعدها الأيمن. بدأت أمها تسأل عن الامتحانات. بينما سألها والدها ما إذا كانت تأكل بطريقة صحيحة. استغرق الأمر قرابة الساعة حتى يأخذا مسألة التشنجات وفقدان الاحساس، الذي تشعر بهما في يدها على محمل الجد. رأت أمها أنها تعاني الاجهاد. بينما اقترح والدها أنها عدوى. مياه دلهي مليئة بالطفيليات والجراثيم. قال. «إنك على وشك أن تكوني طبيبة، تعرفين هذا». أصرت على أن تذهب للطبيب. ابتسم والدها من هذه العبارة الساخرة. أدركت بيهو عما يفكر والدها. تخيلها طبيبة. وهذا ما تراه بيهو أملاً بعيداً لن يتحقق. تنهدت وقالت. «أتمنى ألا أكون على صواب».

في الطريق إلى المستشفى، حاولت أن تكون على طبيعتها المرحة، رغم أن كل ما تريده هو البكاء. ربما كانت مخطئة. سألها الطبيب في المستشفى بضع أسئلة وطالبها بإجراء بعض تحاليل الدم.

«ربما لا يكن في الأمر شيء». قال مطمئناً الوالدين القلقين. «فلننتظر نتائج تحاليل الدم. عودوا وغداً سوف نعرف ماذا أصابها» ثم قدم طبق الحلوى لها. وكعادتها، كدست حفنة من حلوى الاكلير في جيبها.

تعلم بيهو أن الطبيب لن يجد أي شيء غير عادي في الاختبارات، وسيطلب تحاليل جديدة. وبمجرد عودتها للمنزل، أخذت تفتش عن كل بحث أو وثيقة

كتبت في أي وقت عن هذا المرض. وقد بحثت في كل التقارير التي وجدتها لدى أي فريق بحثي في أي مستشفى في دلهي متخصصة في أبحاث الخلايا الجزعية، يحاول تطوير علاجات للمرض. عثرت على البريد الالكترونى لأحد أطباء الفريق ـ أرمان كاشياب ـ الذي يفترض أنه عبقري. كتبت له بعض التفاصيل التي تخص مرضها في رسالة إلكترونية. كانت يائسة. ولم تكن تريد أن تموت؛ لأنها لا تستحق هذا.

وفي تلك الليلة، ما أن انتهت من القراءة عن مرضها، وبكت بما يكفي لتصير متعبة، اتصل فينوجوبال مجدداً. كان يكاتبها بشكل متواصل من خلال رسائل قصيرة. تعرف بيهو على سبيل اليقين أنه كان يقرأ عن المرض أيضاً.

سأل فينوجوبال. «ماذا قال الطبيب؟ هل طلب كل تحاليل الدم؟ هل توصل لشيء؟ أية أسباب بديلة؟ تشخيص مختلف؟» بدا الذعر واضحاً على صوته كل الوضوح.

«ستكون التقارير جاهزة يوم غد. أعرف أنها ستكون إيجابية. لم يصل لتصور بعد».

«ربما يتوصلون لشيء لم نصل إليه. قمنا بالفحوصات لمرة واحدة فقط. أين ذهبتي؟ مستشفى دلهي؟» غمغم فينوجوبال، لم يفقد الامل بعد. لم يكن مقتنعاً هذه المرة. راجع التقارير مرة ومرات، بيهو كانت واثقة منها. جميعها كانت صحيحة.

«فلننتظر حتى الغد».

«هل أنت بخير يا بيهو؟»

«نعم».

«هل تشعرين بالخوف؟»

«جداً». قالتها بيهو وبدأت في البكاء بهدوء. وعدت نفسها أنها ستكون قوية وستكف عن البكاء، لكنها فشلت. قرأت عن معاناة الاشخاص الذين عانوا من نفس المرض، وانتابها شعور فظيع، ولأنها قرأت حكايات رهيبة عن المرضى الذين يفقدون السيطرة على أجسادهم ببطء بينما يتلاشى الجسد، بدأت في التساؤل عن عدالة الأمر برمته. لماذا أنا؟ من بين كل الناس! لعنت المرآة التي أمامها لأنها تكذب. إنها لا تتمتع بصحة جيدة. إنها تتمزق، ببطء، شيئاً فشيئاً.

طمأنها. «سيكون كل شيء على ما يرام».

«طبعاً لا. أنت تعلم هذا! أنا أواجه الموت يا فينوجوبال...»

بكت قليلاً على الهاتف، حتى غلبها النوم في النهاية. لا تعرف المدة التي انتظر خلالها فينوجوبال حتى يغلق الهاتف. لا يهم. عليها أن تواجه هذا وحدها. عليها أن تعتاد.

ساءت الامور فى صباح اليوم التالي. تحوّل إنكارها إلى قبول، هذا القبول سبب لها الاكتئاب. بقلب مثقل، تصفحت جميع المواقع التى كانت قد سجلتها فى اليوم السابق، بحثاً عن علاج على الانترنت، رغم علمها بأنه لا يوجد علاج، ثم تابعت بريدها لتتبين ما إذا كان دكتور أرمان كاشياب رد على رسالتها الطويلة الصاخبة.

وبعد قليل، كانوا فى السيارة، يتناقشون حول حركة المرور فى الصباح الباكر في طريقهم إلى المستشفى. جلست بيهو في المقعد الخلفي، تتساءل ما إذا كان الطبيب قد توصل إلى نتيجة ما. وأعربت عن أملها في قدرته على ذلك. وأن الأمر ليس كما تظن. تصورت الالم الذي سيمر به والداها، صار أمراً لا يحتمل.

قال الطبيب. «صباح الخير» وهو يبتسم. «تحاليل الدم نظيفة».

ارتسمت الابتسامة على وجهي والديها. بقت بيهو بلا حراك بينما تتطلع إلى ماركات ـ الاقلام، الدفاتر، الساعات، المفكرات من أكبر شركات الادوية. فتحت أمها ذراعيها كما لو أنها أرادت أن تقول. «أعلم أن هذا بسبب التوتر». لعب أبوها بدون مبالاة بنموذج بلاستيكي للمخ البشري.

قال. «هل ما زلت تعانين من مشاكل في يديك؟ أي مشاكل أخرى؟ صعوبة في التنفس؟ أي شيء؟»

قالت. «الآن يبدو أنه بدأ يستوعب. ربما. كنت لأصبح طبيبة جيدة». حاولت أن تثبت ولا تبكي. بدا والداها في حالة توهان. إنها تشعر بالأسف عليهما.

مرة أخرى، ملأت جيبها بحفنة من حلوى الاكليل.

تطلع الطبيب إلى والديها وبدأ في سؤالهما عن أسرهما. «أجداد بيهو؟ هل ما زالوا أحياء؟»

أخبروا الطبيب بكل ما أراد أن يعرفه وسجل بدوره كل شيء في كراسة صغيرة. عرفت أنه لم يتوصل لطبيعة المرض بعد. وأشار الطبيب إلى كل شيء على منصة صغيرة. علمت أنه لم يتوصل لمرضها بعد. لكم يساوره الشك حيال ما تعاني منه بيهو.

قال. «علينا القيام ببعض الفحوصات الاخرى، لنختبر استجابة الاعصاب. ليس أمراً خطيراً». وابتسم الطبيب. ردت له الابتسامة. «هل يعرف؟ لماذا يبتسم؟»

«أنا على يقين أن هذا بسبب التوتر. أتعلم، إنها طالبة في كلية الطب. الكثير من الضغط، كتب كبيرة، السهر حتى أوقات متأخرة. إنها طالبة متوقفة، تصدرت المنطقة كلها في الاختبارات. حلمت أن تصير جراحة». امتلأ صدر أمها بكبرياء واضح.

أومأ الرجل بالموافقة على كلامها.

سأل أبوها. «هل تعرف ماذا أصابها» مع احتفاظه بفراغة عقله.

«من فضلك لا تسأل يا أبي، أنا أموت ببطء. رجاء لا تسأل».

«أجاب الطبيب. «لننتظر نتائج التحاليل». ثم صحبها إلى غرفة التحاليل.

استغرق الأمر من الطبيب ثلاث ساعات من التحاليل والمشاورات مع أطباء آخرين حتى يصل إلى النتيجة التي توصلت إليها بيهو قبل أيام. لاحظت الصدمة على وجوههم، بينما يناقش الطبيب أطباء آخرون في حضورها. بينما يتحدثون وينظرون نحوها، بشيء من الشفقة ارتسمت على وجوههم، كانت على ثقة أنهم لا يعلمون أنها تعرف. لجأ بعضهم إلى زملاء لهم في مستشفيات أخرى للمشورة.

سألت بيهو الطبيب. «هل توصلت إلى شيء؟» بينما كان الطبيب قلقاً.

قال. «حصلنا على تأكيد قاطع من طبيب خبير في ألمانيا». شعرت بالأسف على الطبيب كذلك. لم عليه أن يكون جزء من هذا الحزن الذي سيخيم على العائلة.

قالت. أعرف ما أعاني منه أيها الطبيب». بينما تدلى رأسها.

«عفواً؟»

«أنا طالبة بكلية الطب. في السنة الاولى، جامعة دلهي. قمت بالتحاليل بنفسي».

«أي اختبارات؟» تحولت الصدمة على وجه الطبيب إلى القلق والشفقة.

«أعاني من تصلب جانبي ضموري. أعلم أنه لا يوجد تاريخ وراثي. أعرف أن ليس له علاج. أعلم أني سأموت ببطء. ربما أموت هذه السنة أو السنة القادمة. ولكن سأموت فى نهاية المطاف. لقد قرأت كل ما كتب عن المرض.

أعرف ماذا سيحدث». ثم أوضحت. «لن يصبح بمقدوري تناول الطعام بمفردي، أو الذهاب إلى الحمام، أو حتى التنفس. ستوصلون أنبوباً عبر حنجرتي حتى أستطيع التنفس، أو ربما أختنق بفعل اللعاب». لم تناقش مستقبلها المؤلم مع فينوجوبال، لم تملك الشجاعة لذلك. بدا كأن هذا لا يمكن أن يحدث لها. بينما وصفت للطبيب كيفية انتهاء حياتها، أخيراً أصبحت متصالحة مع هذه الحقيقة. إنها الحقيقة إذن في تلك اللحظة، كل أحلامها، التطلعات، طموحها كطبيبة. تلاشى كل شيء، وخيم الوجوم على وجوه والديها التي تطلعت نحوها. لمعت عيناها وقررت ألا تبكي. هناك خطأ ما! لا يجب أن يحدث هذا لي. لم أفعل ما أستحق عليه هذا. أنا بصحة جيدة تماماً! صرخ قلبها بأعلى صوت.

«لابد أن هناك علاجاً».

«ريلوزول، ديازيبام، أميتريبيلاين. سيمنحونني بضعة أشهر. أيام قليلة من التنفس الطبيعي. قرأت كل هذا».

منعت نفسها من البكاء. ولم يرد الطبيب أن يمنحها أي أمل كاذب. إنها مستعدة لما هو قادم.

التصلب الجانبي الضموري مرض قاس. تبدأ أعراضه بتحول المريض تدريجياً إلى شخص أخرق. يعجز عن التحكم بالاشياء، يصاب بالتعب بسهولة، يتراجع الاحساس في أطراف المريض تدريجياً حتى يصاب بالشلل. بعدها يقع تحت رحمة المحيطين. لا يمكنك تناول الطعام، نظراً لضعف عضلات الفك واللسان للدرجة التي تعجز فيها عن مضغ الطعام. لا يمكنك التحدث بسرعة أو لفترة طويلة؛ لأن فمك سيصاب بالتعب بعد مرور دقيقة أو نحو ذلك. ستسير على عكازين... قبل اضطرارك لاستخدام كرسي متحرك. وفي القريب العاجل، سيكون هذا مشكلة أخرى؛ نظراً لعدم وجود قوة كافية في الساعد تمكنك من دفع عجلة

الكرسي. ستصاب بالشلل وتكون طريح الفراش. العديد من الأنابيب ستخترق جسدك حتى تساعدك في تناول الطعام، التنفس، التبرز. ستبقى حياً بمعاونة الآلات. وهي طريقة بائسة للحياة.

قال. «أنا آسف، كنت أتمنى أن يكون بيدي شيء لأفعله لأجلك. يمكنني أن أعطيك بعض الكتب عن أولئك الذين تمكنوا من محاربة المرض. لم يربحوا، لكنهم ماتوا سعداء. لا يمكنك الانهزام أمام المرض».

«أتمنى أن تخبر والديّ». قالت. «ليس لدي الشجاعة» ثم انهمرت الدموع مجدداً. وحاولت أن توقف نشيجها بقدر ما تستطيع. لم تفكر أن والديها سيعيشان فترة أطول منها. ليس هناك أسوأ من أن يحدث هذا لأحد الوالدين. قال. «أنت أجرأ مريض رأيته منذ أمد بعيد» وأضاف بعد توقف قليل. «لي ابنة، إنها في السابعة».

«هل تريد أن تصبح طبيبة أيضاً؟»

قال الطبيب. «نعم. أنت تذكريني بها». نظر في التقارير في يديه ثم أغلق عينيه. وتساءلت بيهو إن كان يدعو أن تكون النتيجة خاطئة. ثم فكرت في عدد أحكام الإعدام التي منحها الطبيب ذو الاربعين سنة قبلها. أخبرتها أعين الطبيب التي غمرتها الدموع أنه ليس لديه تجربة سابقة في هذا الأمر.

قالت بيهو. «فلنخبر والديّ بالأمر؟» أمسكت بيد الطبيب ثم مالت لتمسك ببعض حلوى الاكلير،وقالت. «هذه لابنتك مني».

«بالتأكيد» أومأ وأخذ نفساً عميقاً.

أخذت بيهو واحدة بدورها. شعرت بدوار ما إن وصلت إليها أنات أمها وآهات أبيها. دخلا غرفة الطبيب. تقابلت عيونها وعيون والديها وكانت على يقين أن

بإمكانهما رؤية الرعب داخلها. تدلت وجوههم كأنهم يعرفون ما يوشك الطبيب المتوسط العمر أن يقوله لهم. ذهبت وجلست بجانب أمها، أمسكت يدها. بدا الطبيب الشرح. اتشح العالم بالسواد. صار عقلها فارغاً. إنكار والديها، صرخاتهم، صياحهم، اتهاماتهم ضد طبيب عديم الكفاءة، المستشفى غير المسؤول، ادعاءاتهم أن ابنتهما بكامل عافيتها، ليس هناك شيء في عقلها. ربما هناك شيء أصاب شبكيتها.

ستلقى حتفها، راقدة على سرير المستشفى دون حراك، بينما تخترق أنبوبة حنجرتها.

4 ـ كاجال خورانا

كانت كاجال تسير في غرفة الفندق بتوتر. الأخبار التي تلقتها أن دوشيانت يرقد فاقداً الوعي لمدة ثلاثة أيام قد وصلتها للتو. ولم تكن هذه هي المرة الاولى التى تتلقى فيها اتصالا من هذا النوع. بينما كانا يتواعدان، اعتادت الذهاب إلى المستشفى، وحمله وإزالة مخلفاته، لكنها اليوم قمعت الدافع على ترك كل شيء وزيارته. قالت. «لا يريد أن يراني. ترى هل أريد رؤيته؟»

مر عامان منذ المرة الاخيرة التي تحدثنا.

اتصلت كاجال بالرقم.

«مرحباً، مستشفى نيودلهي التخصصي؟ هل أستطيع التحدث إلى الطبيب المعالج لمريض بالمستشفى؟ اسم المريض دوشيانت روي».

رد صوت على الجانب الاخر من الهاتف. «انتظري لحظة. ثم سمعت صوت الانتظار».

«أهلاً؟ أنا زهرة ميرزا».

قبل صيفين من اليوم، كانت كاجال طالبة بالسنة الثانية، بينما كان دوشيانت يسبقها بعام. لم تدرك كاجال اهتمام دوشيانت بها الا بعد أن نبهها بعض الاصدقاء أن أحد الطلاب الكبار يتابعها طيلة الوقت. لم يكن سوى طالب كبير يشتم كثيراً، شرس، سيئ السمعة، ثمل، ولع بإثارة المشاكل؛ دوشيانت روي. لم تفطن كاجال

إلى تحركاته الخفية مبكراً، إلا أنها بدأت تدرك وجوده في كل مكان. لم تلتفت له من قبل واعتبرته مجرد واحد من طلبة كثيرين في قسم الهندسة الميكانيكية. لم يعلم أبوها الغني أنه سيغير حياتها للأبد. بدأ الأمر بينما كانت تجلس كاجال بالمكتبة بفتور، تتطلع بتراخ عبر النافذة...

كانت كاجال تتطلع إلى الساحة المفتوحة لكلية الهندسة في جامعة دلهي، وشعرت أنها منعزلة عن العالم. مر عامان منذ أن بدأت دراسة الهندسة الالكترونية وشعرت بخيبة الأمل مع كل يوم يمر. لم يكن لها شغف لدراسة المعادلات والتحويلات، شأنها في ذلك شأن العديد من الطلبة الآخرين الذين يدرسون معها. بينما استسلم الكثيرون إلى قدرهم كمهندسين مدى الحياة، ما زالت كاجال تؤمن أن بإمكانها أن تفعل ما هو أكثر من ذلك. على الأقل تملك الأمل. يستطيع من يملك المال أن يفعل هذا دائماً؛ الأمل، تغيير المهنة، فعل أمور باهظة التكلفة، وصف أنفسهم بالمسافرين بعد شراء رحلات لدول أوروبية والبقاء في منتجعات جميلة. وعلى الرغم من أن كاجال لم تكن قط من هذا النوع، إلا أنها كانت بلا هدف.

كانت آخر أمنية تمنتها أن تصير كاتبة. كانت دائماً قارئة نهمة. لشكسبير، تشارلز ديكنز، أنيد بليتون، في صغرها، إلى ديفيد بالداتشي، دان براون، نيكولاس سباركس، عندما كبرت اتجهت إلى الأعمال الكبيرة لمحسن حميد، نايباول، قرأتها جميعا. اتخذت ركناً في المكتبة، لتبدأ في قراءة الصفحة التي انتهت عندها في اليوم السابق، أحدث كتب نيكولاس سباركس. مثل أي فتاة أخرى، أمضت عدداً لا يحصى من الليالي تبكي بفعل كتاباته، رغم أنها حافظت بإصرار على ابتعادها عن الروايات الرومانسية، ولم يرق لها كتّاب الرومانسية، وقصص الحب الساذجة التي تجري فى كليات الهندسة.

«مرحباً». سمعت صوت من خلفها.

التفتت لترى الرجل الذى كان يتبع أثرها في كافة أنحاء الكلية على مدى الأيام القليلة الماضية، يقف فوق كتفها مباشرة. وكان أول شعور انتابها هو الاشمئزاز. كان شعره أشعث، يبدو أنه لم يغير ملابسه طوال أيام، إضافة إلى ذقنه التي تبلغ من العمر أربعة أيام. لم يكن طويلا، ربما مئة وستون متراً، أو حتى أطول، لم تستطع أن تحدد؛ نظرًا لكونه قوي البنية بالنسبة لقامته. تخيلت فين ديزيل الهندي. ليس من النوع الذي تحبه، تحب الرجل أكثر ليونة. مثل إدوارد نورتون. مثل توم كروز. ربما داكناً على نحو ما.

«نعم؟»

سأل. «هل لديك مانع أن أجلس هنا؟» ثم أشار إلى المقعد المجاور لكاجال.

ترددت كاجال بينما جلس بدوره على المقعد دون أن ينتظر الاجابة. فكرت «وقح». أحبت ذلك.

قال. «قرأت هذا الكتاب. يماثل آخر كتاب له. ماتت الفتاة ويبكي الجميع. كتبه جميعها متشابهة. ولا أعرف لماذا لا تزال الفتيات تحبه. يمكن توقع أحداثها جميعاً».

ردت كاجال. «لم أكن بحاجة إلى أن أعرف هذا». شرعت في القراءة، دون تركيز. نسيت آخر فقرة كانت تقرأها. لا يهم. قالت بعدها بقليل. «حتى لو كان الكتاب نفسه، الناس مختلفة وكذلك المشاعر. إنها تجربة جديدة تماماً فى كل مرة. ربما لن تفهم. لا أتوقع منك هذا».

«في الحقيقة، أستطيع. وهذا هو السبب الذي دفعني لقراءتها كلها. حسناً، فى البداية قرأت واحداً لما رأيتك تقرأينه، واعتقدت أننا ربما يكون لدينا ما نتحدث عنه. انتهى بي الأمر أن قرأتها كلها».

ضحكت. «يا لك من فتاة!»

أومأ برأسه موافقاً. لم تكن تتوقع أن الشاب الجالس في المقعد المجاور يشاركها نفس الذوق في الكتب. ستعرف لاحقاً أن هذا ليس حقيقياً. اهتمام دوشيانت منصب على الدوام على كتب تأخذه بعيداً إلى عالم يتجاوز الواقع. يقرأ كتباً لم يسمع بها الناس. مذكرات سفاح. ثلاثية غير مطبوعة عن طبيب مجنون. وغيرها.

دارت عيناها بعصبية بعد أن خيم صمت متوتر بينهما. بدا حازماً، عروق ساعديه البارزة توارت خلف قميصه، الذي بدا مناسباً له. إنه مفتول العضلات دون شك. انبعثت منه رائحة عطر نفاذ، كما لو أنه حاول أن يبدو حسن المظهر في اللحظة الاخيرة. كان بإمكانه على الأقل أن يحلق ذقنه!

قال. «حسناً» ثم رفع يده.

قالت كاجال. «حسناً» ورفعت يدها التي تعلقت في الهواء. سحب يده واكتسى وجهه بحمرة خجل. لم تقابل عيناه عينيها. ربما أمكنها أن تلحظ عصبيته. ارتجفت قدماه. عادت كاجال إلى القراءة مجدداً. ذات الفقرة، مرة ومرات. جلس متطلعاً إليها، بينما يفرك راحتيه، وقد زاغت عيناه هنا وهناك، يبدل قدميه، وينظر متململاً لهاتفه. ثم قال أخيراً. «كنت أتتبعك».

أجابت كاجال. «أخبروني بهذا».

«لمدة عامين...»

«عامان؟ وغد! أو ربما لطيف حقاً؟» صار وجه دوشيانت شديد الحمرة كالبنجر. عجز عن النظر لعينيها. وإنما، نظر إلى كفيه الجافين. بدا واهناً، محرجاً، فقيراً. وربما منتشياً قليلاً. تركت كاجال ابتسامة بسيطة ترتسم على وجهها. لاحظها دوشيانت وازداد وجهه حمرة.

سألت كاجال. «قل لي ماذا قرأت على مدار سنتين؟»

ابتسم لها، لمعت عيناه بصراحة مثل الرابع من يوليو، أرعبتها خياراته فى الكتب.

تقابلا على مدى ثمانية أشهر. وقد قطعا شوطاً طويلاً منذ أن اجتمعا للمرة الاولى فى المكتبة وتحدثا عن الكتب. تضاءل هوسه الخاص بتمارين رفع الاثقال، استياؤها المتزايد من اختيارها المهني، مشاكله مع والديه، أخواتها المحبات للسلام، وأخيراً وليس آخراً، تعلقه الدائم بها.

لم يكن الصديق المثالي. كرهه أصدقاؤها بكل قلوبهم، ولكن كره أخواتها له كان أكبر. كانت كاجال طويلة ـ تقريباً مئة وسبعة وستون متراً ـ شعرها مصفف على الدوام. بدى مظهرها لائقاً بمقدمة أخبار. كانت ملابسها الراقية تليق بها بشكل رائع. لم تكن مغرمة بالالوان الزاهية، ولم تسع مطلقاً للتميز. تحب الانسجام. بشرتها النضرة، أنفها المنحوت، والمشية الواثقة تشير إلى جدية سيدة أعمال.

كان دوشيانت وقحاً، مثيراً للمشاكل. لديه نزعة للامتلاك. احتاجت كاجال لشهر حتى تدرك أن دوشيانت تخطى حد الهوس، إلى الحد الذي اقترب من كونه مصاباً بفصام الشخصية. يفرط في الشرب، يدخن بشراهة، ويعشقها بجنون. انتظر عامين ليقول لها أنه يحبها. فأقسم أنه سيقضي حياته كلها معها. بدا الأمر لطيفاً في بعض الاحيان. رأته اهتماماً منه، بينما في أحيان أخرى شعرت بالرعب. ليس هذا الرعب الذي قد يسببه الانفصال والغياب للأبد، إنه خوف من المستقبل معه. وفي غضون شهر، تحول إلى شخص آخر لا تعرفه بأي حال.

في البداية، أحبت كاجال تلك الاشياء التي تركها دوشيانت في نفسها. كان يعبر عن غيرته ما إن تذكر أي من أحبتها السابقين، يستشيط غضباً لو قضت وقتاً أطول مع أصدقائها، يوبخها لو تأخرت في العودة للمنزل، وطلب منها

ألا تشرب في غيابه. نظرت كاجال إلى كل هذا بعين الاعتبار. من يوافق على عكس هذا؟ جعلها دوشيانت مرغوبة ومحبوبة. وبغض النظر في أي وقت من اليوم، ولا ماذا يفعل، تكفي مكالمة واحدة منها حتى يهرع لها دوشيانت فوراً إليها. لم يدع يدها مطلقاً، يمنحها أحضانه متى احتاجتها، وأحبها كما لم يفعل أحد من قبل. شعرت كاجال أنها احتجزت في فقاعة واقية، وهو أمر من شأنه أن يمتص أي شيء مع إمكانية إلحاق الأذى بها. وسرعان ما أصبحت هذه الفقاعة الواقية خانقة.

أحبته كاجال على الرغم من كل شيء. لم تكن علاقتهما تشبه العلاقات المفعمة بالحيوية التي تحدث في الجامعة، لكنها كانت علاقة بالغين سيقضون ما تبقى من العمر سوياً. عندما يرقدان في الساحة المفتوحة في الكلية في وقت متأخر من الليل، بينما تلتف حولها أصابعه الخشنة، التي تخشى التمارين الرياضية، كانت تشعر بالاكتمال. وبينما تصير الأمسيات ليال، ثم يتحول الليل إلى نهار، ويعود للأمسيات من جديد، كان حبهم يكبر.

تعلمت كاجال أن تتجاهل أخطاء دوشيانت الصغيرة. دائماً ما يذكر دوشيانت أن كاجال ليس لديها عيوب.

كاجال تبتسم دائماً، حتى في الحالات التي تصل فيها إلى حافة الانفجار بفعل صديقها المهووس بالسيطرة.

قالت كاجال. «هل تعتقد أن هذا سيستمر؟» بينما دوشيانت يضع يده حولها فى قاعة سينما.

قال دوشيانت. «لم لا؟» ثم مسح أذنيها بشفتيه. فعل هذا في مناسبات عديدة، لكن كاجال ما زالت تشعر بحرارة لمسته في جسدها كله وكأنها المرة الاولى. لم يكن دوشيانت حبيبها الاول، لكنه الحبيب الذي لا ينسى للأبد. إنها

على يقين من هذا. لمسته، الاشياء التي قالها في أذنها في أي وقت تواجدا فيه في الممر الخلفي للمكتبة المظلمة، تلك المشاعر الهادئة التي تسكن معدتها ما إن تلمسها يداه، أصابعه الحنونة عندما تمر فوق أفخاذها الدسمة، لمسة لسانه المبتل الناعم على أذنيها... لا يمكنها نسيان كل هذا.

قال دوشيانت. «أنت أفضل ما حدث لي طيلة عمري». بمجرد انتهاء سلسلة مشاهد في الفيلم بعد أن ساد الصمت. كانت الثقة التي امتلأ بها صوته تبعث على القلق، وهو ما جعلها تتساءل ماذا سيحدث إذا لا سمح اللّه افترقا.

«ورغم هذا لا تريد أن تقلع عن الشرب والتدخين لأجلي؟»

«قللت معدلها بشكل كبير».

قالت. «إنك تحتاج سيجارة كل ساعة يا دوشيانت» وأضافت. «ستقتل نفسك».

«أنا أحاول. وسيستغرق الأمر بعض الوقت. لا يمكن أن يتم الأمر بين يوم وليلة». رد بانفعال. لم تحب كاجال أن تحدثه عن مشكلة الشرب أبدا. إنها تحبه، إذن عليها ألا تفعل. لكن فاض بها الكيل، كما أن المنشطات التي يتناولها من أجل بناء العضلات، الماريوانا، والسجائر التي لا تنتهي... إدمانه لا نهاية له.

«لا تعرف من أين تبدأ».

«لو أحببتني بما يكفي لفعلت». قال مدافعاً عن نفسه. «أقلعت عن المنشطات».

مرت شهور منذ أن انتظم في التمرين في صالة الألعاب الرياضية. «أنا لا أحب أن أراك تدمر نفسك. وأرجو أن تفهم هذا. ولن أربح شيئاً من منعك عن الادمان. لا أريد أن يحدث لك مكروه».

قال. «لن يحدث لي شيء. إذا توقفت عن الكلام مع فارون، سأترك التدخين. هذا اتفاق عادل؟»

«ماذا؟ ما علاقة هذا بذاك؟»

«لقد أدمنت فارون. وأنا أدمنت السجائر. إذا تركتيه، سأقلع عن التدخين. لا أشعر بالراحة لصداقتك مع حبيبك السابق، وأنت لا تشعرين بالراحة مع اعتيادي التدخين. يبدو الأمر عادلاً هكذا».

«إنك تحدث سارة أيضاً. لم أشر لهذا من قبل».

«حسناً، سأكف عن التحدث إليها. لا أتصل بها أبدا على أي حال. هل تتصلين بفارون؟ أحيانا لا تجيبين اتصالاتي وتبقيني منتظراً بينما تستقبلين مكالماته. أحيانا تتحدثان حتى منتصف الليل أو ربما حتى الصباح الباكر. ماذا أستنتج من كل هذا؟ إذا كنت في حاجة للمزيد من الاصدقاء، لم لا تتعرفين على غيره؟» ثم قال بنبرة اتهام. «لماذا تتخذين من حبيبك السابق صديقاً من بين البشر؟» لم تكن المرة الاولى التي يبدو فيها دوشيانت مهووساً من مسألة صداقتها مع فارون.

«تبدو صبيانياً، قلت لك مليون مرة ليس بيني وبين فارون أي شيء على مدار عامين». قالت كاجال مؤكدة. «إنه مجرد صديق وسيظل على الدوام». استرجعت الاوقات التي ثمل فيها دوشيانت وتحدث عن مدى كرهه لفارون بكل كيانه.

«لا أعتقد ذلك. لماذا لا تقبلين حقيقة أنه ما زال لديك مشاعر تجاهه؟» هز كتفيه، محاولاً أن يبدو وكأنه غير مكترث. تعرف كاجال أن الأمر يهمه. لا يستغرق الأمر طويلاً حتى يتحول دوشيانت من شعوره بعدم الاكتراث نحو البدء بكسر الاشياء.

«لا أشعر نحوه بشيء، هو مجرد صديق. عرفته على مدار خمسة عشر عاماً. كيف لي أن أتوقف عن الحديث معه؟»

«لماذا لا تستطيعين؟ لقد هجرك. كان يواعد فتاة أخرى بينما كان معك. لا

أفهم كيف تغفرين له. ألا تملكين أي قدر من احترام الذات؟. لا أقبل غفرانك له بهذه السهولة. كيف يفعل هذا بك؟» ثم قال متذمراً. «إنه لا يحمل أي قدر من الاحترام تجاهك».

انتهى الفيلم وخرجا من قاعة العرض. استغربت كاجال لأن دوشيانت سار أمامها ولم يمسك الباب حتى تمر. ومن الواضح أنه لم يكن في حالة مزاجية جيدة.

فكرت. «يبدو أن علاقتنا غير ناجحة، لا ألومه».

«لا تلومينه؟ لقد قضيتي الأيام تبكين من أجله».

«قضيت الأيام أبكي لأنه تركني. شعرت بالوحدة. ليس لأني افتقدته كحبيب، لكن لأني افتقدته كصديق. لم يكن لي أحد أذهب إليه».

«لست وحيدة الآن، أنا معك، هل لا تزالين تفتقدينه؟ كيف هذا؟ لديك حبيب». ثم قال دوشيانت مجادلًا بينما يدخلان أحد المقاهي. « من الغريب أنك ما زلت في حاجة إليه». كان يسبقها بثلاث خطوات طيلة الوقت، لا يواجه عينيها ويتصرف كأنهما غريبان.

تحرك النادل نحوهما بسرعة ونهره دوشيانت بوقاحة. وقف النادل المصدوم منتظراً.

قالت كاجال للنادل. «مياه وكابتشينو له».

أمسك دوشيانت قائمة الطلبات وتصرف كأن الحوار انتهى.

«إنه لا يعني لي شيئاً، صدقني. إنه مجرد صديق. ليس أمراً مهماً إذا كنت أتحدث معه أم لا. أنا أحبك ولا شيء يمكن أن يغير هذا».

«حسناً. أنا بخير. أيّاً كان. تتكلمين معه. تنامين معه. لا أهتم».

«هذا ليس عدلاً».

«قال دوشيانت. «أيّاً كان. هلا توقفنا عن الحديث في هذا؟»

لم يتحدث دوشيانت في هذا الموضوع مرة أخرى في تلك الليلة. إنما كان وقحاً معها طوال الليل. عادا إلى شقة صديقه وناما هناك. كان دوشيانت خشناً معها في تلك الليلة. وعلى سبيل التغيير، لم يمارسا الحب، إنما كانا يمارسان الجنس. كان جنساً خالياً من الحب. فقط همهمات وآهات. كان الأمر أشبه بأنه أراد أن يؤلمها جسدياً. لم يعانقها حتى تنام. تمنت كاجال أن يتحسن حاله في صباح اليوم التالي، لكن الأمر ازداد سوءاً.

في الليلة التالية، كان مخموراً وفي حالة غير طبيعية مجدداً. أولد مونك. سميرنوف. تشيفاس ريجال. مزيل طلاء الاظافر. أيوديكس. دعاها دوشيانت وقال لها. «أنت تحبينه وأنا أحب هذا! لن أقلع عن الشرب أو التدخين أبدا!» أهانها، أساء لعائلتها، وأغلق الهاتف. وفى وقت لاحق من تلك الليلة، اتصل بها أصدقاء دوشيانت ليخبروها باسم المستشفى التي يرقد فيها. سقط مغشياً عليه، وفمه مزبداً. استكملت كاجال في اليوم التالي ملء الاوراق ثم اصطحبته إلى المنزل مرة أخرى. إنها المرة الاولى التي كان عليها أن تستعيده من المستشفى هذا الشهر. في غضون ذلك الشهر، حدث هذا الأمر ثلاث مرات. كان حاله يسوء في كل مرة. الآن، اعتادت على نوبات الغضب بفعل السكر. الإهانات، الشتائم، التهديدات، تعودت على كل شيء. إنه ثمن الحب الحقيقي، وهذا ما أخبرت به نفسها. لم يستمر الأمر لمرة رابعة. بعد أيام قليلة، تخطى حدوداً لم يكن عليه أن يتخطاها. ما فعله أنه وضعها في اختبار صبر، ولم تتصور أنها تملك القوة التي تعينها على الاستمرار. أقسمت لنفسها أنها لن تعود إليه أبدا.

كانت ترقد على الوسادة، بينما أفكارها تعود إلى كل مرة قال فيها دوشيانت

إنهم سيستمرون معاً وأنه لن يجرحها أبدا. آمنت به، لكن كل هذا كان محض أكاذيب. ذكريات اليوم الذي انفصلا فيه محفورة في رأسها، عرفت على سبيل اليقين أنها لن تنسى أبدا ما حدث.

في ذلك اليوم، تركت كاجال هاتفها بإهمال في مكان ما، مما مكّن دوشيانت من تصفحه ورؤية الصور والرسائل النصية التي تعود لعام مضى. لم يقم بأي رد فعل في البداية. ولكن مع قدوم الليل، شرب حتى ثمل. وصار غاضباً. لم يتحدث كثيراً، سقطت القذائف تباعاً. كانت عيناه محتقنة بالدم. وبعد جدل عاصف في جوف الليل، صفعها على وجهها بينما كان يبكي ويعوي كحيوان. بينما تسقط كاجال وترتطم بالكرسي، تترنح بفعل يده الثقيلة. حبس نفسه في إحدى الحجرات. تدافع الأصدقاء نحو الباب محاولين فتحه دون جدوى، يعتصرهم الرعب من أن يحصل على جرعة زائدة في الداخل. توسلت كاجال أن يفتح الباب. فتح الباب لها. لم ينطق أي منهما بكلمة. وللمرة الاولى، انقض عليها بالقوة. لم يعر اهتماماً لبكائها، منقضاً عليها باحتقار. عاملها على نحو أسوأ من العاهرة واغتصبها مرات. ما إن انتهى، سقط مخموراً بفعل زجاجة الفودكا، وراح في غيبوبة. غادرت كاجال الباكية الشقة عائدة إلى بيتها. كتبت له رسالة على الهاتف الخلوي لتخبره أن ما بينهما انتهى، وأنه من هذه اللحظة هو ميتٌ في نظرها. في الأيام الستة التالية، كانت اتصالاته لا تتوقف. كانت كاجال تزداد غضباً مع كل اتصال منه. صار تمسكها بقرار البعد عنه أقوى من قبل. وبفعل الغضب والتعب، أخبرته أنها لم تحبه أبدا وأنها تفكر في العودة إلى فارون. عندئذ توقفت الاتصالات تماماً.

مجدداً، ما من أحد تتكلم معه. وبعد أن قضت عدة ساعات تلهو بهاتفها، قامت بالاتصال برقم فارون. لست بحاجة لفارون، «وجودي يغنيك عنه»، هذا ما اعتاد دوشيانت أن يقوله لها. أكاذيب.قالت كاجال. «أهلا فارون» وهي تقاوم دموعها.

«أهلاً. لقد مر وقت طويل. أين كنت؟ لا تردين على اتصالاتي، ولا تعاودين الاتصال بي؟ كتبت لك ملايين الرسائل النصية. ما الأمر؟!»

«تعرف أن دوشيانت لم يحبك قط، صحيح؟»

«نعم. وأنا لم أحبه بدوري. طلب منك أن تتوقفي عن التواصل معي، أليس كذلك؟ هذا السافل ضيق الأفق. لا أعرف ماذا تفعلين معه». ثم ضحك فارون قائلاً. «إنه حقاً أسوأ من الطاعون»

«نعم لقد طلب مني أن أبتعد عنك، لكن ليس هناك مشكلة. ما من حبيب يقبل هذا على أية حال».

«ثم بدأ فارون يعظ كعادته. «لكن حبيبك شديد الصبيانية. غير ناضج وعصبي جداً. ليس الرجل المناسب لك».

شعرت كاجال بالاختناق بفعل كلماته.

سأل فارون. «هل أنت هناك؟ هل أنت بخير؟»

«نعم، لقد انفصلنا قبل أيام قليلة».

«أووه، حقاً؟ لماذا؟»

«لقد اعتدى علي».

«ماذا؟! يا له من سافل؟! كيف تجرأ على فعل هذا؟ ماذا فعل أيضاً؟ لما لم تخبريني قبل هذا؟» ثم قال. «انتظريني، أنا قادم» وأغلق الهاتف قبل أن ترد كاجال. أرسل لها رسالة يسألها ما إذا كانت في الكلية أو في البيت. صوت خافت في داخلها يريد أن يطلب من فارون أن يبتعد عن الأمر، لكن أسكتته الدموع التي انهمرت على وجهها. كاجال في حاجة لأقرب أصدقائها. تركت شعرها مسترسلاً ثم مررت يدها على وجهها حيث صفعها دوشيانت بقوة. ما زال جلدها

الشاحب يحمل أثر يده الخشنة. دوشيانت رجل قوي، لكنه لم يستطع أن يمنع نفسه حين همّ بضربها.

أوقف فارون سيارته فى كراج سوق مستعمرة الدفاع. ينتهي رقم السيارة بـ0002 مثل سيارات الأسرة. ينتمي فارون لأسرة مقتدرة. يملك والده أحد أكبر المطابع فى دلهي. خلال العام الاول، ساعد ذكاء فارون التجاري أن يجذب أول عملائهم من الشركات متعددة الجنسيات، وأعانهم على النمو بسرعة كبيرة، على نحو يفوق تصور والده. اتسعت مساحة المصنع من 200 فدان إلى 400 فدان، وزاد عدد العمال لثلاثة أضعاف، وصار مزيد من العملاء يأتون من أوروبا وأمريكا الشمالية بمعدل يفوق أي مطبعة في البلاد.

حوّل فارون مشروعاً تجارياً عائلياً إلى غول تجاري عملاق.

وخلافاً لما كانت كاجال تظنه به في البداية، لم يكن فارون مجرد شاب من سلالة غنية يقتني أودي ايه 4، عليها ملصق مكتوب عليه «هدية بابا» على زجاج السيارة الخلفي. كان طموحاً لا يرحم. يعمل على مدى 14ساعة يومياً، جاب العالم من أجل أعماله وكان شديد الجدية. أحبت كاجال فيه هذه الصفات، لكنه كان مصدر الخلافات بينهما. الاجتماعات، رحلات الطيران الليلية، عروض الاستثمار، تفاقمت القروض البنكية ـ وفي وسط كل هذا، لم يكن لديه وقت لكاجال. المشكلة الأكبر في علاقتهما كانت في صدمة كاجال من إهماله الكامل لعلاقتهما. كانت تتساءل كاجال على الدوام، ما الشيء الذي جذبه نحوها. انفصلا لأنه خانها مع أخرى أثناء رحلة إلى لندن. لا تعتقد أن الانفصال كان لهذا السبب؛ فقد تباعدا قبل ذلك بوقت طويل. وما صدمها حقاً، كان تجاهلها لخيانته لها.

تسللت كاجال خارج البيت دون إيقاظ أحد. سألها فارون. «كيف حالك؟» بدا كأنه كبر عشر سنوات. خمنت أن هذا بسبب الساعات الطويلة التي يقضيها في المكتب. وقد فقد القليل من شعره.

قالت. «أنا بحال جيدة. أفضل بكثير الآن. كيف حال العمل؟»

قال. «فلنجلس ونتحدث؟» ثم سار باتجاه أقرب محطة مترو أنفاق.

قالت ساخرة. «أتأكل أكلا صحيّا هذه الايام؟»

«نصحني الطبيب بهذا. طلب أيضاً أن أبدا في ممارسة الرياضة، لكن من لديه الوقت لفعل هذا؟»

علقت كاجال ساخرة. «ليس لديك وقت بالتأكيد. إن لبدنك عليك حق. يبدو أنك أنجبت طفلين».

نفى فارون. ثم سألها. «أخبريني ماذا حدث؟»

روت كاجال القصة من جانبها. انهارت مرتين ولاحظت أن الجميع ينظر إليهما. استمع لها باهتمام، متجاهلاً أنها توقفت مرتين وأدركت أن أنظار الجميع قد تحولت تجاههما. واستمع بصبر متجاهلًا تلك النظرات الفضولية من الموائد القريبة. أجهز فارون على السلاطة وعادا إلى سيارته. لم ترغب في البكاء على الملأ. فتاة مثلها، جميلة، رقيقة، لم عليها أن تبكي بأي حال؟

سألها فارون، بينما يجلسان في السيارة. «هل ستكونين بخير؟»

قالت. «أعتقد ذلك» بينما وضعت وجهها بين راحتيها. وبكت.

«ما زلت لا أصدق أنه ضربك».

همهمت. «كان مخموراً». لم تخبره بالقصة كاملة.

مهما كانت الظروف، أنت في علاقة مهينة يا كاجال. وقد كان يصرخ في وجهك ويهددك من قبل. وها هو يضربك. إذا نجا بفعلته هذه المرة، سيكررها. أولاً معك، ثم يعتاد على فعل هذا مع أخريات بعدك. عليك أن تدركي أن شخصاً بهذه العقلية لا يصلح أن يدخل في علاقة. ليس لديه إدراك للحدود. اللعنة! إنه

لا يحترم خصوصيتك على أقل تقدير. لم يكن هناك بد من أن تواجهي هذا. وكلما كانت هذه المواجهة قريبة، كان هذا أفضل بالنسبة لك. إنه لشيء جيد أنكما انفصلتما. لا يمكن أن تبقي سجينة علاقة مقيدة كهذه.

قالت محاولة أن توقف دموعها. «لا أريد الخوض في هذا الأمر الآن». احتضنها فارون وأخبرها أن كل شيء سيكون على ما يرام. أرادت أن تصدقه، كما صدقته من قبل، وكما صدقت دوشيانت.

خلال الأيام القليلة التالية، كثيراً ما مر فارون بعد أوقات الكلية للاطمئنان على كاجال. كان حالها أفضل، لكنها ما زالت تفتقد دوشيانت. شعرت بالأسى لأنها تفتقده. أما دوشيانت، فقد حاول من ناحيته أن يبذل قصارى جهده ويعتذر لتصبح الامور أفضل. أخبرته كاجال أنها لا تريد أن تسمع كلمة واحدة منه. توقف دوشيانت بعد أن رأى كاجال تستقل سيارة فارون في أحد الايام. اتصل بها في هذه الليلة، أهانها ووصفها بالعاهرة. قال. «لا بد أنها خانته، وأنها كانت تعاشر فارون طوال الوقت». ظلت كاجال تبكي طيلة اليوم التالي. لم تعد في علاقة مقيدة، مهينة مع شخص لا يكنّ لها أي قدر من الاحترام. إنها الآن حرة، عائدة بسلام إلى ماضيها.

5 ـ زهرة ميرزا

لدى زهرة اليوم خمسة عشر حالة، كل منها أكثر مللاً من سابقتها. أذرع مكسورة، كواحل ملتوية، أربطة ممزقة، الخ. مديرها الغامض المتميز، دكتور أرمان كاشياب لم يكن مغرماً بوضع التقارير في الملفات ولهذا السبب لديه عدد كبير من المتدربين لمساعدته. يعمل كل متدربان معاً، لكن لم يكن أرمان من مشجعي القواعد. ما من أحد يعلم أكثر ما يحبه، الاستهزاء بهم أم تحدي إدارة المستشفى على أية حال.

قال أرمان من اليوم الاول. «إذا كنت تعمل في فريق عمل مكون من اثنين، تشعر بالرضا حيال ما تفعل. إذا كنت تعمل وحيداً، تصبح حذرا من كلمة اذهب». لم تستطع زهرة نسيان تلك الكلمات. كانت تتحقق من كل دواء ثلاث مرات، وأحيانا أكثر، قبل أن تقرر دواء أي مريض. حتى لو كان دواء للكحة.

«هل أنت مشغولة؟» سألها زميل متدرب دخل الغرفة التي خصصت لهم. وعلى الرغم من أن زهرة تعمل عادة فى مكتب رئيسها الوثير، الا أن حضوره الطاغي يجعلها عصبية. وجود أي رجل يجعلها تشعر بالتوتر. تذكر جيداً أول يوم لها فى المستشفى، حيث الرجال يزحفون في كل مكان. المرضى، الأطباء، الحراس. كانت عيونهم مثل ثعابين تزحف نحو جسدها ـ تنزع ملابسها، تغتصبها، يحكّون أجسادهم العارية، المتصببة عرقاً، الغزيرة الشعر بجسدها في رؤوسهم. في تلك اللحظات، تتعاظم كل كراهيتها الكامنة نحو الرجال حتى أنها تكاد تصاب

بانهيار عقلي. لم تذهب زهرة قط إلى مدرسة أو كلية مختلطة باختيارها. كان الابتعاد عن الرجال أسلم طريقة لإبعاد أهوال ماضيها.

قالت. «لدي الكثير من العمل في تصنيف المستندات» محاولة أن تبدو مشغولة. حتى منذ بدأت التدريب، أظهر عدد مخيف من المتدربين، الأطباء المقيمين، كبار الاطباء الاهتمام بها. غذى هذا حاجتها إلى تناول أقراص منومة ومضادات اكتئاب.

قال زميلها المتدرب. «رئيسك إنسان أحمق».

قالت مدافعة عنه. «ليس سيئا لهذه الدرجة. يشعر الناس بالغيرة تجاهه لأنه ناجح... وفي مقتبل العمر». جعلتها نظراته المتطفلة تشعر بعدم الارتياح، كأنها غرقت في وعاء مليء باليرقات المتعفنة.

«إنه متهور ليس لديه أي احترام للقواعد». قال مجادلاً. «لا يصنف التقارير أو يحتفظ بسجل للأدوية التي يصفها للمرضى. يلزم الأطباء الآخرون الصمت ولكن أنا على يقين أن الكثير من المرضى لقوا حتفهم تحت عينيه ونتيجة لأفكاره المعتوهة». لاحظت زهرة الملل والارتباك فى أعين المتدرب وتعبيرات جسده. أم أن هذه شهوة؟ ربما كان يحاول اتباع الطريقة البدائية القديمة في اقتيادها للفراش. القضاء على التهديد، المقاومة، هزيمة أي منافس يحاول الحصول على فريسته. لدى زهرة رغبة في الهروب. لا، عليّ أن أواجه هذا! مثل أي ضحية للاغتصاب. قرأت زهرة أيضاً كافة الكتب، الوثائق، التقارير، الكتب الارشادية التي ساعدت الضحايا على المضي في حياتهم. أمر مضحك، لم تصف أي من تلك الكتب أدوية النوم مثل الزاناكس أو الفاليوم، لأن هذه الادوية كان لها مفعول جيد معها.

واصلت زهرة الدفاع عنه. «إنه ينجز عمله جيداً. يعالج العدد الأكبر من الحالات. إذا كان بقية الأطباء رجالا، فهو مثلهم وأكثر. إضافة إلى ذلك، الآن

أنا من يعمل على تصنيف التقارير. فليس هناك من حاجة أن يقوم بهذا على أية حال». وبينما تابعت عملها، حاولت ألا تواجه عينيها وجه المتدرب. كانت غاضبة. يمكنها أن تشعر به بينما يلعق شفتيه بشره. دخلت اليرقات في ملابسه. إنها في كل مكان. صغيرة، زاحفة، لزجة.

«أما القواعد يضعها أطباء أكثر خبرة منه».

قالت بتذمر. «لا يعول على الخبرة في كل شيء». شعرت بيديه على فخذيها. وصلت اليرقات إلى وجهها. دخلت الأنف، الاذن. إنها تفقدها. قال بانفعال. «حسناً، واصلي الدفاع عنه.لا عليك، لا تلقي بالا. هل ترغبين في تناول الغذاء؟».

«كلا! لا أريد!» ثم صرخت. «هلا تركتني أواصل عملي، رجاء».

غمغم المتدرب وهو يترك الغرفة. «حسنـا...» تابعته عيون زهرة المنتفخة العروق بينما يخرج من الغرفة. أرادته قتيلا. غادرت اليرقات. لا زالت تشعر بالاستياء.

تناولت زهرة الغداء مع فتاة من المتدربات هذا المساء، مثل باقي المساءات الاخرى. إنها تروق لها. إنها لطيفة، عطوفة، مجتهدة جداً. وهي تحب ذلك. لكن أفضل ما فيها أنها لا تتحدث عن الشباب، الزواج، أو العائلة.

قالت. «هلا استمعتي لي».

«نعم؟» متطلعة إليها من خلف الملفات.

سألت بعصبية، رغم أنها تعرف الاجابة. «ماذا تعرفين عن مرض لو جيهريج؟ التصلب الجانبي الضموري؟»

«قاتل. فشل العديد من الأجهزة. مشكلة متصلة بالاعصاب. لا يمكنك توقع أن يعيش مريض أكثر من خمس سنوات. وما داعي السؤال؟ هل لديك مريض؟»

«نعم، فتاة».

«فتاة؟ لم يصب المرض أي شخص أقل من خمسين عاماً».

«وهي تبلغ التاسعة عشر. تدرس في السنة الاولى بكلية الطب جامعة ماولانا».

سألت. «هل أنت جادة؟» وقد انتابتها الصدمة. أعطت زهرة الملف للفتاة التي اطلعت عليه من وراء نظارتها ذات الاطار الازرق.

«نعم. ستكون نزيلة بالمستشفى. يقول التقرير أنها عانت من فقدان الاحساس خلال الفحص. بحثت عن اسمها على شبكة الانترنت. لقد شغلت المركز الثالث بين طلبة الطب في الهند هذا العام». همست. «هذا مؤسف» ثم أعادت الملف لها مرة أخرى. «ليس سراً أن المريض يحتضر».

قالت زهرة ثم تنهدت. «أعرف. أكره مثل هذه الأمراض. ما من مسبب واحد والمريض لا يعاني من أية متاعب. أتساءل كيف تشعر تلك المسكينة».

«أتذكرين ما علمته لنا الدكتورة ميهرا لنا. لا يجب أن تتعلقي كثيرا بالمريض. ركزي عواطفك على المرض، ليس على المريض».

أجابت وهزت رأسها. «نعم، هذا صحيح».

«أنا جادة».

التزمت زهرة الصمت، واصلتا تناول طعامهما في صمت. قلبت ملف بيهو لتعرف التفاصيل الرئيسية عن تطور المرض في حالتها. رصدت شيئا غريباً، إن لم يكن نادراً. لا يمكن علاج أي من آثار مرض التصلب الجانبي الضموري، لكن بيهو استطاعت أن تستعيد بعض من قدرتها على تحريك يدها، وصارت تتحدث بوضوح أكثر من الأشهر القليلة الماضية. كيف ذلك؟ هل لهذا السبب يحاول أرمان أن يعالج شخصاً حكم عليه بالاعدام بالفعل؟ هل تمثل أملاً للقضاء على المرض؟

تعلم أن أرمان ضمن فريق البحث الذي شكله الأطباء في سبيل الوصول لعلاج من مرض التصلب الجانبي الضمورى. وضعت في ذهنها أن تسأله عن الأمر. وعلى كل حال، لم يقر بأنه كان مستشاراً خارجيا للمريض. هناك شيء مفقود في الموقف برمته.

وعندما انتهت من الاكل، رن الهاتف.

هناك شخص يسأل عن الطبيب المعالج لدوشيانت روي. دكتور أرمان غير موجود. سأل المتصل على الجانب الاخر. «هل أحول المكالمة؟»

قالت. «نعم بالتأكيد». «أنا دكتورة زهرة ميرزا».

«أهلاً... اممم... مرحبا، دكتور زهرة، أنا كاجال. أريد السؤال عن حال مريض دخل المستشفى. اسمه دوشيانت روي؟»

«يا إلهي، نعم. إنه يعاني من مشكلة في الكبد». سألت. «هل أنت على صلة قرابة به؟»

«هل الأمر خطير؟»

قالت زهرة. «سيعيش. خطير لكنه قابل للعلاج. هل لي أن أعرف من أنت؟»

هنا انقطع الاتصال.

6 ـ بيهو مالهوترا

تطلعت بيهو إلى الحجرة التي كبرت فيها. هنا حيث كانت تحلم كيف ستحمل الجدران الدبلومات والشهادات التي ستحصل عليها. نظرت إلى إطارات الصور التي تظهر فيها كطفلة صغيرة، مفارش الأسرّة، وأطنان الكتب التي كانت ترتبها بحب. تساءلت إن كان سيُقدر لها قراءة ثلث تلك الكتب. لا زالت قلقة. مع كل هذا العمر الذي تمنت فيه أن تلتحق بكلية الطب، لم تنل من الحلم سوى ثلاثة أشهر فقط. مرت تسعة أشهر منذ ذلك الحين. فقدان الاحساس يعني أن عليها أن تترك كلية الطب ذلك لإجماع أربع مستشفيات ـ واحدة في دلهي، اثنان في بنجالور، وأخرى في مومباي ـ على نفس التشخيص، كل منها بتأكيد أكبر من التي سبقتها. تطور مرضها بسرعة لم يتوقعها أحد. في خلال شهرين من اكتشاف المرض، واجهت صعوبات في المشي بدون عكازات. وفي فترة قصيرة، صار الأكل مشكلة حتى أنها لا تستطيع أن تمضغ لفترة طويلة. فقط خمسة عشر دقيقة من النشاط تقطع أنفاسها وتتعبها. تفقد العضلات قوتها وكفاءتها وتماسكها ببطء. تسلل الشلل ببطء. صارت الحياة بالنسبة لها معركة متواصلة من أجل البقاء ـ لرؤية الصباح التالي. لترى والديها بجوارها، أن تمسك بأيديهم، وتستدعي الذكريات حتى تشعر كأنها عاشتها مرتين. أصبح صراعاً مستمراً لنسيان ما هو قادم. لقد عقدت العزم على الالتزام بحكم الاعدام الوشيك. ليس أمامها سوى بضعة أشهر موجعة لتعيشها.

طيلة الوقت، تحرص على أن تبعث برسالة عبر البريد الالكترونى يومياً إلى

الطبيب الشاب، العضو في فريق البحث الطبي الذي يحاول أن يجد علاجاً لمرض التصلب الضموري الجانبي في نيو دلهي. وأحيانا، يرتكز الأمر على ألم مريض التصلب الضموري الجانبي. وفي مناسبات أخرى، كان أمراً ممتعاً أن تقرأ كتباً طبية. صار صندوق بريدها الالكتروني مثل مدونة على الانترنت تُنفس به عن نفسها ككرة التخلص من التوتر. تعلم على سبيل اليقين أنه وضع رسائلها في صندوق الرسائل غير المرغوب بها بعد رسالتها الثالثة. لكنها واصلت كتابتها...

بيهو مالهوترا: p_malhotra198@gmail.com

أرمان كاشياب: armankashyap@gkl.co.in

عزيزي دكتور أرمان،

أمي لم تكف عن البكاء. تحاول ألا تبكي أمامي، ولكنها عاجزة. حال أبي أفضل. عرضت نفسي للفحص مرة أخرى. قالوا ستة أشهر. تزيد أو تنقص بضعة أشهر. لا يمكنني السير لفترة طويلة.

تحياتي،

بيهو مالهوترا

بيهو مالهوترا: p_malhotra198@gmail.com

أرمان كاشياب: armankashyap@gkl.co.in

عزيزي دكتور أرمان،

آسفة على ازعاجك من جديد. لكني أبكي. خلال اليومين الماضيين، لم أتمكن من النوم. أفكر في جميع الاشياء السيئة التى ستحدث لي. لماذا؟ لماذا أنا؟ لم أرتكب أي شيء في حق أحد. وكذلك والديّ. أنا فقط... آسفة.

تحياتي

بيهو مالهوترا

بيهو مالهوترا: p_malhotra198@gmail.com

أرمان كاشياب: armankashyap@gkl.co.in

عزيزي دكتور أرمان،

انتهيت من كتاب عن تشخيص مرض السرطان. لطيف للغاية. تمنيت لو كنت في المعمل لفحص المسرطنات بنفسي. أحسد زملائي. مؤكد أنهم يستمتعون كثيراً. أتساءل كيف حال فينجوبال وما إذا كان لا يزال يفتقدني. وأرجو أنه تعرف على أصدقاء طيبين هناك. أتمنى لو كنت هناك. آسفه لأني أزعجك مجددا. آسفة.

تحياتي

بيهو مالهوترا

بيهو مالهوترا: p_malhotra198@gmail.com

أرمان كاشياب: armankashyap@gkl.co.in

عزيزي دكتور أرمان،

أصبحت عاجزة عن المشي. أرى كرسي متحرك جديد فى زاوية الغرفة. لا أريد استخدامه. أريد البقاء فى السرير. أنا مرعوبة. كما تعرضت للاختناق وأنا أتناول الطعام ذات مرة. يقول الناس أنني أموت. يقولون لي أن أوانك يقترب. لماذا لا أشعر بهذا؟ ولماذا أشعر أن الوقت يمر ببطء؟ تبدو كل لحظة كأنها ستبقى للأبد. كأن الموت يبتعد عني وأنا ألاحقه. من الأفضل أن يأتي سريعاً. أريد أن أنقذ روحي من هذا البؤس. هل الأفضل ابنة وافتها المنية أم تحتضر؟

أنا آسفة.

تحياتي،

بيهو مالهوترا

لم تتوقف الرسائل قط. بدت كأنها متنفس للإحباط وللغضب المتصاعد داخلها. بعد مرور أربعة أشهر على أول رسالة بريد الكتروني، تلقت خطاباً من دكتور أرمان، مستشفى نيودلهي التخصصي. قفزت بمجرد أن رأته! ثم تساءلت فيما بعد عن سبب هذا. أرمان كاشياب رجل وسيم، طويل، يرتدي نظارات دون إطار، وهو ما جعله يبدو في غاية الذكاء. لكن شعره القصير جعله يبدو كأحمق، انحشر في صورة جماعية لأطباء مستشفى نيودلهي التخصصي مثل اصبع متقرح.

لم تكن هناك مقدمات رسمية، ولا سؤال عن حالها الآن أو من قبل، وإنما كتب مجموعة من الأسئلة هو في حاجة لإجابات لها. أجابت قدر استطاعتها، تماما كما لو كانت طالبة. أرفقت مع الاجابات تقريراً عن رأيها في الابحاث المختلفة التي أجريت على مرض التصلب الجانبي الضموري... وتساءلت عما إذا كانت تتذاكى، لكن في النهاية هي لا تملك العمر الكافي لتهتم بهذا. كانت المفاجأة أن أرمان رد عليها على الفور. أوحت لغة الرسالة أنه تأثر كثيراً، لكنه أخفى هذه الحقيقة بمهارة. وفي ساعة متأخرة من الليل، كتبت بيهو رسالة طويلة. استغرقت بيهو أربع ساعات في كتابة الرسالة، كتبتها حرف بعد حرف ببطء شديد. استغرق الأمر وقتا طويلاً نظراً لعجزها عن الجلوس لفترة طويلة، لذا احتاجت لنيل قسط من الراحة من وقت لآخر. لم تنسى أن تذكر هذا في الرسالة. وبعد دقائق من ارسالها، زحفت إلى فراشها مرهقة، وغطت في نوم عميق.

وفي صباح اليوم التالي، أول شيء فعلته هو أن تدخل إلى حسابها على

الـGmail، وتضغط على زر التحديث. وجدت رسالة في صندوق البريد الوارد. احتوت الرسالة على سطر واحد فقط، رابطاً لأحد المواقع، تحته بعض الحروف، الأرقام والرموز الخاصة. نقرت على الرابط، فوجدت نفسها على موقع خاضع لتأمين قوي، فكتبت كلمة السر في المكان المخصص لذلك. انفتح الموقع مثل أرجل العاهرة وانفتح معه عالم من المعلومات عن مرضها. التهمت في الساعات التالية كل ما وجدته على الموقع. أما ما جذب انتباهها حقاً فهي التجارب المعملية الخاصة بمستشفى نيودلهي التخصصي، تلك التي أجرتها على مرضى التصلب الجانبي الضموري. وقد حققت نجاحاً محدوداً. وبينما تقرأ المحتوى، تلقت رسالة أخرى تشرح أنها لا يحق لها أن تخضع لهذه التجارب.

أرمان كاشياب: armankashyap@gkl.co.in

بيهو مالهوترا: p_malhotra@gmail.com

أنا على ثقة أنك قرأت التقارير الخاصة بالتجارب المعملية. للأسف لا يحق لك الخضوع لهذه التجارب. باب 5. فقرة 6. تقبلي اعتذاري.

تحياتي

د. أرمان كاشياب

قرأت بيهو باب 5. تدلى وجهها. بما أن المرض لا يصيب سوى المسنين، فإن السماح بالخضوع للتجارب المعملية ليس متاحاً لأي فرد أقل من سن الثلاثين. غرقت في مقعدها وأغلقت جهاز الكمبيوتر، إنها متعبة. في الشهرين التاليين، لم ترسل رسالة واحدة للطبيب بمستشفى نيودلهي التخصصي، ولم تستلم أية رسائل. حالتها الآن تسوء تدريجياً، جسدها وروحها يفارقان الحياة ببطء. استعدت هي ووالداها لتقبل الحقيقة الحتمية. ستموت. سيبكي والداها وينتحبان طيلة البقية الباقية من أعمارهم. ليس ثمة شيء يمكن أن يتغير.

تجلس الآن على مقعد متحرك. غير مسموح بتناول أي شيء سوى السوائل، تناول الطعام من المحرمات. هناك أوقات حاولت تناول الطعام الصلب واختنقت نظرا لضمور العضلات في حنجرتها. في أحد الأيام، بينما تصاعدت معاناتها إلى ذروتها، أرسلت رسالة بالبريد الالكترونى إلى أرمان لتخبره بتطور حالتها المثيرة للشفقة. كانت تتمنى أن تكتب رسالة طويلة، لكن جسدها استسلم بعد مرور نصف ساعة.

بيهو مالهوترا: p_malhotra198@gmail.com

أرمان كاشياب: armankashyap@gkl.co.in

عزيزي دكتور أرمان،

ربما تكون هذه رسالتي الاخيرة. لك أو لأي شخص. تقدم المرض إلى مرحلته الاخيرة. استغرقت كتابة هذه الرسالة عشرين دقيقة. أنا متعبة باستمرار. كأن حجراً يسحق رئتي، يمتص الحياة من روحي. أحتاج للمساعدة في كل شيء أفعله. حتى أني لا أستطيع أن أنظف نفسي بعد دخول الحمام. أثق أنك تعرف ماذا يحدث. يتحلى والداي بالشجاعة. لا يبكيان في حضرتي. أقضي الساعات في النوم أو في الابتسام لأقاربي. يعرفون أني سأموت. إنه شعور غريب. أشعر بالرعب أحيانا. أفكر أحيانا كيف سأموت. هل ستنهار رئتي؟ أو قلبي؟ ثم أشعر بالراحة في بعض الأوقات. سينتهي كل شيء. أطلب من أبي أن يقرأ لي بعضا من كتب كلية الطب. ربما أكون طبيبة في حياة أخرى، إذا كان هناك أي شيء من هذا القبيل. أريد أن أشكرك على ردك على رسائلي وتزويدي بموقع البحث الخاص بك. هذا يعني لي الكثير، شكرا لك. أحتاج للانصراف الآن. حظاً سعيداً.

تحياتي

بيهو مالهوترا

تعرف مما درسته عن المرض أنها لن تعيش أكثر من ثلاثة أشهر، أعطاها بعض الأطباء فترة أقل. تضاعف الخوف في عيون والديها مع كل يوم يمر، حزنهم يكبر ببطء إلى الحد الذي لا يمكن احتماله. خلال تلك الأيام، بدأ الأقارب في زيارتها بالبيت لرؤيتها للمرة الأخيرة. ولا تملك بيهو المقيدة بفراشها سوى أن تقابلهم بالابتسام. وتبكي عندما تكون بمفردها. تنام أغلب اليوم. جسدها بما تبقى منه متعب ومجهد على نحو متواصل.

بدأت تصاب بقرحات الفراش. تمضي أمها ساعات في حملها ونقلها من السرير لمنع عدوى قرحة السرير من الانتشار. لكن الأمر أصبح اكثر سوءاً. تبقى مستيقظة لساعات طويلة لا تتوقف فيها عن السعال. يتساقط اللعاب من فمها، لكنها لا تملك القدرة على مد يدها لتمسحه. يوما بعد يوم، تقضي طيلة الوقت مستلقية على السرير، تحملق فى السقف بينما يقرأ والدها عليها كتبا ومجلات. يمكنها أن تغمغم لكنها لا تستطيع أن تتحدث، ذلك لأن لسانها صار ضعيفا. إنها الآن أسيرة جسدها المحتضر، في انتظار موت محتم قادم.

التقط والدها صوراً لها بشكل يومي وهي في أيامها الاخيرة. الأطباء الزائرون يغادرون البيت ورؤوسهم متدلية. يعلمون أنها ستكون في عالم آخر في الزيارة القادمة.

بعد أيام قليلة مرت بعد رسالتها الأخيرة عبر البريد الاليكتروني، وصل طرد للباب الامامي للبيت، مكتوب عليه اسم بيهو. فتح والدها الطرد بحرص. فقد كانت محتويات الطرد ملفوفة بعناية. احتوى الطرد على ملف به أوراق وصندوق به حقن، زجاجات من سوائل ملونة وكابسولات.

سأل والدها. «ما هذا؟» بينما يبحث في المحتويات.

هزت رأسها ونظرت في الرسالة التى كانت وسط باقي المحتويات فوق

السرير. قرأ أبوها الرسالة، التي ذكرت في كلمات واضحة وبسيطة أن هذه الادوية هي التي جربوها على مرضى التجارب المعملية بمستشفى نيودلهي العام. لكن الخط كان واضحاً لا يشبه خط الأطباء.

عزيزتي بيهو،

اتبعي التعليمات كما هو مكتوب في الملف. احتفظي بها أنت وعائلتك. لا تخبري أي من الأطباء. لقد حققت هذه الادوية درجة معقولة من النجاح في مستشفانا. إنها تعرقل الأعراض في بعض الحالات. بينما تعكس الآثار في أخرى. فكري قبل أن تقرري. لا تحمليني المسؤولية.

تحياتي

نظر والدها إليها طلباً لتفسير، وأخبرته عن أمر الرسائل الالكترونية والموقع. وطلبت من والدها أن يقرأ الملف ليعرف كافة التفاصيل الخاصة بتطور حالة المرضى ممن جربوا هذا الدواء. أمضوا الليل بطولة في قراءة تفاصيل كل حالة، جرعات الدواء التي تناولها كل مريض. مسألة أن تتناول الدواء أم لا لم تكن مطروحة بالأساس. إنها تحتضر. أمامها ثلاثة أشهر فقط، تزيد أو تنقص أسابيع قليلة. توافر أمل في الحياة بنسبة عشرين في المائة أمر أفضل بكل المقاييس، من أن تعيش لبضعة أشهر، مثل الانسان الذي ينتظر الموت خلال الأشهر القليلة القادمة، ثم، تموت على أية حال. علم والدها كيف يتم استخدام الحقن. بعد عدة محاولات أجراها على نفسه ليعرف بدقة كيف يحقنها، صار أداؤه أفضل. في اليوم التالي، بدأت في تناول الادوية. خلال محاولات الحقن الاولى، كل مرة ترتعد أصابعه كلما اقترب من لحم بيهو. ثم أصبح أكثر سلاسةً. تغيرت الأمور ببطء. وبعد مرور شهرين، كتبت رسالة جديدة إلى الطبيب.

بيهو مالهوترا: p_malhotra198@gmail.com

أرمان كاشياب: armankashyap@gkl.co.in

عزيزي دكتور أرمان،

أنا في حالة أفضل. بدأ يظهر مفعول الدواء. تناولت غذاء صلبا لأول مرة. شكرا لك.

تحياتي

بيهو مالهوترا

أرفقت بالبريد تقريراً أعدته مع والدها لمتابعة تطور الحالة. أتت العقاقير التجريبية بثمارها. لم تعد تسعل دون توقف واستعادت بعضا من عافيتها. يمكنها الجلوس والقراءة بمفردها. بدأت تستعيد الاحساس بيديها من جديد، لكنه ليس احساساً كاملاً. والداها سعيدان لأنهما يستعيدان ابنتهما مجددا.

لكن الأمور لم تكن وردية كما يبدو. وبعد مرور شهر، طلب الدكتور أرمان من والدها أن يحضرها إلى المستشفى. فقد شهدت الأعراض انتكاسة عند العديد من المرضى في التجارب الاكلينيكية.

7 ـ مستشفى نيودلهي التخصصي

صناديق ثلاثة تحتوي في أغلبها على كتب. انتهت بيهو من تعبئة حياتها في صناديق ووضعت عليها علامة «قابلة للكسر». والديها ينتظران بالخارج، أعينهم خاوية خالية من الأمل. تعانقت أيديهما. تنزل قطرات من دموع من أعينهما أحيانا. خلال الشهرين الماضيين، كانا أسعد من أي وقت مضى. كانا يتابعان كيف تحتضر ابنتهما راقدة على السرير، ثم شاهدا كيف تستعيد عافيتها مرة أخرى. الآن، يشعرون بالرعب من أن تنتكس ثانية. لم تعد الادوية تعطي أية مؤشرات بنجاح الجسد في مقاومة المرض، بعد أن منحتهم المرحلة الاولى الأمل. ونتيجة لذلك، فإن جميع الأعراض عادت لعديد من مرضى التجارب المعملية في مستشفى دلهي. طلب دكتور أرمان أن يسمحوا لبيهو بدخول المستشفى. قالت بيهو ثم رفعت يدها. «فلنذهب؟» أمسكتها أمها بكلتا يديها، وربتت عليها. يمكنها أن تلمح الالم في عيني أمها، الأمل وخيبة الأمل في عين والدها. دخلا السيارة التي استأجروها لتقلهم إلى المستشفى. أنتقل والدها إلى دلهي. وللمرة الاولى يظهر مديره بعض التعاطف.

وصلت سيارة الأجرة إلى المستشفى في الساعة الثامنة صباحاً. توجهوا على الفور إلى المستشفى بدلا من الشقة التي استأجروها. أعد الدكتور أرمان بعض الفحوصات لها. وفي منتصف الظهيرة، أتموا كل شيء. كما اختارت أيضاً الغرفة التي ستنتقل إليها في ساعة متأخرة من الليل. أراد والديها أن تكون أيامها فى المستشفى مريحة، إلا أنها اختارت غرفة نوم مزدوجة.

قالت والدتها. «بيهو، لم لا تختارين غرفة مفردة؟ ستكون أكثر راحة لك».

«ردت بيهو. «أمي، لا أريد غرفة مفردة. إضافة إلى أنها مكلفة جداً».

«كما لو...»

انهارت أمها واحتضنتها بيهو بين ذراعيها. ظلت تبكي بحرقة وتغمغم حتى وصلوا إلى المنزل. حمل سائق سيارة الاجرة الصناديق إلى الشقة. طلبوا منه أن يبقي الصناديق بالقرب من الباب. عاد أبوها مرة أخرى مع السائق لإحضار بعض الأطعمة والاطمئنان على ترتيبات المستشفى.

شعرت بيهو بالأسى على والدها. لم تذرف عيناه دمعة واحدة. يعرف أن هذا سيجعل حالة والدتها أكثر سوءاً. لكن بيهو لاحظت كل المرات التي حاول فيها والدها أن يتحاشى النظر إليها. بذل كل ما بوسعه ليتجنب أي تواصل بالعين معها، لوقف ذلك السيل الجارف من المشاعر خلف تلك العيون الزاهدة. في بعض الأحيان، تصورت أنه كان من الافضل لو ماتت فى المرة الاولى. كرهت الأمل المزيف الذي منحته إياها الادوية التجريبية بشكل مؤقت.

قالت بيهو. «أبي لا يتحدث معي» بينما كانت أمها تعد الغداء. «لن أبقى هنا طويلاً، عليه أن يتحدث معي». جف فم أمها وشحب وجهها. اعتذرت بيهو بمجرد أن رأت النظرة على وجه أمها قائلة. «أنا آسفة. لن أكرر هذا».

في بعض الأحيان، تشعر بالاختناق. إنها تريد أن تحبس أنفاسها، تبكي، تصرخ لأن كل هذا لم يكن عادلاً. لكنها لا تستطيع، لأنها ليست الوحيدة التي تعاني. تنتهى معاناتها مع رحيل روحها، أنفاسها الاخيرة، فى حين أن معاناة أبويها ستبدأ.

قالت أمها. «طبخت لك كل ما تحبين».

ردت. «أرى ذلك». ثم ملأت طبقها عن آخرة حتى كاد يسقط. ولم تعرف ما إذا كانت ستتمكن من تناول طعام صلب مرة أخرى. ثم ابتسمتا.

قال أبوك أن الطبيب ربما يجرب علاجا جديدا عليك؟ هل تظنين أنه سيفيد؟ هل شفي أحد؟ كم عدد المرضى الذين ظهرت عندهم أعراض انتكاس؟» أسئلة وجهتها الأم بينما تناولتا الطعام.

«قليلون. المرحلة القادمة جديدة على الجميع، لم يمر بها أحد من قبل. ربما يبدأون ببعض المرضى خلال الأسبوع المقبل».

«هممممم». عقدت الأم حاجبيها. ورغم أن ابنتها كانت ستصير طبيبة بعد سنوات قليلة من الآن، إلا أنها لم تصدق كلام الأطباء أبدا. إنها تنظر لهم دوما بعين الشك.

طمأنتها بيهو. «علينا أن نأمل في الأفضل».

بقيت أمها هادئة لبعض الوقت، ثم قالت. «لا أعرف لماذا فعل اللّه هذا بنا. لم نخدع أحداً أبدا. كنت دوما تلك الفتاة الطيبة. أصلي يوميا. ثم لماذا نحن؟ لماذا ابنتي الصغيرة؟» ثم ربتت على رأس بيهو بينما تتناول طعامها، منعت بيهو نفسها بشدة من البكاء. عندما رأت دموع أمها، غرقت في حزن عميق. لكنها سألت هذه الأسئلة ملايين المرات ولكنها لم تحصل أبدا على إجابة. حان وقت التوقف عن الأسئلة. قالت. «ماما، لا أريدك أن تبكي. إذا فعلت، سأبكي بدوري».

«أملك أحلاما عديدة لك. زفافك، أطفالك، أحفادي. ما الذي فعلناه لنستحق هذا بحق السماء؟» ناحت أمها وهرعت إلى الغرفة الأخرى.

علمت بيهو أنها لن تخرج من غرفتها قبل أن تلعن اللّه مرات لا تحصى بسبب الآلام التي يعيشونها. الا أنها ستظل تصلي. شعرت بالأسف لحال أمها. وعلى الرغم من أنها تريد معانقتها وطمأنتها، الا أنها رأت أنّ على أمها الاستعداد للأسوأ. لذا ركزت على الغذاء بدلاً من ذلك. وبعد قليل، رن جرس الباب، أحضر والدها عشرين صندوقاً آخرا يحمل أشيائهم، التي أفرغت في حجرتها. دفع أبوها أجر السائق الذي غادر.

قالت. «عاودت أمي البكاء». بينما ينضم إليها الأب على المائدة.

سأل. «ما الذي بيدها فعله غير هذا؟»

تولت بيهو تقديم الطعام لوالدها. لم يكن يتناول الكثير من الطعام خلال هذه الأيام. وضعت كمية كبيرة من الأرز والنبضات على صحنه. فشلت كل محاولاته لمنعها.

أمرته. «عليك أن تأكل. أنت بحاجة للطعام. تتعرض للكثير من الضغط».

«وأنت؟»

«أنا بخير».

«هل أنت متأكدة من ذلك، بيتا؟»

«سأكون على ما يرام. بالإضافة إلى ذلك، لدي أفضل أبوان في العالم للوقوف بجواري كي أتعامل مع هذا الموقف». وضعت يديها حول رقبة والدها، وقبلته برقة على خده. لم يقل الوالد شيئا. بعد الانتهاء من الطعام، غسلا الاطباق معا ـ وهو شيء اعتادا على فعله سويا.

«هل أعجبتك الغرفة التي رأيتها؟»

«نعم، بالتأكيد. هناك مريض أخر بالغرفة. شاب، وهذا أفضل». ضحكت قائلة. «على الاقل ليس عجوزاً كما في باقي الغرف».

«هل هو صبي؟»

«كلا، ليس صبياً. يكبرني بخمس أو ست سنوات». ضحكت قائلة. «هل تخشى أن أقيم علاقة معه؟»

قال بحزن. «أتمنى ذلك. كنت لآخذ هاتفك الخلوي وأوبخك».

«أوو... أنت أفضل أب في الدنيا». قالت وهي تمسك بيديه.

لف ذراعه حول ابنته، بينما امتلأت عيناه بالدموع. تعرف بيهو مدى صعوبة الأمر عليه. ومهما حاول بكل ما استطاع أن يخفي هذا، إلا أنها تشعر به. على الأقل الامور أفضل نسبيا الآن. لقد حصلت على فرصة ثانية في الحياة. وإن لم تكن تعرف إلى أي مدى سيستمر هذا، إلا أنها لاتزال تريد شكر الطبيب الذي فتح بابا للأمل وجعل الأمر ممكنا.

توقف التاكسي أمام مستشفى نيودلهي التخصصي. الصناديق الثلاثة مغلقة في صندوق السيارة. خرجت بيهو من السيارة دون أية مساعدة. كانت تشعر بتحسن إلى حد ما. بُنيت المستشفى بالطوب الأحمر، كانت شديدة الضخامة. أحد المستشفيات التي كانت ستعمل بها، لو كُتب لها أن تتخرج. عليها أن تقابل طبيبها، دكتور أرمان كاشياب، وربما كادت تموت رغبة في مقابلته. ضحكت من اختياراتها للكلمات. إنه الرجل الذي يحمل كل الاجابات. كان أيضاً يتمتع بالوسامة!

توجهوا إلى الاستقبال، ملأوا استمارات الدخول والتأمين. وطلب منهم الانتظار حتى يتم إعداد الغرفة لاستقبالها. طُلب من بيهو أن ترافق إحدى الممرضات إلى غرفة تغيير الملابس.

بخلاف غيرها، أحبت بيهو رائحة الفورملديهيد المزعجة، المقززة التي انتشرت في أرجاء المستشفى. بدت الرائحة كحلم. حلم مكسور اليوم. أعطتها الممرضة معطفاً وسحبت الستار كي تتمكن من تغيير ملابسها. ربطت المعطف بشيء من الصعوبة فقد خذلتها أصابعها. سألتها الممرضة إن كانت في حاجة للمساعدة وطلبت منها بيهو أن تأتي. شعرت أنها عارية وأحست بالحرج بينما كانت تساعدها الممرضة في ربط المعطف من الخلف. لكنها مرت بما هو أسوأ. قبل أن تتناول الادوية التجريبية، اعتادت على أن تحممها ممرضة وتراها عارية كل يوم.

قالت للمرضة مبتسمة. «أنا في طريقي إلى الموت».

أجابت الممرضة. «لا تقولي هذا».

«كلا، قلت هذا لتوي لأنك ربما تكوني الشخص الوحيد الذي يراني عارية قبل أن أموت. هذا بخلاف الممرضات الأخريات اللاتي شاهدنني عارية. لماذا لا يكون هناك رجال وسيمون يعملون بالتمريض؟ أعني لا أمانع في هذا. حتى أنت لا تمانعين، أليس كذلك؟»

ضحكت الممرضة وضحكت بيهو معها. قالت الممرضة. «هلا ذهبنا؟»

«هذا إذا كان المعطف مربوط جيداً».

قالت. «إنه جيد. إلى أي جناح عليّ أن أصحبك؟» أخذت خريطتها وعثرت على رقم الغرفة. غرفة رقم 502، «أوه يبدو أن هناك مريض آخر بصحبتكَ في الغرفة».

قالت. «أعرف. لقد قابلت الرجل» ثم أمسكت بعكازيها.

توقفت أمام بعض المرايا حتى تنظر لنفسها. صلّت لئلا يقع معطفها. تشعر وكأنها عارية حتى في هذا المعطف المهلهل، كأن الجميع يمكنهم رؤيتها من خلاله. عرضت الممرضة عليها كرسيا متحركا، لكنها رفضت. ترنحت في طريقها لعكازيها ومشت حتى المصعد، الذي انطلق بها إلى الطابق الثالث. ولم تعرف كم من الوقت يلزم قبل أن تفقد قدرتها على المشي مرة أخرى. سارت نحو الغرفة رقم 502.

«تلف دماغي كبدي». قرأت الكلمات على سجل الرجل الذي يفترض أن يكون رفيقها في الغرفة في أيامها الاخيرة. فكرت. «إنه قابل للعلاج. في أغلب الحالات». وألمحت الممرضة. «سأضعك في مكانك وأتصل بوالديك؟»

«بالتأكيد».

رأت الرجل مرة أخرى. دوشيانت روي.

كان نائماً. بدا لها رائعا بشعره المجعد، وذقنه الطويلة، وغطرسته الناعسة. إنه يشرب الخمر. يدخن، وربما يتعاطى المخدرات أيضاً. هممم. ربما يملك دراجة نارية ويقودها بسرعة كبيرة. في غضون دقائق كانت تتخيله كصبي شقي خرج لتوه من فيلم انجليزي قديم. أو ربما يشبه أكثر أدجاي ديفجن، بساقيه المفتوحتان 180 درجة على دراجتي ياماها، من فيلم الحركة الهندي بهول أور كانتي!

في السنوات الثمانية عشر قبل تشخيص مرضها، لم تنظر أبدا إلى الأولاد مثل أي فتاة عادية. كان هناك زملاء على الدوام، لكن لم يكن هناك أحبة محتملين. على مدى الأشهر القليلة الماضية، أصابتها السمنة جراء اتباع نظام غذائي قديم من ميلز وبوونز، الخاصة بأمها، الظلال الخمسين وثلاثيات سيلفيا الصباحية، فشعرت برغبة ملحة أن تكون بصحبة الجنس الآخر. أن تختبر الشعور بالانجذاب لرجل يبادلها نفس الشعور، أن تنتفض قليلاً عندما يلمسها رجل، أن تكون عارية في صحبة رجل. أن...

«هناك». قالتها الممرضة حين وصلت مع بيهو قرب الغرفة. شكرت بيهو الممرضة، التي أخبرتها أن تضغط الزر إذا كانت بحاجة إلى أي شيء، ثم انصرفت.

غمغمت بيهو. «إنها ليست بهذا السوء». عبثت بجهاز التحكم في السرير. أعلى. أسفل. إيقاف. أعلى. أسفل. إيقاف. أعلى. أسفل. أعلى. أسفل. إيقاف. ثم ضحكت.

«هلا توقفت عن هذا؟» جاءها الصوت من الجانب الآخر من الستار. كان صوت أجش وحاسم.

«أوه».

دوشيانت. سحبت الستار جانبا لتلتقي بنظرته الحادة.

قال غاضبا. «أنا أحاول النوم هنا».

أوضحت. «أنت لا تحاول النوم. إنها أعراض المرض الذي تعاني منه. سوف ينتابك شعور بالنعاس لمدة شهر أو اثنين» بينما بدت المفارقة بين حماسها الطفولي والمعلومات التي تخبره بها.

«فليكن. هلا توقفت عن هذا الضجيج؟ إنه مزعج».

«مرحبا، أنا بيهو» ومدت يدها لتصافحه.

قال. «مممم... لست بحاجة لمعرفة اسمك. سأغادر خلال يوم أو يومين، وصوتك أكثر إزعاجا من الضجيج الذي أحدثتيه في وقت سابق. أتمنى ألا نزيد الأمور صعوبة أكثر مما هي عليه بالفعل».

«حسنا. بالمناسبة، لن تغادر المستشفى في غضون يوم أو اثنين. تعاني من الفشل الكبدي. سيستمر علاجك لفترة طويلة. لذا من الأفضل أن نصبح أصدقاء». ثم أجبرت ابتسامة أن ترتسم على وجهها.

صرخ. «لا أريد أن أصادق طفلة. اعتن بشؤونك الخاصة» توقف. أنتظرت بيهو أن يدرك أنه سبق أن التقيا. «اتسعت عيناه. ألست أنت الـ...»

«بيهو».

مدت يدها له مرة أخرى لتصافحه. صافحها بامتعاض. حينئذ، دخل والداها حاملين بعض الأكياس. شعرت بيهو بدوشيانت وهو يسحب يديه، ورأته وهو يدفن رأسه في الوسادة.

قالت بيهو لنفسها. «يا لجمال هذه العيون. توقفي! أيتها المنحرفة!» في الآونة الأخيرة، بلغت رغبتها في أن تكون بصحبة رجل ذروتها. لا تريد أن تموت وهي لم تذق طعم قبلة. كونها فتاة طيبة على مدار تسعة عشر عاما لم يجلب لها شيئا، ربما تحظى بشيء ما لو صارت سيئة.

سألتها أمها. «هل تشعرين براحة؟ هل تكييف الهواء مناسب؟ هل تشعرين ببرودة؟».

«أمي، أنا على ما يرام».

تعلقت بيد أمها الجافة. جلست الأم بجوارها، ربتت على جبينها وغمعمت ببعض كلمات تدليل ومحبة لابنتها اعتادت أن تقولها لها حينما كانت طفلة. فتح والدها الحقائب، رتبت الزجاجات، الكتب، وصورتين داخل إطارين من بين ست وثلاثين صورة.

قالت. «كنت أتمنى لو كان لي شقيق. افتقدت دوماً هذا الاحساس». قالتها حين سقطت عيناها على الصورة داخل الإطار. التقطت هذه الصورة أيام رحلتهم التي استمرت لعشرة أيام لدوار كا بوري للاحتفاء بنجاحها في الامتحان. لن تنسى أبدا تلك الأيام العشرة، الطعام الرائع، تدليل والديها، الشواطىء الرملية، النزهات الطويلة.

قالت والدتها. «لم يكن ينقصنا شيء عندما ولدت، اكتمل عالمنا. تربية الأولاد صعبة. لكن البنات كالملائكة». قالتها وهي تمرر يدها على شعر بيهو. لم تدرك بيهو إن كانت أفضل حالا.

سأل والدها. «هل تشعرين برغبة في النوم؟»

ردت بيهو. «أعتقد أنني سوف أقرأ قليلاً». بإمكانها أن تشعر بأنين دوشيانت في فراشة. لعله يتألم؟

سأل والدها. «أي كتاب؟»

أشارت إلى كتاب «علم أمراض الكبد»، ألفه أر. ان.ام. ماكسويين. ناولها أبوها الكتاب، كان سميكاً وثقيلاً. فتحت الكتاب حيث توقفت آخر مرة وكانت قد وضعت ورقة صفراء لتتذكر أين توقفت حين معاودة القراءة.

قال الأب. «سأكون بالخارج لو احتجتم شيئا».

أومأت برأسها. افترشت أمها الاريكة. وفجأة عمّ الصمت الغرفة.

صفر الجهاز الطبي. قطرات المحلول تواصل رحلتها. قلبت الصفحات الصفراء على عجل. رسوم بيانية وصور. اتسعت عينيها. كان شيئا رائعا ومقززا في ذات الوقت.

واصلت بيهو القراءة طوال الليل. وقرب الفجر، غلبها النوم.

8 ـ دوشيانت روي

كان صباحا مؤلماً لدوشيانت. تلاشى أثر المسكنات وتصاعد الألم. ضغط الجرس مرتين لكن لم يحضر أحد. أمسك بمعدته بقوة، تقلب متألما في فراشه من جانب لآخر. لو لم تكن بيهو وعائلتها بالقرب منه، لصرخ حتى خرجت. رئتاه تحترقان.

سمع بيهو تقول لوالدها. «هلا استدعيت أحدا؟» غادر أبوها فورا وعاد بصحبة الممرضة.

تم حقن سائل شفاف في دمه، شعر براحة فورية، تبعها إحساس بالوخز وكانه يشعر بالإغاثة الفورية، تبعها غزل وضجيج رقص في رأسه. كما لو كان قد استفاق من سكرة. غادرت الممرضة الغرفة عندما هم بطلب المزيد. تمددت يده، راغباً في المزيد من السائل الذي حلق به كطائرة ورقية. أغلق عينيه ببطء، وذابت الحدود بين الحقيقة والخيال. سمع المرأة ـ والدة بيهو ـ تقول لبيهو. «لقد اعتاد على الشرب والتدخين. أخبرتني الممرضة بهذا. إنه بحاجة إلى زراعة كبد، لكنه لا يجد مانحين. لا أدري لماذا اخترت هذه الغرفة. ربما سينقل إليك العدوى».

«أمي، مرضه ليس معدياً، وقد فات الأوان بالنسبة له أن يعديني بعدوى عادة الشرب».

نظرت لها أمها نظرة باردة. «مهما كان، أتعجب أين والديه. منذ أن قدمنا إلى هنا، لم يأت أحد لزيارته».

«وما الذي يقلقك في هذا؟»

«أشعر بالأسى لوالديه. مثل هذا الولد الصغير وله تلك العادات السيئة. هذا أمر مخجل!».

«حسنا يا أمي. ما الجيد؟ ابنتي اللطيفة الرائعة عليها أن... وهو سيعيش. هذا ليس عدلاً بأي حال». وصل إلى مسامعه ما قالت الأم عنه. هل سيشكل موته فارقا بالنسبة للسيدة؟

توسلت بيهو. «أمي، هلا أخفضت صوتك قليلاً، يمكنه سماعنا». قالت المرأة بصوت غاضب. «لا أهتم».

حاول جاهدا ألا يتحرك ويركز على ما يقولونه عنه. التعرض للهجوم له فوائده بالطبع. يبدو كأن الناس تفترض أنك أصم بينما أنت لست كذلك. لكنهم صمتوا. وسرعان ما وصل بلاد العجائب. ظلام. سحب. طيران. كاجال.

اهتزت الارض من تحت أقدامه، ثم سريره ثم هو. استيقظ فرأى وجها مألوفا ينظر نحوه. كان الطبيب الكريه ممسكا بعصا خلفه.

قال الطبيب. «صباح الخير. رغم أن الوقت كان ظهرا. تقابلنا من قبل. أنت الذي شرب حتى الموت. وأنا المسكين الذي اضطر لإنقاذك حتى تفعلها ثانية».

شعر دوشيانت بالحرج وبالغضب. يشعر بأعين الوالدين وابنتهما وهي تتطلع إليه، يصدرون الأحكام عليه، ويلعنونه. وزاد سلوك الطبيب المغرور الأمر سوءا، وكاد الألم البشع في معدته أن يدفعه لصفع الطبيب على وجهه.

«هل يمكننا مناقشة هذه المسألة؟»

«نعم نستطيع». سأل. «سمعت أنك كنت تئن من الألم هذا الصباح؟ هل بكيت؟» أومأت الممرضة مصدقة على الكلام.

أكدّ دوشيانت. «نعم كنت أبكي بحق الجحيم!»

«اخرس ولا ترفع صوتك. هذه مستشفى، لست في بيتك. إذا لم تبك، هذا يعني أن الألم بسيط. عليك أن تعلم أنه ليس عليك أن تبكي في المستقبل. أنت رجل ناضج، بحق السماء. لا مزيد من المسكنات. سنبدأ إعطائك جرعات من المضادات الحيوية الجديدة. الجرعات الاولى لم تعمل بشكل جيد كما ينبغي».

سأل. «هل تأكدت من طبيعة حالتي؟» محاولا معاودة الكلام مع الطبيب.

رد الطبيب. «في الواقع أعرف تماماً ماذا بك. أنت إنسان غبي تضيع حياتك هباء. الآن كلما قلت أسئلتك، كان أفضل لك».

شعر دوشيانت بالإهانة، لكن قبل أن يقول شيئا، دخل طبيب آخر وفتاة، ترتدي معطفاً أبيضاً، وقد بدا مناسبا لها، بخصرها الصغير وصدرها الكبير. بدا كعبيها في غير موضعهما في غرفة شخص يحتضر، ولكنها بدت جيدة فوق رجليها المتينة البنية الرفيعتين. لمع جلدها الاسمر بشكل طبيعي، بينما تلاشى ألم دوشيانت لعدة ثوان، قضاها في النظر إليها، وهو يتخيلها في سيناريوهات مختلفة، بكعوب، وبدون، بمعطف، وبدون.

«هذه الدكتورة زهرة. ستجري التحاليل، وتحاول أن تبقيك حيا إذا ما تعاونت معها». وسأله بعجرفة. «هل فهمت؟»

تلعثم ولم يعرف ماذا يقول. بدت الفتاة الواقفة خلفه ودودة، رغم تعبيرها الذي لم يتغير. أغرق الطبيب الفتاة بالعديد من المهام الطبية قبل أن يتحرك إلى الجانب الاخر. رآه يسحب الستارة ويحجب الوجوه المتنكرة لبيهو ووالديها. هل كان هذا بغيضا؟

سأل دوشيانت زهرة. «هل هو دائما هكذا؟» بينما كانت تربط شريطا حول ذراعه.

ردت. «ربما. مر عليّ هنا بضعة أسابيع فقط. ولكنه طبيب رائع، سينتهي به الأمر بإنقاذ حياتك». لاحظ أنفها الحاد وعينيها الضيقتين البرونزيتين. وضعت أحمر الشفاه بعناية فائقة. وافق لونه جلدها البرونزي ببراعة. سأل وهو مرعوب. «حياتي؟ أنتم يا رفاق تعلمون ماذا عندي، أليس كذلك؟» أراد التدخين، أراد بعض البيرة، وربما أن يستنشق شيئاً من الكوكايين.

«مررت بنوبة في الليلة الماضية. ربما تكون المشكلة عصبية أيضاً. لازلنا نتتبعها».

«ماذا؟ عصبية؟ هل تعنين أن ثمة خطب ما أصاب عقلي؟»

لسنا متأكدين. ربما يكون ورما أو تجلطا في مكان ما. نحن نحتاج إلى مسح شامل وأشعة مقطعية».

«متى؟».

قالت. «الآن». ثم ضغطت على الجرس. جاء اثنان من الحراس بسرعة لنقله من فراشه إلى النقالة.

«يمكنني الحركة». نهض واستلقى على النقالة. دفع الحراس النقالة بعيدا عن الغرفة. سارت زهرة بجواره، بينما تدق كعوبها على الأرضية، شفاهها تتمايل بشكل مغري مع كل خطوة. تساءل دوشيانت عن عمر زهرة. إنه بحاجة ماسة لحبة سعادة. أو ربما إلى سيجارة مخدرات.

قال شاكياً. «لماذا لم يستجب أحد عندما كنت أضغط على الجرس طوال فترة الصباح؟».

ردت مفسرة. «إنهم يعملون هنا لسنوات. يعرفون واجباتهم تماما، كما أنهم على وعي بالأوقات التي لا يكون لوجودهم ضرورة. هناك...» ثم أشارت إلى غرفة الاشعة.

«حقا؟».

«لا، ليس تماما. طُلب أن نبقيك بعيداً عن أي نوع من المسكنات».

«لماذا؟ ما الداعي لذلك؟»

«إنه لا يحبك».

«طبيب يكره المريض؟ هذا جديد. حسنا، فليذهب إلى الجحيم».

كان متأكداً أنه رأى ابتسامة زهرة.. للمرة الاولى، رأى تعبيرا غير ذلك التعبير الثلجي الدائم على وجهها. وبعد قليل، تم تفتيشه للبحث عن أجسام معدنية، ووجه إليه سؤال عما إذا كان هناك مسامير أو شرائح في جسده. رغم الكسور العديدة في جسده إلا أنه صمد أمام كل إصابات السلم، حوادث الدراجات البخارية وبهذا بقيت عظامه صامدة.

فكر وابتسم. «عظام من الصلب وقلب من حجر».

«الآن، هذا سيستغرق بعض الوقت. لا تتحرك بينما أنت في الداخل، سارع بالنداء إذا شعرت بشيء غريب». ثم سألته. «هل كلامي واضح؟»

أومأ برأسه. شعر ببعض الخجل في صحبة زهرة. في الحياة، ربما تحدث عنها مع أصدقائه، وتساءل فيما إن كانت عازبة. ربما أعطى لخياله العنان معها قليلا. ولكن الآن، كان عارياً تحت معطف، بائس، وتحت رحمتها. تحت رحمة فتاة جميلة. تألم جسده طلباً للتدخين. شعر بالهزيمة. تماما مثل اللحظة التي قالت له كاجال فيها أنها لا تريد رؤيته مرة أخرى. كان يوما ملعونا، يوم لا يريد أن

يتذكره أبدا. بعدها بقليل، ابتلعته القبة الدائرة الضخمة لجهاز الأشعة المقطعية. شعر بالارتباك. أصاب رأسه صداع ورغبة في الصراخ. أنت رجل ناضج. عادت إليه الكلمات فصمت. لم يرد أن يصرخ مثل المخنث أمامها. لماذا يهتم؟

ولإشغال نفسه، سأل. «هل كنت ترغبين دوما أن تصبحي طبيبة؟».

لم يكن هناك رد. وبعد قليل، أتى الصوت. «ربما». تردد صدى الصوت. شعر أنه أفضل حالا.

«هذا الشيء مزعج للغاية».

قالت زهرة. «اصمت قليلًا، ودعني أركز في صور مخك الغير مغرية».

«كيف تبدو؟»

«تبدو رائعة. على الرغم من أنه سيتعين علينا ان نأخذ رأي آخر. فأنا لست خبيرة».

ظلت عينا دوشيانت مغلقتاً لعدة دقائق. جعلته المحارة البيضاء يشعر بالاختناق. سألته زهرة. «هل أنت بخير؟».

«أعتقد».

قالت. «أمامنا دقائق قليلة».

أغلق عينيه وحاول الاسترخاء. فكر في كاجال ورفاق آخرين في الكيلة. رفاق الشراب في ذلك اليوم. لم يتصل أي منهم، ناهيك عن الزيارة. تراجع صوت الجهاز حتى صمت تماما.

قالت. «انتهيت، وأخبرت الحراس أن يسحبوك من الجهاز».

لم تفارق عيناه جسد زهرة الرخو بينما تقف أمام شخص متهالك، يجروه

على نقالة إلى حجرته. زهرة غارقة تماما في الأوراق التي في يدها. دفع الحراس النقالة إلى المصعد. تبعت زهرة النقالة، بينما عيناها لم تفارق الأوراق التي في يدها.

قالت زهرة. «بالمناسبة، اتصلت صديقتك. يبدو عليها القلق».

«ليس لدي صديقة».

«حسناً. أنا فقط أخمن. تدعى كاجال، إذا لم تخني ذاكرتي. أختك؟ صديقتك؟».

«كنا نتواعد. اتصلت؟ هنا؟ في المستشفى؟»

«نعم، لماذا؟»

«لم نتحدث منذ سنوات. تواعد صديقها السابق الآن». سألها. «ماذا قالت؟» وحاول يائسا أن يخفي شعور الهزيمة داخله. بدا وكأنّ زهرة تنظر إلى ما بداخله، حدّة نظراتها التي تبحث عن أجوبة. شعر أنه عار، كما لو أنّ أسراره ظهرت للعيان.

«أرادت أن تعرف ما إذا كنت ستعيش».

سأل. «ماذا قلت لها؟» عبر أمام عينيه مونتاج لصور بولارويد بالأسود والأبيض لحياته منذ عامين. شعر بالذنب. الخجل.

«أخبرتها أنه ليس هناك ما يدعو للقلق».

«هل هناك أي شيء آخر؟»

قالت. «لا». لم يستنتج من صوتها البارد المزيد.

غادرت زهرة إلى مكتبها بعد وصولهم إلى الطابق الخامس. وقبل مغادرتها، قالت أنها ستعود للإطمئنان عليه في المساء واطلاعه على تطور حالته. هز رأسه. تعلق رأسه بالظهور المفاجئ لكاجال، وصور مخه في يد زهرة. ما هذا التعبير الذي رآه في وجه زهرة؟ القلق؟ هل يحتضر؟ أو هل هي دائما على هذا البرود؟

عدم وجود ردود من الأطباء، التعبير البارد على وجه زهرة وهذا الكم من الفحوصات أربكه. لأول مرة، شعر بالرعب. إنه يريد رؤية كاجال ويخبرها بأسفه. ثم ما لبث أن دفع الأفكار السلبية بعيداً، لاعناً نفسه على هذا الإفراط في التفكير. حاول أن يفكر في الأشياء الجيدة في الحياة ـ الحشيش، الكحول، البوكر والطبيبة الشابة ذات الجلد الذي يبدو كالكراميل والعضلات المشدودة ـ بينما يصعد إلى سريره، تساءل عن دافع زهرة لقتل نفسها. في المصعد، رأى تلك الخدوش على معصميها.

كان قد غادر بمجرد عودة دوشيانت إلى الغرفة. كان ممتنا ويشعر بالارتياح. في المرة المقبلة، سيضرب الرجل في وجهه، لكن بعد أن يكشف عن الذي أصابه. في البداية قالوا الكبد، والآن الحديث عن المخ. كان يعاني من بعض الهلوسات. المستشفى، الأشعة المقطعية، الفحوصات، التشخيص. «هل ترى تلك الاشياء في الأفلام. لن تحدث لك مطلقا. إذن هل أجرو لك أشعة مقطعية». سألته الفتاة المزعجة في السرير المجاور له ما إن دخل سريره.

فكر. «يا لها من فتاة مزعجة». سألها. «هل عليك أن تتحدثي؟» بينما عاوده الألم مرة أخرى. بدأ في المعدة، ثم امتد إلى الأطراف، أطراف أصابعه، وببطء صار الجسد كله يعاني الألم. «هل تريدين أن تلعبي دور الفتاة اللطيفة؟ أليس لك حبيب يتصل بك؟ أو أي شخص؟»

«سامحني؟».

انقبض وجه بيهو. لم تؤثر الشفاه المقلوبة في دوشيانت، فهو لم يطلب صحبتها في الاساس. هي، والديها، ووجهها السعيد المتفائل، أثار اشمئزازه.

«لا أريدك أن تسأليني عن حالي أو عما فعلوا بي. ليس لدي أي رغبة في الحديث معك أو مع أي شخص حولك. اهتمي بشؤونك ولا تزعجيني!»

«لكن....»

«إنك تثيرين غضبي. وكذلك والديك. اذهبي إلى غرفة أخرى. هذا سيسر أمك. إنها تعتقد أنني حثالة ونذل». قال بغضب. «اسد لنفسك معروفاً وتوقفي عن الحديث معي بحق الجحيم». ارتعدت بيهو. ابتسم دوشيانت ابتسامة متكلفة. عجزت عن الكلام، ارتبكت، ثم سحبت الستارة التي تفصل بينهما. شعر دوشيانت بالارتياح للتخلص من تلك المشاعر. لكنه لم يعرف شيئا عن كم الطاقة اللطيفة التي تكمن في السرير المجاور له وعن اصرارها الذي يفوق حد تصوره.

ذكرته فورة الغضب بتلك الأوقات التي كان يصرخ فيها في وجه كاجال. اعتادت كاجال أن تصرخ في وجهه كرد فعل ثم تنهار في نوبات بكاء ونحيب خارجة عن السيطرة. وصل إلى مسامعه صوت نحيب خافت من الجانب الآخر من الستارة. أو ربما جاء الصوت من رأسه. ماذا أرادت كاجال باتصالها؟

لم يشعر بالاشفاق على بيهو أو بالأسف على ما فعله لتوه. على النقيض، أحب الصمت. من الأجهزة الطبية. من قطرات الدواء. الصافرة. القطرة. الصافرة. القطرة. دقات قلبه المرتبكة. لاب. لاب.

كان الوقت متأخراً ليلاً. كان يتلوى من الألم في فراشه. كأن معدته تمزقت وجفت. تصبب عرقا وابتل الفراش بفعل العرق الغزير. كان عليه أن يضبط درجة حرارة الغرفة مرتين. لم يشعر براحة. رن الجرس لاستدعاء قتلة الألم مرتين لكن لم يحضر أحد. أراد قطع رقبته بزجاجة مكسورة. رغب في حقن نفسه في الذراع. ابتلاع حبة. شم بعض من الكوكايين. الغياب في متاهة المخدرات مرة أخرى. حاول النزول من السرير ولكنه سقط.

خدّر الألم جسده.

بدأ السعال بعنف، ضغط الزر مرتين. سحب الستارة على مضض وقال متأوها. «بيهو».

نهضت بيهو من نومها وقالت. «ها... نعم؟».

«لقد سعلت».

فركت عينيها وقالت. «ماذا إذن»، وحاولت أن تبعد النوم عنها.

قال. «دم». ثم أشار إلى بركة من الدماء تحت سريره.

9 ـ أرمان كاشياب

سحق كرة تخفيف التوتر التي بين يديه وهو يجول الغرفة. كان منزعجاً. فقد انتكس بعض المرضى الآخرين، وهو ما سيحدث لبيهو بدورها. الخطوة التالية في أبحاثهم ـ على الخلايا الجذعية ـ كانت تتقدم كما القواقع البطئية فى يوم ممطر... لم يعتقد أحد فى المستشفى أنها ستنجح. لقد تم تجربة هذا النوع من العلاج على المرضى في الولايات المتحدة، بعض المرضى استمرت حياتهم لمدة سنة أو سنتين. توفي البعض الآخر على طاولة العمليات. وما زاد الأمر سوءا، أن الأحمق في الغرفة رقم 502 تقيأ مزيداً من الدماء، أكثر مما تحمله عروقه الغارقة في الكحول. ويبدو أنه سيرحل أيضاً.

ولكن على الرغم من ذلك، كانت بيهو على رأس أولوياته. فقد لاحظ أن زهرة تقف عند الباب بملف مليء بالتقارير، بينما يتصارع هو مع تحليل نتائج البحوث. وفي كل الأحوال. إن كان استخدام الخلايا الجذعية مجازفة كبيرة، فهو على أتم استعداد لأخذ المجازفة.

سأل. «أهلاً؟ هل تنتظرين شيئا؟»

لم يكن دوشيانت على ما يرام. إنه الآن يعانى من حمى. الألم فى المعدة يزداد سوءا. كبده في حالة متردية. فقد أصيب بنوبتين خلال الساعتين الماضيتين. أعضاء جسده على وشك التوقف.

لكن المضادات الحيوية جعلته يسعل دماً.

تساءلت. «ماذا عسانا أن نفعل الآن؟»

«بالضبط، أريد إجابة وأريدها منك. أعطيه المسكنات. دعيه يصمت ثم أعدي قائمة بكل مخدر تناوله في حياته كلها». ثم قال بثبات. «فلنرى ربما حصلنا على شيء مفيد». كان يتحدث بينما عقله فى مكان آخر.

أومأت زهرة برأسها وتركت الغرفة.

قرأ بعصبية تقارير البحوث التي أمامه مرة أخرى. كانوا مضيعة للوقت. تنهزم الناس أمام المرض دون بصيص من الأمل. ولكنه كان يعلم أنها ستأخذ منه وفريقه سنوات، إن لم يكن عقوداً، التأكد من أن طريق الخلايا الجذعية يمكن أن ينجح. عندها ربما تصير الفتاة التي يظن أنه انقذها، الفتاة التي اعتقدت أنها قد نالت فرصة جديدة في الحياة، في عداد الموتى ومنذ زمن طويل. رأى ملفها على الطاولة وقام بتصفحه. بيهو مالهوترا. تسعة عشر عاماً. طالبة في كلية طب، طفت العبارات في رأسه، رافضاً أن يهدأ عند زاوية غامضة. لماذا هذا الإصرار من جانبه على محاولة العلاج قبل الميعاد؟ هل هو اليأس؟ هل هو شعور بالذنب من أن شخصا آمن أنه عولج؟ لا يعرف. غادر مكتبه ممسكا بملفها وتوجه إلى الطابق الثالث. في المصعد، قرأ ملفها مرتين، مقلبا الأوراق بعصبية، متسائلا عما إذا كانت قد خسرت المواجهة مع المرض. وتساءل عما إذا كان شأنها شأن العديد من المرضى الذين شاهدهم يحتضرون. أثقل المرض بسُلطة عليها.

«لقد تم تشخصي منذ ثلاث سنوات»

«بدأت ألاحظ الأعراض أثناء قيادة السيارة».

«هل هناك علاج؟»

هذه كانت الردود الاولى التي سمعها من مرضاه الذين انهزموا أمام المرض قبل أن يقضي عليهم. لكن من المعلومات القليلة التي يعرفها عنها، فإنها كانت مختلفة.

دخل الغرفة وشاهد دوشيانت مستلقياً في فراشه، انقلبت عيناه، وهو نائم تحت تأثير المسكنات القوية. فكر. «يا له من هم». على الجانب الاخر من الستارة، رأى بيهو تقرأ كتابا. وأمها أيضاً كانت تقرأ كتابا.

قال مبتسما. «مرحبا، ها قد عدت». يعرف بالضبط متى يستخدم سحره. أثناء دراسته في كلية الطب، كان نجماً. ومع نشأته محاطا بالكتب الطبية وأهل المجال، الذين ينتظرون منه التفوق في كلية الطب كما يتوقعون من السمكة أن تجيد السباحة. مع امتلاكه الكثير من الوقت ووفرة في المال من مستشفيات والده، كان هو الشخص المثالي للصحبة والمواعدة. وقد أقرّت الفتيات اللاتي قمن بمواعدته أن سحره لا يكمن في ثروته أو عقله الكبير. إنما في ابتسامته اللطيفة وسلوكه المثالي. وحتى وهو طالب جامعي كان شديد الأناقة. مميزاً بردائه الأبيض الأملس، سرواله الجينز ذا اللون الأزرق الداكن وحذائه الرياضي الأبيض، يمكن تمييزه بسهولة من وسط الحشد. وحتى يومنا هذا، بقي متمسكاً بقواعد ارتداء الملابس مثل القس ـ قميص أبيض على سروال من الجينز الأزرق. من الصعب أن تضبطه مرتديا أي شيء آخر.

قالت بيهو. «مرحبا دكتور، أرى أنك لا ترتدي معطفك».

أجاب وهو يجلس إلى جوارها. «أنا خارج مواعيد العمل الرسمية. هذا هو وقت فراغي».

ضحكت بيهو وقالت. «أنا مسرورة أنك تفكر بي في وقت فراغك». كان متأكداً أنها غمزت بعينها. ولكنها ليست غمزة شخص ناضج ولكن كما يفعلها طفل صغير ـ بإغلاق كلتا العينين والابتسام ـ على أمل أن تتحكم بإغلاق عين واحدة فقط. قال. «هل تغازلينني آنسة بيهو؟»

قالت. «أنا فقط أقضي معظم وقتي هنا». تحولت وجنتيها للون الوردي

الداكن، امتلأت عينيها بالحياة، وكشفت عن أسنانها الاثنتين والثلاثين المتلألئة. لم يعد ينظر إليها على أنها الجسد المريض الذي رآه فى المرة الأخيرة. كتجسيد مرأي ومادي للكلمات الواردة في ملفها. نظر إلى عينيها ليبحث عن أية عيوب، بحث في جلدها عن جروح، وفي جسدها عن عيوب. هذه المرة، رأى شخصاً مفعما بحيوية طفولية. يبشر هذا الوجه اللطيف ذا الوجنتين العاليتين في المستقبل بامرأة جميلة، العينين المثاليتين، الشعر القصير الذي غطى نصف وجهها، الابتسامة التي لم تفارقها أبدا.

قال. «أنا سعيد لسماع ذلك منك. يفقد المرضى في كثير من الأحيان الأمل قبل الميعاد». ثم غرق في صمته. ولولا أنه شعر بعيون بيهو المليئة بالأمل ترقبه، لكان قيامه بهذا العمل أكثر راحة.

سألت. «هل هناك ثمة شيء تريد قوله؟»

أجاب وتوقف برهة. «نعم. هناك ما أريد قوله».سألها. «هل تدركين تطور حالتك؟»

أجابت ببشاشة. «نعم يا دكتور». قالت. «لقد كنت في عداد الموتى عندما أنقذتني». لماذا كان عليها قول هذا؟

«أنا لم أنقذك. تم تسجيل العديد من حالات الانتكاس اليوم. وما هي إلا مسألة وقت حتى تبدأ ظهور الأعراض ذاتها علىك أيضاً. ظننت أنه عليّ أن أخبرك. لكن أمامي الكثير كي أقوم به».

«ما فعلته لأجلي أكثر من كاف يا دكتور. في تلك الأيام عندما كنت أحتضر، وكنت أبقى دون نوم طوال الليل معتقداً أني سأختنق، ولن أتمكن حتى من طلب المساعدة. كنت حبيسة الفراش لأشهر. لم يكن بمقدوري الأكل، الكلام، حتى القيام بأبسط شيء من دون أن يساعدني أحد... كنت جثة

هامدة. منحتني بضع أيام اضافية أعيشها. لا أعتقد ستعرف أبدا ماذا يعني ذلك بالنسبة لي. لن أستطيع أن أوفيك حقك من الشكر على ما بذلته لأجلي. لم تكن مجبراً على إنقاذي. وفي الحقيقة، كان يمكن أن تفقد رخصتك إذا اكتُشف الأمر. ولازال هناك احتمال أن تتعرض للسجن. لا أعتقد أن هناك أي شيء آخر كان بإمكانك أن تفعله».

قال وهو يحاول استيعاب ما قيل بشأنه منذ قليل. «إنه للطف منك أن يكون هذا رأيك. فخلف هذا المرح والبشاشة هناك فتاة ناضجة، قادرة على محاربة المرض بكل ما تملك». وفجأة، اختفت الرغبة لديه في الحديث عن مرضها من الآن فصاعدا. ليس على استعداد أن يكون سبباً في اختفاء ذلك البريق الذي يشع من عينيها.

«إذا، كيف كانت الجامعة؟ هل أعجبك التواجد هناك؟ لماذا لا تحكي لي عنه؟» ابتسمت ابتسامة عريضة. ثم انطلقت تحكي. أخبرته عن كل شيء، هيامها بالطب منذ كانت في الصف الثامن وحينها قررت أن تصبح طبيبة. أصغى إليها بصبر. لم يعلق في رأسه الكثير مما حكته. تاه في حماستها وضحكها الصاخب، وعجز عن متابعة الحديث. لكن لكي يثبت تواجده في الحوار، بدأ يسألها بعض الأسئلة الخادعة عن الطب. وبعد أن أجابت على عشرين منهم بشكل صحيح، قالت بانفعال. «الجميع يعرف هذه الإجابات». فكر ونظر إليها بإعجاب. «لم أعرف الإجابة على بعضها». إنها ذكية. ذكرته بنفسه في شبابه، حيث كان مكروها لأنه ذكي.

سألت. «كيف كانت بالنسبة لك؟»

رد. «ماهي؟»

«كليتك؟ ذهبت إلى لندن، أليس كذلك؟» ثم قالت. «قرأت عنك كل شيء».

أجاب. «نعم. ثم ذهبت إلى كلية الطب في نيويورك. عملت هناك لبضع سنوات ثم عدت».

«يا إلهي. كم عمرك؟» سألت مع ابتسامة خبيثة.

سألها مجارياً إياها. «كم أبلغ من العمر كما يبدو؟»

قالت بعفوية. «تدل سيرتك التعليمية أنك في الثالثة والثلاثين، ولكنك لا تبدو أكبر من الخمسة والعشرين!»

ضحك محاولاً إخفاء سعادته من سماع ذلك. ولم تكن هذه أول مرة على أية حال. وقد واجه متاعبا في الماضي لجعل الناس تأخذه على محمل الجد بسبب مظهره الطفولي. ومن حسن الحظ، أن العمر بدأ يظهر عليه.

«إذن؟» سألت مجدداً. «كم عمرك؟»

قال مبتسما. «أكبر قليلا من خمسة وعشرين، ولكني صغير بما يكفي لمواعدتك». رأى الخجل يكسو وجهها، بينما انطلقت ضحكاتها.

«فلنخرج للتنزه سويا إذن، عليك أن تحمل المحاليل والحقن لأجلي. أنا على يقين أن هذا سيكون أكثر إثارة من حمل الحقائب. ولا أظن أني سأستغرق وقتا طويلا في الاستعداد. بدأت أحب هذا المعطف».

أوما برأسه، محاولاً أن يتجاهل نبرة اليأس في صوتها. قال. «هناك شيء أردت التحدث عنه. اتصلت بجامعتك».

قالت. «حقا فعلت؟ لماذا؟».

قال. «كنت أريد أن أعرف المزيد عنك. قالوا لي أنك أحد الطلاب النابغين. الجراحة، هذا هو التخصص الذي أردتيه، صحيح؟».

قالت ضاحكة. «نعم، لطالما أردت. لا يمكنك تخيل كم الجزر الذي أكلته لأنهم قالوا لي أني بحاجة إلى مستوى بصر **6/6** حتى أصبح جراحة. كانت أمي دائما تقول الجزر مفيد للعيون!» ضحك معها. كانت فتاة مسلية بشكل عجيب.

«كنت لتصبحي جراحة مرحة». ردت وهي تشير إلى يديها. «ليس بهاتين اليدين».

تمتم. «يمكننا أن نجعلكي على ما يرام».

«هل تستطيع؟ كنت لأكره أن أجري جراحة على شخص وأنا في هذه الحالة».

«لسنا على يقين بعد».

قالت. «أعلم ما تقول. أبحاث الخلايا الجذعية، أليس كذلك؟ ولكن ذلك لم تتم الموافقة عليه بعد ذلك، صحيح؟ هل خضع أحد للتجربة من قبل؟».

قال. «سيستغرق الأمر عشرين عاما للتأكد من نجاح العلاج». كان مندهشا من قدرة تلك الفتاة على ذاكرتها الحديدية. فقد نشر موقع الابحاث على الانترنت مقالات قليلة عن أبحاث الخلايا الجذعية، وكيف ينبغي ألا تجرب إلا على المرضى في المراحل الأخيرة بسبب المخاطر التي تنطوي عليها. لم يقتنع بهذا أبدا وبدا له الأمر سخيفا.

«إذا؟».

قال وهو يحاول ضبط كلماته. «يمكننا أن نجربه عليك». لم يكن لديه رغبة أن يسبب لبيهو الذعر لأن هذه المقالات ذكرت أن حالات الوفاة التي نجمت عن هذه التجارب كانت كبيرة العدد على نحو لا يشجع تجربتها على أشخاص يبدون في حالة صحية جيدة نسبيا.

قالت. «**ألست أنت أفضل طبيب شاب في البلاد؟ كما أنك متميز في ميدان الطب؟**»

سببت كلماتها ازعاجا له، فلديه بعض الفخر وبعض السعادة.

لم يكترث أبدا بالمؤتمرات العلمية الِتي اعتاد أن يحصل على تمجيد الزملاء فيها بفضل نجاحاته. بأي شكل. لكن كان لكلماتها وقعاً مغايراً عليه.

قال. «هذا ما يقوله بعض الناس».

قالت. «ألا ترى أنك تخاطر برخصتك الطبية، وربما تجد نفسك في السجن إذا اكتشف أحدهم الأمر؟»

أجاب. «ربما».

قالت. «إذن أنت إما مجنون أو واثق تماما من أن هذا سينجح». ولاحظ التجاعيد التي على جبينها. تمنى أن يخبرها أنه لا هذا ولا ذاك. ببساطة، هذا هو السبيل الوحيد لإنقاذها من الموت.

«مزيج من الأمرين».

قالت وابتسمت. «الأمر يعود لك إذن». ثقتها المطلقة تسببت بانعدام اتزانه. كان يعرف أن فشل العلاج لن يكون من شأنه سوى التعجيل بمزيد من التدهور في صحتها ودفعها نحو الموت بسرعة أكبر، إن لم يكن على الفور.

قال دون ثقة. «سأفكر في الأمر». نهض من جلسته على السرير.

قالت. «حسنا. إذا لم ينجح الأمر...»

«دعينا لا نتحدث في الأمر».

سألت. «مثل كلمات هذه الأغنية، ما لا يقتلك؟ ما لا يقتلك يجعلك أقوى؟» أومأ موافقاً. صافحها وقال. «لا زلنا نتطلع إلى موعد. على الرغم من أني ربما أعاني من مشكلة في اختيار ما سوف أرتديه. أفكر في أن أكون حليق الرأس أرتدي معطفا أزرق اللون. أو... لا أعرف. هناك صعوبة في تقرير المناسب».

ضحكوا بشدة حتى آلمتهم معداتهم وراح دوشيانت في النوم.

قال بينما يتوجه نحو الباب. «سأعود في الحال».

نادت. «دكتور؟».

قال. «نعم؟».

سألت. «هل حقا اتصلت بالكلية؟»

«لا لم أفعل. ولكن لا يوجد شخص على وشك الموت سيقرأ كل الكتب المصطفة على الطاولة بجوارك».

قال. «أربعة من الخمسة عشر كتاب عن الجراحة».

قالت ثم غمزت يعينيها. «أنت ذكي. ولطيف أيضاً!»

أجاب. «هذا ما يقوله لي الناس. أنا لست في الخامسة والثلاثين. أنا أصغر سنا... أصغر بكثير». وغادر الغرفة.

وكانت خطواته غير منتظمة أثناء عودته إلى مكتبه. وأحس إحساسا غريباً في رأسه لأول مرة منذ أعوام، لم يرغب في أن يتبع حدسه. وفي حالات أخرى، كان ليستهل العلاج فوراً، واضعا كل شيء في نصابه. أنه لم يفكر أبدا مرتين قبل أن يُعرض حياة المريض للخطر لأجل ما يؤمن به. كان يعلم أنه ينقذهم فى نهاية المطاف. ولكن هذه المرة لم يكن واثقا. الابتسامة، وغمزتها الطفولية بكلتا عينيها. والميعاد الموعود، كلها باتت تطارده، توخزه في قلبه ورأسه كالدبابيس، مزيج غريب من الألم والمتعة تماما مثل الوخز بالإبر، عبر اليوم، حيث يعمل بصورة آلية مع المرضى والتقارير.

وقال لنفسه. «إنها مجرد طفلة».

10 ـ زهرة ميرزا

استيقظت زهرة صباح ذلك اليوم مع آلام شديدة في الظهر، وصداع مخيف. إذا كانت الدراسة في كلية الطب قاسية، فالعمل في المستشفى كان كابوساً. بينما عملها على مدار 24 ساعة، صار كل أصدقائها الآن مهندسين ومديري مشروعات بوظائف تنتهي فى السادسة مساء، الأمر الذي يتيح لهم الوقت الكافي للشرب، واللهو، والمبيت في منازل بعضهم البعض. ومع ذلك، تقول أن عملها يرضيها. أحيانا، أو غالباً ما كانت تتولى فقط أمر الأدوية. أما أن تكون طبيبا فهذا أمر عسير، فإنقاذ الارواح كان لعبة مختلفة. بينما هي في كلية الطب طالما قالت أنها تريد الانسحاب والالتحاق بجراحة التجميل أو طب الأسنان. أو أي شيء آخر لا تكون فيه حياة أي شخص بين يديها. ما من إجازات أو هامش للخطأ في مهنتها. فقد صارت أيام مرض الناس هي أيام عملها، شعرت بالذنب للتفكير على هذا النحو. إنها لم تصبح طبيبة لجعل الناس جميلة ولكن للتخفيف من ألمهم ومعاناتهم. ولكن سببت لنفسها ضرر كبير جراء هذه المسؤولية.

ابتلعت قرصين من الاسبرين من زجاجة تنفذ سريعا بجوارها. صارت المشروبات الكحولية رفيقا دائما خلال السنوات القليلة الماضية. وبمرور الوقت، لم تعد الحبوب المنومة مؤثرة، كما امتنع الأطباء عن وصفها لها، واصفين إياها بأنها إدمان متداعي. مهما كان الأمر، لم تقم أبدا بزيارة طبيب نفسي لحل مشكلتها. أصبحت كراهيتها للرجال تتفاقم بمرور الأعوام، فهي

تستطيع أن ترى الغريزة الحيوانية الكامنة في عيونهم كل يوم. وشوعورها بالارتياح في صحبة دوشيانت المصاب بمرض في الكبد كان أمراً غريباً. كانت عيناه باردتين ولم تشعر أنه كمن يحاول أن يعريها في ذهنه. وكان أحد الرجال الذين لم تشعر بأنها تتعرض لتهديد من جهته. ربما لأنه كان ضعيفا وعلى وشك الموت.

ألقت نظرة على هاتفها الخلوي. لم يكن هناك مكالمات لم يتم الرد عليها أو رسائل. شعرت بالارتياح. بعد الاستلقاء على سريرها لمدة ساعة، دخلت الحمام وشعرت بتدفق الماء الساخن على جلدها. إنه شعور جيد. تشعر بالاسترخاء كلما فكرت في الأشياء الجيدة في الحياة. علمتها سنوات من العلاج الذاتي كيفية التعامل مع الضغط والألم. تعلقت قطرات الماء فوق جلدها أثناء خروجها من تحت الماء. انزلقت قطرات الماء على أرجلها الممشوقة لتبلل أرضية المطبخ. بينما هي ملفوفة في منشفتها، أعدت لنفسها الإفطار ـ البيض المخفوق مع التوست بالزبدة. فالحياة بمفردها لها فوائدها. بالرغم من أنها افتقدت أمها كثيرا، إلا أنها لا تريد قضاء الكثير من الوقت في المنزل. فقد تقاعد الأب لتوه من الجيش وشعرت أنه من الافضل لو أنها بقيت بعيدة عنه. فالابتعاد عنه يعني الابتعاد عن ذكريات مرعبة. الابتعاد عن الليلة التي انتزعت منها براءتها بفعل يدان مجعدتان على جسدها النحيل. قادت السيارة الهيونداي الحمراء، وتركت نوافذها مفتوحة. انتقلت لها ملكية السيارة من أمها عندما نالت الدكتوراه. انطلق الراديو بصوت أغاني سيناترا القديمة. عندما كانت طفلة، عانى الناس في شرح أن الممثل ليس هو الذي يغني. قالت. «مرحبا». وابتسمت لموظف الاستقبال ومررت بطاقتها الالكترونية في الجهاز. كان شعرها البني الداكن منطلقا. فقد غسلته بالشامبو صباحا وتركته يجف أثناء القيادة إلى المستشفى. الآن، هو طليق في كل مكان، لكنها سيطرت عليه فربطته على شكل كعكة.

أعـدت القهوة في الماكينة، رتبت ملفات المرضى التي عليها أن تتابعهم هذا الصباح، ولم تكد تلتقط أنفاسها حتى رن جرس الهاتف.

قال المتحدث على الجانب الاخر. «مرحبا؟ هل أتحدث للدكتورة زهرة ميرزا؟ هناك حالة طارئة. المريض في الغرفة **502** مفقود».

وفي الوقت ذاته، إعلانات في المذياع الداخلي تعلن عن المريض المفقود. على وجه السرعة، هرولت زهرة إلى غرفة دوشيانت لتجد السرير فارغاً. من الواضح أن بيهو هي الأخرى مفقودة! فكرت. ربما تجري بعض الفحوصات. هرعت إلى الخارج وركضت بعشوائية في طرقات المستشفى. تفقدت السلالم والمصاعد وغرف الانتظار. لم تجده في أي مكان. المشرحة، الصيدلية، العيادة. اختفى. غلبها شعور الإجهاد، فاتجهت إلى مكتب الاستقبال من جديد لتسأل عما إذا تم العثور على أي شخص. هزت موظفة الاستقبال رأسها بالنفي. مرت نصف ساعة، دون أي أثر له في أي مكان، حيرها قلقها عليه.

تركت البهو ورأسها منكسة، ذهبت لاستنشاق بعض الهواء. اتجهت صوب موقف السيارات متسائلة أين يمكن أن يكون دوشيانت. سيطر عليها شعور أنها لن تراه ثانية، وامتلأت روحها بأحاسيس غريبة ومزعجة. ربما من الطبيعي أن تشعر بالراحة لاختفاء رجل آخر من حياتها، ليخفف نسبيا من وطأة كرهها للرجال، لكن هذا لم يكن الحال.

بينما هي بالخارج فقط لبضع دقائق، رأته على مقعد اسمنتي. في حين لا يزال مرتدياً معطف المستشفى، كان ينفخ دوائر من الدخان مبتسما لها وهي واقفة بعيداً عنه. أسرعت زهرة نحوه، قبل أن تصل إليه ببضع خطوات، أبطأت سيرها. استيقظ الحارس بداخلها مرة أخرى، بحثت عيناها عن أقرب مهرب لها في حال حاول دوشيانت الاعتداء عليها.

سألت. «ماذا تفعل هنا؟» وقد انقطعت أنفاسها، بينما يديها على ركبتيها.

قال. «ظننت أن بإمكاني أن أسمح لنفسي بتدخين سيجارة. فهذا شيء جيد لتخفيف الألم».

«مهلاً، هل هذه مارجوانا؟ كيف أحضرتها إلى هنا؟» تباطأت ضربات قلبها، وتلاشى إحساسها بالخوف. اربكتها عيناه الدافئتان، بل إنها اقتربت أكثر.

أجاب. «أحضرها صديق لي». ثم سحب نفساً عميقاً. لمعت عيناه. إنه في حالة نشوة.

«ألا تريد أن تتحسن؟».

قال شاكيا وهو يواصل التدخين. «أريد بالطبع، لكنكم يا رفاق لا تحرزون أي تقدم. أعضاء جسدي تتصرف بغرابة. وجسدي في حالة يرثى لها، أتألم على نحو متواصل. منذ يومين كنت بخير، الآن أنا في حال سيء».

شرحت له زهرة. «ستكون بخير. بداخلك خليط من ملاين العقاقير والأدوية التي تناولتها عبر سنوات، وسيستغرق الأمر وقتا حتى يمكننا اكتشاف ماذا أصابك. هلا عدنا إلى الداخل إذا سمحت؟ علينا إجراء بعض...»

«فحوصات من جديد؟». قاطعها.

قالت. «نعم، علينا أن نجري لك فحوصا للأورام». شعرت بحزن تجاهه. أول رجل لا تتخيله ميتا، ولا تريده أن يموت.

قال. «هل ينقصني شيء؟».

«نشك أن المنشطات التي تناولتها ربما سببت لك أوراما في الكلى والكبد. أظهرت الدراسات أنها أعراض جانبية متأخرة. نعتقد أن الإفراط في الشرب قد زاد الأمر سوءا، وهذا هو السبب في تدهور حالتك».

قال وابتسم لحلقة الدخان التي نفخها لتوه. «لم أخبره أني تناولت المنشطات». احترقت اللفافة المشتعلة حتى نهايتها، ألقاها على الارض.

«كان على علم بهذا».

«كان على علم؟ كيف؟».

«نظر إليك واستطاع أن يعرف أنك كنت رجلا رياضيا، أو شخص يتدرب في صالة رياضية لفترة من حياتك. استنتج هذا نظرا لأنك شخص تتسم بالتهور، اللامسئولية، وفقدان الصبر، لذا ستتناول المنشطات حتى ينمو جسدك بمعدل أسرع».

تمتم. «يا له من وغد».

رسمت زهرة ابتسامة بسيطة على وجهها. «هل هو على خطأ؟».

هز رأسه وأشعل سيجارة أخرى. فخطفتها زهرة منه وألقتها بعيدا.

قالت. «كفى».

قال متذمراً بينما ينهض من مكانه. «ربما كان مخطئا». سارا نحو مدخل المستشفى.

«لقد أكد ذلك. لقد تكلم مع كاجال».

رأت الدم يهرب من وجهه. انسحب ما تبقى من دم في جسده. نظر إليها مصدوماً، منتهكاً. «لماذا؟ هذا اللعين!»

أجابت. «حصلنا على تاريخك الطبي، لم تخبرنا بدورك أي شيء عن المنشطات. لو أخبرتنا، لما كان مضطرا للجوء إليها».

بدا الضيق واضحا عليه. أرادت زهرة أن تسأله عن كاجال ولكنها لم ترد أن تقترب من هذه المساحة. دخلا المصعد ومشيا نحو الغرفه في هدوء. لامست

يديه يديها عدة مرات، ولكنها لم تصب بالذعر. لم تتصبب عرقا. لم تصب بالهلع. ما من صور مخيفة في مخيلتها.

قالت. «في المرة المقبلة التي تريد فيها أن تدخن، اتصل بي. لا تقم بمثيل هذا التصرف المحبط مجددا». أجاب. «سأحاول» ثم صعد إلى سريره. «لكن التدخين مفيد لي، فهو يخفف الألم، أشعر أني بحال أفضل الآن».

«هل من الممكن أن أطلب منك شيئا؟».

«بالتأكيد فأنت طبيبتي، وهذا عملك. أعجب من طبيب يعرف ما هو عمله؟».

«لماذا لم تخبر والديك بهذا؟».

«ما من حاجة لأن يعرفوا».

ثم شرحت. «لا أعتقد. في أي ظروف طارئه ـ وما بالك بعميلة زراعة كبد ـ يجب أن يكونا أول من يعلم، إننا في حاجة للبحث عن متبرع متوافق».

لم تكن زهرة كاذبة بارعة. على مر السنين، انسجمت مع أي شخص كانت علاقته مع والديه متوترة. منذ أن عرفت ان دوشيانت يخفي مرضه عن والديه، أحست بتواصل من نوع خاص معه. شخصان منكسران يصنعان علاقة صداقة متكاملة. على الرغم من أنها لم تكن أبدا صديقة لأي رجل. قال لها. «من المحتمل أنك لن تفهمي ما تعرضت له».

قالت. «سأفعل، جربني!».

«أنا متعب. هل يمكنني النوم الآن؟ بدأت أشعر بالألم مجدداً، إلا إذا كنت تريديني أن أهرب للتدخين مجدداً».

قالت. «سأضع لك بعض المسكنات». ثم وضعت الجرعة في الأنبوب.

قال. «ربما يمكننا الكلام عن هذا الموضوع لاحقا في المساء».

قالت. «بالتأكيد».

سأل. «هل أنا أحتضر؟».

قالت زهرة. «من المبكر الحكم على حالتك». ولم تحاول أن تعطيه أملاً كاذباً.

أغلق عينيه. انتظرته زهرة حتى يغرق في النوم، ثم غادرت الغرفه. نتحدث عن الأمر لاحقا؟ لماذا عليها أن تتحدث إلى رجل؟ رجال كريهه دنيئه تريد أن تنهش جسدها و...

كانت زهرة في الرابعة عشر من عمرها. عام **1999**.

لم تكن تشعر بالارتياح أبدا خلال الحفلات التي أقامها رؤساء أبوها في المنازل الريفية الضخمة التي يمتلكونها، التي حصلوا عليها من الأموال التي ربحوها في صفقات السلاح. كانت أمها سكيرة تلعب البوكر مع صديقاتها ووالدها كالعادة يحتسي الخمر ويناقش أمر الشيكات التافهة، يسبّ الحكومة على رقتها في التعامل مع الثوار. أما باقي الأطفال الأغنياء، كانوا أكبر منها بكثير، إلا أنهم كانوا يجربون تناول الفودكا والروم وأي شيء آخر يمكنهم الحصول عليه. أما الأطفال الأكبر سناً، كانوا يمارسون الحب في الغابة. شعرت بملل. تملكها إحساس غريب بعد هذا العدد من جالونات الكحول التي شربتها بدافع من الملل. لا يمكنها أن تتحمل المزيد. في مؤخرة البيت الريفي، هناك حمامات للضيوف، توجهت نحوها. هناك العديد من رجال الأعمال والزوار المخمورين في جميع أنحاء المنزل. على بعد ياردات من الحمام، شعرت بيد خشنة قوية على فمها والأخرى حول خصرها. رأت رجلين على وجههما تعبيرات شيطانية.

بالكاد تتذكر ما حدث بعدها. على مر الأعوام، حاولت ببطئ أن تمحو

هذه الذكرى من رأسها، وقد نجحت إلى حد بعيد. بدا اغتصابها في تلك الليلة المشؤومة كأنه من وحي خيالها. شيء حدث في عالم آخر مواز لعالمنا. رغم أن، وحتى يومنا، لازالت تستيقظ في منتصف الليل تتصبب عرقاً بينما يحملق بها هؤلاء الرجال المسنون ـ في سن والدها ـ يحملقون فيها، بين ساقيها، ينهشون جسدها العاري، يتأوهون كلما سببوا لها ألما. تبادلوا الأدوار على مدار نصف ساعة. لازلت تذكر الألم، لازلت تذكر كلمات السباب من أحدهما للآخر، يشجع كل منهما الآخر على اغتصابها بقوة أكبر. لازالت تذكر رقادها غارقة في عرقها، بولها، دمها، تصرخ وتتوسل وتنتظر المساعدة.

كانت صرخاتها ضعيفة خافتة. لم يأت أحد. تذكرت كيف استجمعت قواها، فنظرت إلى نفسها في المرآة وشعرت أنها محطمة من الداخل. تساءلت عما إذا فعلت شيئاً لتستحق عليه هذا. وعلاوة على ذلك، تذكرت كيف هدداها بقتل عائلتها إذا أخبرت أحداً بما حدث. إنها تعيش في خوف منذئذ. ظلت صامتة لمدة تزيد عن العام. ولكن ذات يوم حاولت أن تخبر والدها عن الأمر. قام بصفعها على وجهها عندما أخبرته فقط أن أحد أصدقائه حاول أن يعاملها بفظاظة. رفض أن يصدقها قائلاً لها أنها تتوهم. حتى والدها ينكر حقها في الانتقام من الأشخاص المسؤولين عن تدميرها.

قال لها. «أنه رجل محترم، رئيسه في العمل. إياكي أن تقولي هذا مرة أخرى!». ثم انصرف.

ظلت زهرة مكتئبة لشهور. ظنت أمها أن البلوغ هو السبب فتجاهلتها. كانت تستحم خمسة مرات في اليوم، تأكل الصابون لعله يطهرها من الداخل، تم عرضها على العديد من الأطباء لعلاجها من اضطراب الوسواس القهري. عالجت نفسها على مهل. مسحت كل ذكرياتها واستبدلتها بذكريات جديدة.

في بعض الأحيان كانت تشعر برغبة في الانتقام. تعقبت الرجلين بعد الحادثة بسنتين. مات أحدهما بعد الحادثة بعام. بثلاث طلقات في صدره في هجوم على سفارة أجنبية بدلهي. وحيث أنه بطل ورجل أعمال مشهور، تم بث مراسم جنازته على التليفزيون. ضحكت ضحكة شيطانية، تشبه ضحكة هذين الرجلين في تلك الليلة. راقب أبوها المشهد في هدوء. الرجل الآخر دخل في غيبوبة نتيجة انزلاقه على أرضية الحمام بعد خمس سنوات من الحادثة معانيا من ارتجاج في المخ. تحسن مع الوقت لكنه ظل حبيس الفراش مدى الحياة. رؤيته دون حول ولا قوة في سرير المستشفى جعلها تشعر بتحسن. عندما سألت ابنة الرجل زهرة عن كيفية وصولها لمكان الرجل، قالت زهرة. «لم أنساه قط. إنه وحش». أشبع الرعب الذي بدا في عيني ابنته رغبة زهرة في الانتقام.

ضحكت عندما رأت ابنته تواجهه بما قالته زهرة لتوها.

تخطت الأمر الآن. قضى اغتصابها على براءتها، ولكنه خطف منها عائلتها أيضاً بعيداً عنها. منذ ذلك اليوم، لم تتلاقى عينها مع عين أبيها قط.

بينما هي جالسة في مكتبها تلك الليلة، تستكمل كافة الأعمال الورقية لذلك اليوم، تساءلت عن قصة دوشيانت. زارته مرة أخرى في الظهيرة، وحددت له ميعاد لفحص شامل لجسده بالأشعة. أثناء هذه الفحوص، لم يتبادلا الحديث. تواجد عدد من الأطباء لمتابعة الحالة، ولكن لم يكن لدى زهرة رغبة أن تبدو كطبيبة وطدت صداقتها بمريض.

في وقت متأخر من الليل، توجهت إلى الغرفة رقم **502**.

11 ـ بيهو مالهوترا

كان يوماً مرهقاً، تم إجراء الاشعة بالرنين المغناطيسي، وأخذ العينات والعديد من التحاليل الاخرى لمتابعة المريض، أشرف على كل عينة دم، عينات النسيج وكل موجة اخترقت جسدها. كان أمراً يبعث على الطمأنينة بالنسبة لها. كانت كثرة التحاليل والالم والشد العصبي المستمر مخيفاً بالنسبة لها. في منتصف تحليلها الثالث طلبت من والديها المغادرة. هي تعلم أنها في أضعف حالتها وهم بجوارها، سألت بيهو مجدداً. «هل مازلت تذكر موضوع الخلايا الجذعية؟».

أجاب. «أجل. إذا اتخذوا هذا الطريق ستكون مدة العلاج طويلة، ستحتاجين منها ابتلاع خمسين كبسولة حتى ميعاد العملية الجراحية».

«هل هذه التحاليل رسمية أم غير رسمية؟».

«لا تقلقي، ستتحمل المستشفى جميع النفقات. فقد أدرجتك في التجارب الأولية وأخبرتهم أننا لن نجرب علاج الخلايا الجذعية عليك حتى نحصل على الموافقة لنفعل ذلك... وهذا لن يحدث».

قالت بابتسامة يملؤها الحزن. «حسنا».

قال وهو يحاول أن يركز على الشاشة. «لنأمل أن تسير الامور كما هو مخططٌ لها».

كانوا يتأكدون ما إذا كان المرض قد انتصر في معركتة ضد المضادات الحيوية.

شعرت أنه إما منزعج أو أنه لا يحب الحديث أثناء العمل. بدت التجاعيد على جبينه غاية في الإثارة. كما أنّ العروق النافرة الممتدة على يديه تنم على أنه كان يمارس الرياضة في صباه. تخيلته في ملعب لكرة القدم في يوم ممطر، قميصه الملتصق بجسده الممشوق، شعره المبتل، قدمه الملطخة بالطين. كما تخيلت أنها بصحبته في الملعب، وحيدة، وما لبثا أن تتحرجا في الوحل. أنا أفقد السيطرة...! توقفي! أفاقت من فيلم التسعينات الخيالي الذي كانت فيه. إنها مرة من عشرات المرات التي شعرت بنفسها قريبة جداً من هذا الطبيب.

سألت بلمعة في عينها التي تشبه عيون الغزال. «هل لديك حبيبة؟».

أجاب. «لا، ليس لدي حبيبة».

قالت. «لماذا؟ فأنت شخص ذكي وناجح». أضافت مبتسمة. «يجب أن يكون لديك واحدة». سحبت الممرضة عينة الدم منها وانتفضت. انتفض هو أيضاً.

قال. «ليس لدي وقت».

«آه، لقد نسيت! الدكتور الكبير أرمان كاشياب، من أين لك بوقت بينما أنت مشغول بكونك عبقريا».

ضحكت ونظر إليها بغضب مصطنع، قال. «هل تسخرين مني؟ لا أظن أن سبق لأحد وأخبرك، أنه بتوجب عليك فعل شيء أفضل من العراك مع طبيبك أو النادل. فهما قادران على التبول في طعامك أو قتلك». سرّ بيهو رؤيته يطلق النكات ويخفف عن نفسه. فغالباً، هو مشغول بعصر عضلات مخه بكل قوته ليعيد الناس للحياة مرة أخرى.

قالت. «ياله من أمر مقزز!».

قال. «حديثي على البول؟ نعم، أعلم هذا. ولهذا لا يجب أن تعبثي معي».

قالت. «ماذا ستفعل؟ ستقتلني بشكل أسرع؟».

تجهم وجهه. فرحت عندما علمت أن غيابها سيعني شيئا بالنسبة له. وعلى الفور وبخت نفسها لإفراطها في التفكير. فهو أكبر منها بعشر سنوات على الأقل، ولكنها أدركت أن هذا ما جعلها تعجب به أكثر. فهو ناجح ورجل راشد ويملك يدين خبيرتان، ولسان خبير أيضاً، مما يجعله ملهما لخيال أفضل من الصبية الصغار، غير الناضجين. فمن خلال ما قرأته في الكتب، فإن الرجال الأكبر لمساتهم مؤثرة، كيف يستخدمون لسانهم، أين يضع يده ويداعب... أفيقي!

سألت. «ظننت أنك اعتدت أن تحاط بالبشر الذين على وشك أن يغادروا الحياة. من المؤكد أنك ترى هذا كل يوم، أليس كذلك». كانت تحاول الخروج من عالمها الخيالي الذي تشكل من ملاعب الكرة الملطخة بالطين، أصوات المدفأة، محطات المترو المهجوره.

قال. «أظن ذلك أيضاً». وابتعد عنها، وبدأ يراجع الأرقام على الشاشة.

سألته بدافع الفضول. «هل بإمكانك اطلاعي على الأرقام وتلك الأشياء التي تراجعها؟» فقد مر أكثر من عام على التحاقها بكلية الطب، لكنها لا زالت على تعطشها.

على مدار الساعة التالية، ناقشا تحاليلها بالتفصيل الممل. سعدت عندما أخبرها أنها ذكية، بل وأكثر دراية من بعض خريجي كلية الطب. حتى أنه في لحظة ما وصفها بغريبة الأطوار، لديها ذاكرة استثنائية في الطب. تحولت وجنتا فتاة المدرسة للون الأحمر الداكن كأنه امتدح ابتسامتها.

قال. «أظن أن هذا يكفي اليوم. علينا الآن أن نسجل النتائج لنرى ماذا سيحدث».

قالت وابتسمت. «رائع!».

قال متحاشياً النظر إليها. «بالمناسبة، تحدثت مع بعض أصدقائي الأطباء بالولايات المتحدة ممن يجربون أيضاً نفس طريقة العلاج، كان يملؤهم الأمل من نجاحه. من يدري؟».

لم ينظر إليها وهو يقول هذا. إنما ضم راحتيه وفركهما، مثل طفل صغير يكذب على والديه.

قالت. «أشكرك».

قال. «لا داعي للشكر».

قالت متسائلة ما إذا كانت لا تزال محمرة الخدين. «أشكرك حقا. منذ وقت طويل، شعرت لأول مرة كأني عدت إلى قاعة الدرس مرة أخرى. هذا رائع».

انحنى نحوها وأمسك يدها. توقفت أنفاسها في حلقها. دفء يديه، النظرة في عينيه السوداء الرائعتين والتجاعيد التي على جبينه كانت كفيلة أن تجعل قلبها يتوقف. وللحظة، عادت إلى ملاعب الكرة الموحلة، أمام المدفأة في بيت كبير، وجزيرة مهجورة ليس بها سواهما.

طمأنها قائلا. «كل شيء سيكون على مايرام». لم تكن تصغي إلى كلماته. طافت الكلمات عبر أذنيها، وأعادتها برأس خال، وقلب متسارع الدقات. ردت. «أنا متأكدة من ذلك».

ضمها فذابت بين ذراعيه. همس. «ستكونين بخير». أبعد يديه عنها عندما رأى زهرة تدخل الغرفة. وقال. «سأراكي لاحقاً». ثم غادر الغرفة فجأة.

ابتسمت بيهو وهي تحملق في السقف. مازلت تشعر بيديه حولها. وأغلقت عينيها ببطء وتمنت لو يستطيع البقاء هنا للأبد. فأحلام اليقظة لم تكن لها حدود

في ذلك اليوم. فأمها كانت نائمة على فراش صغير ولم ترد بيهو أن توقظها، بينما أبوها كان بالمنزل. لم يعد فينوجوبال يتواصل معها، رجحت أنه مشغول بفحص الرئات المصابة بالسرطان، أو بعض الغدد النخامية الفاسدة. في الشهور القليلة الماضية، أمضى فينوجوبال وبيهو ساعات طويلة يتحدثان سويا عن الأعراض التي ظهرت عليها، عن مخاوفها، لطالما بدا لها أن الامور ستعود لطبيعتها ويصبحان معا من جديد. في آخر مقعد في غرفة الدرس، يدونون الملاحظات سوياً، مع بعض الوخزات المتبادلة إذا ما تناول المدرس الأعضاء التناسلية أو شيء من هذا القبيل.

كتبت له رسالة نصية.

«لقد ضمني الطبيب اليوم، أظن أني مغرمة به. ليس كحب المراهقين، أحبك لذا أنا بحاجة إليك، لكن، حب خالد، حقيقي، يحتضر».

فينوجوبال:

«لا بد وأنك تمزحين. لقد ظننت أني حبك الأبدي وأننا سنكون مثالا جيداً على تزاوج مثالي من العنصرين البشعين».

ضحكت وتذكرت المرات التي تشابكت أيديهم فيها، وقارنت بشرتها البيضاء الشاحبة للون بشرته المائل للسمرة.

ردت:

«آه! ستظل الأوحد دوما. ولكنه لطيف للغاية! أعني ليس تماماً. ولكنه جذاب. جذاب لدرجة لا تصدق. سأتردد كثيرا في فحصه حال إصابته بالفتاق».

فينوجوبال:

«لا شيء أفضل من رجل طويل القامة، وسيم، ذو بشرة سمراء. على العموم، فهمت. لا تكوني سخيفة. هل تناولتي مخدرا جعلك في حالة نشوة؟».

بيهو:

«لا! اتصل بي عندما تنتهي من أعمالك. أخبرني بكل شيء تفعله/ تقطعه/ تقرؤه/ تفسده! افتقدك كثيراً».

فينوجوبال:

«أنا أفتقدك أكثر!».

حيث أنه لا يوجد أحد تخبره كم كان يومها رائعاً، التفتت لدوشيانت الذي بدا غارقاً في قراءة كتاب. كان جزء منها مسروراً لرؤيته ممسكاً بكتاب. يمكنه القراءة؟ كان من الصعب تخيله يفعل أي شيء عدا تسكعه بزجاجة فارغة من الخمر في يده وسيجارة غير مكتملة بين شفتيه. لم تكن بعيدة عن الحقيقة.

سألته وهي تحاول أن تجعل الحديث مختصراً. «سمعت أنك اختفيت من المستشفى اليوم؟». ولكنها أرادت أن تخبره عن القشعريرة التي انتابتها، وأنها كانت تفقد الوعي عند ملامسة الطبيب لها.

رد. «هذا ليس من شأنك». ثم انقلب على جانبه الآخر.

قالت. «لماذا أنت منزعج مني لهذه الدرجة؟ على كل، أنا الشخص الوحيد الذي يتحدث إليك، أها! بعيداً عن الطبيبة الجذابة. بصفتي أملك خلفية طبية، أعلم أن ليس كل الأطباء عادةً بهذه الروعة». ثم ذكرت اسم الدكتورة على أمل أن يدخل في الحوار.

قال مستهجناً. «لا أرتاح لوجودك معي في الغرفة. والداك أرادوا لكي غرفة أخرى؟ لماذا لا تذهبين إلى غرفة مفردة؟ لماذا عليك البقاء هنا، والقضاء على ما تبقى من عقلي؟»

قالت. «هل لازلت غاضبا مما قالته أمي؟» استعادت الموقف الذي وصفته

أمها بأنه ابن فاسد، منحل. «أشعر بالأسف لذلك جدا. في بعض الأحيان، تعاني أمي من...»

قال. «لا لست غاضباً. لا أرى سببا وجيها لكلامنا».

قالت. «أنا آسفة لما قالت هل نستطيع... هل من الممكن؟».

قال. «لا عليك، هل أستطيع أن أعود إلى كتابي؟».

قالت بغضب. «أنا لا أعلم ما مشكلتك معي؟». لا ترى بيهو سبباً في أن يكون المرء وقحا مع أي شخص. فمفاهيم مثل الوقاحة، الغيرة، الكره تربكها. بالنسبة لها، البشر إما طيبون أو شريرون، لا ترى اللون الرمادي.

«أنت لا تروقين لي، هل تفهمين؟ أنا لا أحب أنك تبتسمين باستمرار بينما أشعر أن جسدي يحترق بالكامل، ويتحول إلى رماد. أنا مرعوب إلى حد الهوس، بينما أجد إلى الجهة المقابلة ابتسامة فتاة خالية من الهموم، مع أبويها يعانقوها ويقبلوها. وهذا شيء مزعج. لماذا لا تنتقلي إلى غرفة أخرى وتتركيني أعاني بسلام؟».

طمأنت دوشيانت الذي كان يرتجف وقالت. «لن تموت، تحدثت مع زهرة. وقالت لي أنك تعاني من بعض الأورام. وأكدت أنك ستكون بخير». هل كان يبكي؟

«لقد سعلت دماً، بل تبولت دماً اليوم. ليس لديهم أدنى فكرة عما أعاني منه. رجاء دعي الأطباء الحقيقيين يمارسون عملهم ولا تتدخلي». حديثه أنبّها.

قالت وهي تشعر بالذنب. «ستكون بخير. أعتذر لازعاجي لك بابتسامتي لهذا الحد». وكعادتها، فسرت سلوكه كنتيجة الخوف والإحباط.

قال بتذمر. «فقط أكملي علاجك وارحلي من هنا بحق الجحيم».

قالت. «حسنا، ثم سحبت الستائر التي تفصل بينهما».

وتمكنت من الجهة الأخرى أن تسمع دوشيانت يتصل بأحد الاشخاص من هاتفه ويدعوها برفيقة الغرفة المزعجة التي تدعى بيهو... عاهرة. اغرورقت عيناها بالدموع. كانت نبرة مؤلمة. أرادت أن تزيل الستائر وتصرخ في وجهه. لست أنت الشخص الذي أوشك أن يموت، بل أنا! وفجأة، توقفت. لم تعد مسرورة بأفكارها عن قصة الحب الخيالية. إنها ستموت قريباً. وهو سيعيش. ألمها يزداد. لقد تخطت الأمر مؤخراً ولم تملك الثقة الكافية بامتلاكها القوة لتفعلها من جديد. لقد كرهت جسدها وتمنت لو دمر نفسه من البداية. إنها تواجه الآن وقتاً عصيباً، وهو من ذكرها بهذا.

لم تستطع النوم. فحديثها مع دوشيانت تركها مشتتة. ذكرها بالأيام المتبقية من حياتها. التقطت كتابا ـ أحد الكتب الاكثر مبيعاً وكتابا إرشاديا للمرضى المصابين بـالتصلب الجانبي الضموري تم ترشيحه لها من قبل أول طبيب فحصها ـ الثلاثاء مع موري. كان كتاباً عن موري صاحب السبعين عاماً والمصاب بنفس مرضها. إنه عن دروس حياته التي شاركها مع طالب على مدار ثلاثين ثلاثاء. توفي في النهاية، ببطء وتألم، لكنه كان راضياً، منتشياً بنصره.

حاولت ألا تفكر في الأمر قبل نجاح الدواء التجريبي، ولكن من هنا بدأت في التفكير. عندما اضطرت أن تأكل بيد شخص آخر، ولسانها الذي صار عاجزا، وأنه قد يخنقها. حاولت أن تتحاشى التفكير في هذا، ولكن دوشيانت أعاد هذه الذكريات للفيضان في رأسها. تخيلت شخصا يشق حلقها لإدخال إنبوباً يساعدها على التنفس بصورة طبيعية. إنها تبكي وتبكي الآن.

عندئذ، سمعت صوت الباب يفتح. أخفت الستارة أغلب معالم الشخص الداخل لتوه، ولكنها استطاعت أن تتبين من خلال الظل أنها فتاة. علمت من

عدم ارتدائها لمعطف الطبيب أنها ليست زهرة. مدت رقبتها محاولة التعرف عليها ولكن فشلت.

سمعت دوشيانت يقول. «ماذا تفعلن هنا؟».

«أردت أن أطمئن عليك. كنت أعاني القلق». بدا صوت الفتاة مرتجفاً. كان صوتاً تملؤه الأنوثة. تماماً كـكريم الفراولة المخفوقة بالشكولاته. ناعم بشكل مدهش.

قال متذمراً. «لم يكن عليك المجيء، أنا لا أحتاجك، أنا بخير». لاحظت بيهو وقاحته ذاتها مجدداً.

قالت. «لا تقل هذا. لقد اتصلوا بي. أطباؤك... قالوا ربما تكون مصاباً بالأورام. شعرت بالرعب. ماذا يجري، يا دوشيانت؟». صوتها الشجي الذي يشبه صوت العندليب جعل بيهو تشعر بالنعاس. صوتها هو الحقيقة.

قال. «ولماذا يهمك الأمر؟».

«لأنه يهمني».

«أنت لست في حاجة لذلك. هل فارون على علم أنك هنا؟».

قالت. «لا».

«هل ستخبريه؟».

«لا يهم إذا فعلت أم لا. فأنا لا أظن أن عليه أن يعرف».

سألها. «أمازلتما معاً؟».

قالت. «نعم».

«حسنا». ثم توقف برهه. «ها قد رأيت بعينك أني على ما يرام، أظن أنه يجب أن ترحلي».

قالت. «لا يجب أن يكون الأمر على هذا النحو». مازال صوتها مصدوماً كما لو أنها خائفة من دوشيانت. أصغت بيهو باهتمام، بدا صوت دوشيانت نشازاً مقابل صوت الفتاة الذي يشبه صوت مغنية أوبرا.

«يجب أن يكون الأمر على هذا النحو».

«لماذا تعاملني على هذا النحو الفظ؟».

«أنا أتعامل بفظاظة؟ لقد تركتني ولم تكلميني لمدة سنتين، الآن ما إن دخلت هنا، حضرت لرؤيتي؟ لماذا؟ لتشعري بتحسن؟ لن أعطيك هذه المتعة. عانيت كثيرا كي أسامحك وأنساك. رجاء لا تدفعيني مجدداً نحو هذا الأمر. عودي إلى صديقك الذكي الثري الذي لطالما أحببته. أنا لم أعد مهتما بك لأمرك».

«ما كان يجب أن ينتهي الأمر بيننا بهذه الطريقة».

«أنتي من اختار هذا الطريق، لقد خرجتي من حياتي ومارستي الحب مع صديقك القديم!» ثم تابع غاضبا. «لم أكن أنا، أنت من ارتكبت خطأ».

«أنا لم... ولكن أنا آسفة. بعد ما جرى، لم يكن في مقدوري أن أبقى. أنت تعلم ماذا حدث بيننا...»

«لو أحببتني حقا، لكنت بقيت معي. ولم تهرعي إلى أحضانه. لقد توسلت إليك أن تعودي. كنت على وشك تدمير نفسي لأستعيدك. ما الذي لم أفعله لألفت انتباهك؟ مقابل القليل من الشفقة؟ لماذا لم تأتي عندما كنت أشرب حتى الموت؟ لماذا؟ ألم تفكري ولو للحظة ماذا سيكون هو شعوري؟».

قالت. «فكرت....»

صرخ بها. «اغربي عن وجهي أرجوكي، لا أريدك هنا. أنا أفضل الموت على التحدث إليك».

«ولكن...».

«فقط، انصرفي».

«دوشيانت....»

قال. «لآخر مرة انصرفي».

سمعت حفيف غطاء السرير، ورأت أقدام تغادر الغرفة. شعرت بالأسف على الفتاة ذات الصوت الآسر التي عاملها دوشيانت باحتقار. أمر مؤسف جدا لبيهو أنها لم تستطع أن ترى كاجال جيدا، أبعد من كعوبها الناعمة الجميلة. ولأول مرة تغير نظرتها إلى دوشيانت. فربما لم يكن المرض أو الورم السبب المباشر، ربما كان دوشيانت مريضا بصفة دائمة.

12 ـ دوشيانت روي

شدت الابر جلده وهو يتقلب ويحاول الحصول على قسط من الراحة. مدركاً أنه لن يرتاح هذه الليلة. تصاعد الألم ببطء حتى صار متواصلاً. أصبحت المسكنات أقل تأثيراً الآن وصار الألم جزءا منه. تقلب مراراً وهو يفكر بكاجال والمشادة التي حدثت منذ لحظات وتساءل لماذا أتت بعد كل هذه السنين. ألأنها مازالت تحبه؟ أما زالت تفكر به وهي مع فارون في الفراش؟ من المحتمل أنها شعرت بالذنب بسبب ما فعلته؟

الساعة تمام العاشرة. مازالت الستارة حائلاً بينهما. لطالما كانت الفتاة على السرير الآخر مصدراً للإزعاج. يقشعر جسده في كل مرة ينظر إليها. حتى على حافة الموت لم يكن في سلام مع نفسه. آخر ما يريده هو أن يحتفظ في ذهنه بصورة فتاة صغيرة ثرثارة تحملق في عينيه في لحظاته الأخيرة. وبدلا من ذلك، إنه في حاجة للتدخين. مازال لديه عشرون لفافة مخبأة في واحد من الكتب التي أحضرها له صديقه. دخن ثلاث منها، وضعها في معطفه. خلع الإبر من يده ببطء. خرج متسللاً، حتى لا يلفت الانتباه. ما إن خطى خمس خطوات فقط بعيدا عن الغرفة، حتى سمع شخص يناديه، التفت ليرى زهرة مستندة على الحائط مرفوعة الحاجبين، وابتسامة خبيثة تعلو وجهها.

«ستذهب لتدخن مجدداً؟» كان صوتها مزيجاً من الصرامة والمداعبة، أومأ برأسه. فسألته. «ألم أطلب منك ألا تختفي مرة أخرى؟»

أجاب. «هيا معي لدي ما يكفينا». عادة لا يحرك ساكنا، دوشيانت عادة عندما يتعرض لموقف محرج، تصبح عينيه مثل عينا كلب قضى حاجته في منتصف الطريق.

ابتسمت زهرة وأشارت له أن يتبعها. ذهبا إلى شرفة في الدور السادس نادرا ما تستخدم. عادة، يرغب المرضى في ترك المستشفى بأسرع وقت ممكن، ليس لديهم رغبة في التنزه والتدخين. دوشيانت كان مختلفا. غياب الهدف أو التوجه في حياته تسبب في هدوءه، ومنحه إحساس الانطلاق. سيطرت عليه حاجته للنشوة والغياب عن العالم.

أخذت زهرة لفافة من يده وأشعلتها. بينما يتهادى دخان السيجارة محلقا بهدوء من اللفافة المشتعلة، ليغطي وجهها على الفور، وقف دوشيانت يرقبها. تعلقت كلمات الفتاة المزعجة في الهواء على نحو غير مريح. الطبيبة الجذابة. تحمل في يدها سيجارة مشتعلة، جدائل شعرها تتدلى حول وجهها منطلقة بحرية، مالت بتهور نحو سور الشرفة. أحاطتها هالات الحرية من كل جانب. سألها. «لا ينبغي أن تدخني، أليس كذلك؟» لم تجب زهرة، وإنما نظرت إلى المدينة وأضوائها النيون المتلألئة، بدت عيناها زجاجية من أثر المخدر. أغلقت عينيها، فكت كعكة شعرها، لتدع النسيم يداعب خصلاته. أخذت نفساً عميقاً من السيجارة، ثم تركت الدخان يطير متعرجا من بين شفتيها.قال. «إنها مدخنة. إن تدخين لفافة قوية مثل التي تدخنها كفيلة بأن تجعل المدخن المتمرس يصاب بالدوار والاختناق. ليس هي».

قالت وهي تلتفت إليه. «وأنت». بدا تأثير المخدر يسري في جسدها. أدرك هذا من خلال حركاتها الأنيقة والمثيرة، وحركات يدها اللاإرادية وهي تلملم شعرها المنساب. سألته. «أتعاركت معها؟»

«معها؟ من؟».

أجابته. «حسنا، تلك الفتاة التي تشاركك الغرفة، والأخرى التي أتت لزيارتك». نفس آخر عميق من السيجارة، لم تكن هاوية، حتى بمعاييره. قال. «لدي أسبابي. الفتاة على الفراش المجاور مصدر ازعاج لي. تتصرف وكأنها مدرب للتنمية البشرية، تأخذ الامور بسطحية، تتحمس كأنها حجزت في غرفة فندق لأول مرة، وليس في غرفة بمستشفى. أنا لا أطيقها».

قالت. «وماذا حدث مع كاجال؟ الفتاة الأخرى؟».

قال. «كيف تعرفين أني تشاجرت معها؟».

مع سحبه أخرى من السيجارة، صارت ردودها أبطأ. مثله تماما. لم يكن الحشيش الذي أحاط حواسه ما قربه منها. ولا عطرها الأخاذ، أو عينيها البنيتين الثاقبتين، أو بشرتها الخمرية، أو جسدها الممشوق، الذي تمنى لو أمسكه بيديه الخشنتين، تاركا آثار عضّات متوحشة عليه. ما جذبه إليها هو اللامبالاة، غضبها الخفي، القلق في عينيها، العلامات الصغيرة على معصميها، إيمانه أنها من نفس فصيله. الوحدة، الممتدة، القاسية، الموحشة. قالت. «كنت أقف بالخارج أسمع صوتك. لم أقاوم رغبتي في استراق السمع. أخبرتك أني سأراك الليلة، أليس كذلك؟».

قال. «هل سمعتي حوارنا؟».

قالت. «كنت تصرخ».

قال. «سحقاً».

سألت. «أهي رفيقتك السابقة؟». بالرغم من أنها كانت تعرف الإجابة على سؤالها، ثبتت عينيها عليه.

صمت دوشيانت لبرهة دون أن يجب. وفي الأفق، أمكنه رؤية حزمة من

الضوء تخرج من مكان أدرك أنه كليته. تساءل عما إذا عادت كاجال إلى الغرفة أم إلى فارون؟ هل لا زالت تفكر به؟ أكانت تبكي؟ هل أخبرت فارون أين كانت؟.

قال. «أجل. انفصلنا من سنتين. ارتكبت فعلاً أحمقا وتركتني. حاولت استعادتها، لكنها رحلت. لم أرها منذ ذلك الحين». ثم تساءل عما إذا كان سيخبرها عن الذي حدث ليلتها أم لا.

سألت. «هل تريد العودة إليك؟».

قال. «أنا لا أعلم ماذا تريد». وتسلق إلى حافة الشرفة، على عكس زهرة، التي تركت العنان لرجليها على الجانب الآخر من السور، كان دوشيانت مذعورا. المسافة التي تبلغ مائة قدم جعلت دقات قلبه تتسارع بجنون.

قالت زهرة. «كن حذراً». وضحكت بصوت عالي، بطلاقة وبراءة. نظر بإعجاب إلى دقة أنفها، وجنتيها، إلى سروالها الأنيق. إنها أروع من أن تصبح طبيبة. ومع أثر المخدر البسيط في دمه، بدأ يرى صورا لزهرة بلبكيني على شاطيء بعيد في البرازيل.

سألته. «لماذا لم تخبر والديك حتى الآن؟» إلى متى يمكنك تحمل تكاليف العلاج؟».

قال. «أملك نقوداً أكثر مما يبدو علي».

قالت. «والديك ثريان، أليس كذلك؟».

أجاب. «والدي موظف وأمي ربة منزل. لم يتركا لي قرشاً واحدا منذ عامي الثاني».

سألته. «كيف إذا؟» بحث عن أي أثر لصدمة على وجهها، لكنه لم يجد. لقد كانت منتشية من أثر المخدر لتكترث لشيء.

قالت ضاحكة. «ينسى الناس وجهي، أما عقلي نادرا ما ينسى. أنت تحاول خداع الناس بألعاب عقلية؟».

قال. «ليس تماما، ولكني أفعل. هل تذكرين الأسئلة ذات الإجابات المتعددة التي كان علينا الإجابة عليها كي نتخطي اختبارات القبول؟» أومأت ومن ثم أكمل. «لقد كنت ماهراً في ذلك. أنا في الصف الحادي عشر، لاحظت مدرستي الأمر، وجعلتني أؤدي امتحان لطفل ثري في صف أكبر سنا. قمت بثلاث امتحانات من أجله. كل ما احتجناه هو وضع صورة له تشبهني، وتمّ الأمر. قبضت عشرين ألفا على كل اختبار. وحصل معلمي على سيارة جديدة في الأسبوع التالي. إذا؟ بدا على زهرة الآنزعاج. أخيرا!

بدأ الأمر يتصاعد تدريجيا. ثم بدأت في اجتياز جميع الاختبارات، السات، التوفيل، الايلتس، اختبارات هندسية، حتى اختبارات القبول لكلية الطِب. أجريت اختبارات، العاشر، والثاني عشر كل عام منذ ذلك الحين. أحفظ جميع المقررات عن ظهر قلب. أكسب في تلك الاربعة أشهر اكثر مما يكسبه الناس في عام. فأنا الرهان الآمن على تسريب الامتحان، أو دروس العاملين الباهظة الثمن. إذا لم يقبضوا علي، فنسبة الرسوب عندي صفر. أنا لا أكلف شيئا.

في العام الماضي، دخل دوشيانت ثلاثين اختبارا، تسع امتحانات قبول للهندسة، أربع **bba**، وبعضا من امتحانات ماجيستير الإدارة. دخل امتحان الجي أر اي خمس مرات، ومجموعة كبيرة من الاختبارات الأخرى التي لا يذكرها. لم يقلّ ثمن أي اختبار عن عشرين ألف روبية. فقد جمع **800** ألف روبية في ذاك العام. بمعدل رسوب يكاد يكون منعدما، يتزاحم الناس عند بابه حتى أنهم يدفعون المبلغ كامل مقدم.

سألته وهي تشعل آخر سيجارة. «منذ متى وأنت تقوم بهذا».

قال. «خمس سنوات حتى الآن، أدخر هذه المال، فأنا لا أخرج في مواعيد باهظة الثمن وليس لدي أي التزامات. فلا يزال معي ما يكفي».

قالت. «تنفق فقط على الخمر والمخدرات».

قال. «الكثير من هذا يأتيني هدية. ذات مرة قمت بالاختبار لابن رجل أعمال. فكان الخمر يأتي أرخص مما يمكن أن تتخيلي. أما عن الاشياء الأخرى، فلدي مصادري. فأنا عميل دائم. ولا أبحث عن المتاعب مع الشرطة أو أي شيء آخر».

ألقت زهرة السيجارة المشتعلة بعيداً واستدارت في صمت.

سأل. «ماذا حدث؟».

«مممم... لا شيء».

قال. «أثمة مشكلة. ظننت أننا نتبادل أطراف الحديث».

قالت مؤكدة. «أنا أيضاً ابنة رجل أعمال».

قال. «أنت لا تبدين كشخص وقح بالنسبة لي».

رمقته بنظرة حادة باردة، لطالما تصور دوشيانت أبناء رجال الأعمال على أنهم منحرفون متنمرون. جعلهم التقلب المستمر في بيئتهم المحيطة وتغيير مدارسهم جديرين بالتعامل مع أي تغير اجتماعي بسهولة. فيكون نموهم ونضجهم أسرع حتى يصبحوا قمة في الذكاء.

سألته. «هل هذا ظنك بأبناء رجال الأعمال؟».

قال. «أنا لا أقلل من شأنهم أبدا. في الحقيقة، لقد تمنيت وأنا صغير أن أكون مثلهم. فهل أنت كذلك؟».

أجابته. «لا أظن ذلك». وأضافت. «أنا لا أريد أن أتحدث عن الأمر».

قال. «ماذا؟ هل قاموا بضربك أو شيء من هذا القبيل؟ فهذا أمر عادي. لقد فعل والدي ذلك. لن تصدقي كم ضربني عندما لم أجح في اختبار القبول لكلية الهندسة. قبل الامتحان، كنت خائفا مما سيفعله بي بدلا من خوفي من الاختبار. يا للسخرية، ومنذ ذلك العام وأنا أنجح أضعاف مضاعفة لأناس آخرين. أترين هذا؟». وأشار إلى بعض الندبات على ذراعه الأيسر.

سألت. «كل هذه آثار سجائر؟ هل أحرقك؟».

«أكثر مما يمكنني أن أتذكر. في كل مرة لا أحصل على علامات جيدة في الاختبارات، كان يضربني بلا رحمة. وهذا جرح ناجم عن عروة حزام».

«ألم تتدخل والدتك؟».

قال لها شارحاً. «أظن أنها أرادت ذلك في بعض الأحيان. ولكنها تعودت في النهاية. ربما كانت ترى أني أستحق الضرب. اعتدت أن أضرب مرة في الشهر. أو ربما أقل. لم يزد الأمر عن ذلك. في بعض الاحيان تضاف بعض الصفعات. نال الجميع نصيبهم من ذلك. لكنه أبقاني دائما في ذعر. لقد كان كابوسا». تساءل لبرهة، عن سبب ثرثرته في تلك الليلة. هل السيجارة؟ ما هو الشيء الخاص في تلك الفتاة جعله يصاب فجأة بإسهال كلامي؟ لم يحدث أن يشارك أحدا غير كاجال هذة التفاصيل المأساوية لمراهقته المليئة بالمتاعب. كل من يعرف دوشيانت يعلم أنه شديد الكره لوالديه، ولكن لا أحد يعلم ما السبب.

«وبعد، ماذا حدث؟».

قال. «لا شيء. تحملت سخافاتهم حتى الفصل الدراسي الأول. توقفوا عن إرسال النقود بعد أن أنهيت العام في الترتيب الثالث. ومن ثم بدأت أتكسب من عرق جبيني. ثم، لم أكن في حاجة إليهم».

«ماذا كان رد فعلهم؟».

«وجدوا صعوبة في فهم ما يجري. لم أتصل بهم. لم أطلب المال. جاءوا إلى الجامعة عدة مرات ليعرفوا ما يحدث. في نهاية المطاف عرفوا أنني بدأت بشرب الخمر وتعاطي المخدرات، سحب أبي حزامه مجددا، ولكني قاومت. فقد أصبحت أكثر قوة...» تراجع صوته، أحس بزهرة تنحني صوبه. وفجأة أصبح متنبها لقرب جسدها.

«وبعد ذلك؟».

«أصبحوا أقل حدة. لم أتحدث إليهم لستة أشهر. في بعض الأحيان كانا يأتيان إلى المستشفى بعد حفلات الشرب الجنونية. لازالا يحاولان أن يقولا لي بأني فاشل، تمنيا لو أنهم قاما بتربية كلب بدلا مني. ولدي الخيار الآن بألا أصغي إليهم. فقد تدربت على الأمر. هم الآن في عداد الموتى بالنسبة لي».

قالت. «ألهذا السبب تفعل ما تفعله بنفسك؟ تعذب نفسك لتعذبهم؟ تماما كما فعلت عندما تركتك كاجال؟».

سألها. «هل أنتي الآن طبيبة نفسية؟» ثم واصل. «لا أعرف. ربما. أردت فقط أن يشعرا بالأسف لما فعلاه. جعلهما يشعران بأن سلوكهما هو السبب في فقدانهما لي. وبالفعل أريدهما أن يعانيا نفسيا».

قالت. «لكنك تدمر نفسك بفعل ذلك؟».

«أنا لا أدمر نفسي... حسنا، ربما أدمر نفسي. ولكني أحب طريقة حياتي. أحب ما أفعله. قد يكون ما حدث دافعا لها، لكن الأمر انتهى. كنت أنزعج في باديء الأمر. أما الآن فأنا لا أكترث بأن ليس لدي عائلة».

كانت زهرة هادئة. دوشيانت يعلم أن قصته تجبر الناس على إعادة التفكير

بشأن حكمهم عليه. لم يملك أي أوهام بخصوص اخفاقاته أو عن طبعه البغيض، ولكنه كان يعلم أنه ليس الأسوأ. فمهما فعل سيظل أفضل من أبيه. انتظر رد زهرة وهو يرقبها بثبات. فغالبا ما يظهرون الناس الشفقة اتجاه، ثم يواصلون حياتهم. ففي نهاية الأمر، هو شخص مخمور غاضب، مدمن مقدر له أن يكون مكروها وغير مفهوم.

قالت زهرة. «يجب أن نعود إلى الداخل».

قال. «بهذه السرعة؟ فبعد كل هذا ألا تظنين أني أعرف القليل عنك؟» وقفز من على حافة الشرفة. وكل جزء في جسده يؤلمه. وهدأ روعه بعد أن غاب عن نظره مشهد الارتفاع الشاهق.

قالت. «ربما لاحقا».

سألها. «ولو حتى قليلا؟».

تغيرت نبرة الفضول التي في صوتها إلى نبرة مهنية باردة. وقالت. «علينا الذهاب إلى الفراش». ثم سبقته في الطريق إلى غرفته. تبعها في صمت. أوصلته إلى السرير وأعادت الأنابيب وثبتتها.

همست. «إذا أصريت على التسلل على هذا النحو، ستستغرق مدة على طريق التحسن».

«لن أمانع في البقاء أطول مع وجود ليال كهذه». قال هذا وكأن شخص آخر يقولها. لقد غازلها للتو. قالت مبتسمة. «لم فعلت هذا؟». ثم أخبرته بأنها ستعاود الاطمئنان عليه غداً. تصافحا بالايدي وغادرت الغرفة. ثمة شيء فيها، هذه الطبيبة.

كان على علم بأنها تخفي شيئا عنه، شيء بخصوص والديها. مهما يكن سبب

حزنها، فقد جعل منها فتاة فاتنة ومثيرة للإعجاب. كطاولة عتيقة لها شخصيتها، والعيوب ـ الندبات التي على معصمها ـ جعلتها أكثر جمالا. جعلتها الحواجز التي حولها أكثر إثارة. حتى أكثر جمالا مما هي عليه. ولأول مرة منذ أن استيقظ في المستشفى شعر بتحسن.

مازال يشعر بالدوار من آثار المخدرات، وقد ساعدته زهرة بالسكينة التي وضعتها في نفسه بينما يسمع أحد يبكي من الجهة الأخرى من الستارة. مال تجاه الصوت ليرى والد بيهو جالسا قرب قدميها. كانت بيهو ووالدتها نائمتين. أمسك الرجل بأصابع قدميها الصغيرات وقبلهم بإجلال، والدموع تملأ عينيه. عيناه عبارة عن حزن عميق صاف.

كادت أنفاسه تتوقف في حلقه، وشعر بفراغ داخله. تساءل عما تعانيه بيهو. أسند رأسه على الوسادة، ثم راح يفكر إذا كان سيأتي يوم يجلس فيه والده إلى جواره ويبكي لأنه افتقده.

13 ـ كاجال خورانا

كاجال هي الابنة الثالثة لعائلة غنية تقطن بونجابي باج، بنيودلهي. يعمل والدها، قاسم خورانا، في تحويل الحيوانات إلى حقائب، أحذية، ملابس، وما شابه. بدا أن الانخراط في مجال التصميم والموضة هو الخيار الأمثل للبنتين الكبيرتين في العائلة. كانت كاجال التي تصغرهما عشر واثنتي عشرة سنة، الطفلة المدللة. وقت دخولها الجامعة كانت أختاها متزوجتان في سعادة، والأهم أنهما صاراتا من سيدات الأعمال الناجحات. هناك العديد من صالات العرض والبوتيكات التابعة لمصنع الجلود في جميع أنحاء البلاد. لم يكن المال شاغلهن الشاغل. أصغر سيارة قامت بقيادتها كانت فولكس فاجن، تلك التي كلفت والدها ثروة صغيرة. بالرغم من وفرة المال والعيش الهانئ، نشأت كاجال كفتاة مرهفة الحس، متواضعة، ذات صوت ساحر، وشغوفة بالقراءة. لم تتسوق قط، أو تتطلع لامتلاك ايفون، أو فستان سواريه، ولم تكن ترتاح في سيارة بسائق خاص. فحبها موجه للموسيقى والكتب، التي عشقتها تماما.

لم يتوقع أحد أنها ستختار العلوم بعد اجتياز الاختبارات ولكنها فعلت. والمفاجأة الأكبر كانت عندما اجتازت امتحان الدخول إلى كلية الهندسة. لم يعجب والديها دخولها مجال خاص بالفتيان، ورغبا أن تسافر إلى لندن لدراسة الأدب. ولكن كانت الهدنة على دراسة الهندسة. أختاها اللتان تملتكان شخصيات قوية وإصرارا كبيرا طالبتا أختيهما أن تتبع حلمها ولا تتنازل عنه، لتصنع من

نفسها شيئا. كانتا على يقين أن كاجال بإمكانها أن تصنع الموجة التالية من التكنولوجيا.

بعد مروم ثلاث سنوات استفاقت كاجال وأرادت أن تترك الجامعة. اكتشفت أن ميكانيكية السوائل، المعادلات، تحولات فورير، وما شابه ليست الأشياء التي تثير اهتمامها، لقد كانت بارعة فيها فقط.

إنها بمثابة الجوهرة لوالديها، فما تريده هو أولوية بالنسبة لهم. فعندما أعلنت عن عدم راحتها، وذلك بعد أن انفصلت عن دوشيانت، رتب والدها لإلحاقها بواحدة من أفضل الكليات في لندن لدراسة الأدب. أو الصحافة. أو أي شيء يمكن أن تدرسه بالخارج الفتيات الجميلات الأنيقات. جزء منها يدفعها للسفر. ليس لأنها فرصة حياتها، لأنها تجاهلتها بكل بساطة وثقة، لكن لأنها أرادت الهرب. لو أنها سافرت إلى لندن عوضا عن الاستمرار هنا، لما كانت مضطرة لمواجهة كل هذا العناء الذي تواجهه الآن. فقد حطمتها أخبار مرض دوشيانت. ظلت مستيقظة لأيام بسبب خطورة المرض الذي يعاني منه دوشيانت. لم يكن فارون عونا لها على الاطلاق. بينما لا تفارق عيناه شاشة الكمبيوتر، طلب منها أن تتخطى الأمر. لو كان دوشيانت مكانه، لاستمع لي ولم يطلب مني أن أتخطى الأمر، هذا لو اتيح تبديل الادوار!! تجاهلت إحساسها، وقررت أن تذهب لزيارته في المستشفى، فقط لتتعرض للمهانة والطرد.

وفي أثناء عودتها إلى السيارة اقتربت من مدخل المستشفى، شعرت بالحزن يعتصر قلبها، ثم أصاب عينياها. لمدة تزيد عن السنتين حاولت أن تتخلص من هذا الجزء من حياتها الذي شكل دوشيانت جزء كبير منه. فمنذ اللحظة التي وقعت عيناها عليه، ناداها قلبها منبعثا من سباته.

زادت ملامحه حدة، صارت عيناه غائرة، لحيته طويلة، لكن إخلاص عينيه كان

يصرخ طلبا للنظر بعين الرحمة. ونادتها الطيبة التي في قلبه، التي لا يستطيع أحد أن يراها سواها. كأن السنتين لا تمثلان شيئا، مجرد لحظة خاطفة في الزمان والمكان. وفي لحظة، عاد كل شيء إلى سيرته الأولى، لأول يوم تحدث إليها في المكتبة. فمنذ انفصالهما، لم تذهب إلى هناك. أماكن كثيرة زاروها سويا، وفعلوا العديد من الأشياء، فقد كل شيء سحره. منذ الفراق. لم تعد المكتبة كما كانت والتنزه ليلا بدا مملاً.

المسافة باتجاه فارون كانت أقصر مما أرادت. صرخ صوت بداخلها: لا تذهبي، بينما هي تدفع النقود للسائق ثم صعدت السلم إلى بهو المبنى المكون من عشرين طابقا بالمعادي حيث يقطن فارون. تقع شقته في الدور الثامن عشر، من هناك يستطيع المرء أن يستمتع بأضواء دلهي ليلا. لم تحصي عدد الليال التي قضتها محدقة في الفراغ بينما يجهز فارون لاجتماعه الكبير القادم.

سألها فارون بينما يفتح الباب. «لماذا تأخرت؟» لم يزل بملابس العمل. قميص أنيق مخطط، بنطال مكوي. يشيخ أسرع من المعدل الطبيعي، بدا في عمر الاثنين والثلاثين. لكنه يكبر في العمر بكبرياء، رغم ذلك، وبدا شعره الرمادي مرتبا، جميلا يليق به.

قالت. «مررت بالمستشفى. أردت أن أعرف كيف حال دوشيانت». بحثت عن أي تغيير على تقاسيم وجهه. خاب أملها، فأبعدت عيناها عنه. سألها. «أتريدين كأسا؟».

قالت. «أنا لا أشرب».

قال. «نعم، صحيح!».

انزعجت كاجال. لقد عرفته لمدة طويلة. كيف له أن ينسى شيء مثل هذا؟ فهذه ليست أول مرة، تكرر الأمر من قبل كثيراً، ولمرة جديدة اختارت

أن تسامحه، متعللة بفارق السن، اختلاف طبيعة حياتهما، وطبيعة ماضيهما. ولد كلاهما أثرياء. وبينما نشأ فارون مفضلا حياة الرفاهية، لازلت كاجال تحب رواياتها، موسيقاها، وطعام الشارع الرديء.

قالت. «ألن تسأل لتعرف كيف حاله؟ كيف سارت الأمور؟» في محاولة منها لاستفزازه، لتثير أي ردة فعل من جانبه. طبعه الهادئ وعدم اكتراثه، إضافة إلى عدم حاجته للتملك، كانت مصادر إزعاج لها. في بعض الأحيان، تمنت لو يصرخ في وجهها، يعنفها، يهددها بالرحيل. أن يفعل شيئا يجعلها تشعر بالأهمية، أنها محبوبة. أو أي شيء يجعلها تشعر بأنها ليست مجرد قطعة أثاث لا فائدة منها تستخدمها فقط عندما تشعر بالتعب. من بضعة أشهر، نشرت صورا لها على الفيسبوك بصحبة شاب لا يحبه فارون، لم يحرك ساكنا. حرك كتفيه استهجانا وتخطى الأمر.

قال. «كيف حاله؟».

قالت. «إنه على قيد الحياة. يعاني من بعض الأورام وتليف في الكبد».

قال. «هل سيعيش؟»

قالت. «أظن ذلك، ولكن حالته يرثى لها». أضافت ذلك لتهول من الأمر. «على الرغم من عدم تفاؤل الأطباء، لكنهم يحاولون معرفة المزيد عن الأعراض».

قال. «أتمنى أن يصبح بخير. إنه دائما شخص طائش». ثم جلس بعيدا، وضع قدما على أخرى بهدوء، ومد يده لجهاز التحكم في التلفاز عن بعد. «هل تريدي أن تشاهدي فيلما؟».

سألته بغضب. «أليس هذا مانفعله كل يوم؟ قلت لك للتو أن إنسانا يحتضر، وهذا هو رد فعلك؟ هيا بنا نشاهد فيلما؟ هل تهتم حتى بما أريده؟».

نظرت إلى الرجل الذي ظلت معه لسنتين. لم يعد هو ذاته الذي عرفته عندما كانت أصغر سنا ـ الرجل البالغ، الحكيم، الذي يستطيع أن يضع كل شيء في نصابه، ببضع كلمات لطيفة ـ الطريقة التي ينظران بها للأمور اختلفت الآن، ولهذا صلة بعدم رضاها، أكثر من فارق السنوات السبع بينهما.

قال بحنق وصوته يرتفع. «لن أخوض في هذا الشجار مجددا».

«ولم لا؟ نحن لا نتقابل كل يوم. نصف الوقت، أنت خارج المدينة، ومتى عدت، ليس لديك وقت لي، كل ما تفعله هو أن تثمل وتضاجعني. أجل، وتشاهد فيلما... أنا آسفة ـ لقد سئمت هذا!».

قال. «هل هذا بسبب هذا الذي رأيته بالمستشفى؟».

قالت. «اسمه دوشيانت، هل تذكر؟ كنت أواعده قبلك».

انفجر قائلا. «أذكر». كانا يقفان متجاوران. نظر فارون إلى كاجال التي كانت تحدق. قال صارخا. «هذا اللعين الذي تعدى عليك وجئتني باكية!» ويداه تتحركان في كل اتجاه.

«مجرد أنه ضربني لا يعني أنك أفضل منه. أنتظرك يوم بعد يوم لتعود إلى دلهي حتى نقضي بعض الوقت معا. وماذا تفعل؟ فقط تتصل بي. سئمت دور العاهرة...»

قال. «أنا لم أقل هذا أبدا».

قالت. «بل عاملتني هكذا يا فارون. أضعت العديد من سنوات عمري عليك. في محاولة فهمك ودعمك في حال كان عملك على غير ما يرام، أحاول تفهم ما تمر به... وفي مقابل هذا، ماذا أجني في المقابل؟ الرجل الذي يقدم لي كأسا وهو يعرف أني لا أشرب!».

قال. «أنا آسف».

قالت. «لا أنا التي عليّ أن أعتذر» بينما تداعب الدموع رموش عينيها. نهضت وتوجهت نحو الباب.

«لا يمكن أن تذهبي...»

قالت. «أحتاج بعض الوقت». ثم أغلقت باب شقته الفخمة خلفها. تعرف في قرارة نفسها أنها لن تعود ثانية. في الوقت الذي ركبت فيه السيارة لتعود إلى كليتها، كانت دموعها قد جفت. أدركت أن الحياة وصلت إلى مرحلة من الارتباك الكامل. قررت أنها ستعود لزيارة المستشفى مجددا يوما ما.

تعجبت والمسافة تبعدها عن مسكن فارون عن المسافة الكبيرة التي تفصل بينهما. لم تكن هي الشخص المناسب له. فعمله هو شغفه الوحيد. كانت العشيقة طوال ذلك الوقت.

حاصرت صدى أصوات أختيها رأسها وهي ترتمي على الفراش. كان كرههم لدوشيانت مثل حبهم لفارون. فإخبارهما بأن دوشيانت صفعها كانت صدمة لا تحتمل. قالتا لها أنها مجرد بداية علاقة مؤذية، صدقتهم؟ هنا كانت البداية، وقد أصرتا على ذلك.

خلال السنوات التي قضتها مع فارون، افتقدت الشغف، الجنون، علاقتها المتأججة مع الرجل الذي تعرفه جيدا ـ دوشيانت ـ وفوق كل شيء افتقدت كاجال التي كانت معه.

14 ـ أرمان كاشياب

التقارير في حالة فوضى كاملة. توجد مليون مشكلة ويوجد أكثر من زيليون سبب لها. فعند معالجة أحد الاعراض واحد يمكن أن يسبب مشكلة أخرى. ضَمُر عقله وهو يدقق في حالة دوشيانت، محاولاً أن يحدد سبب المرض الرئيسي. تجول في رأسه العديد من الأشياء. بات يفكر ببيهو وسير حالتها. لم يكن المرض فقط هو ما يفكر فيه، وهو أكثر شيء سبب له الأرق. أمسى يفكر فيها، يتحرق ليراها مجددا، ليشاهدها تمتعه بقصصها الطريفة، ليراها تضحك مثل طفل صغير يتحمس لأقل الأشياء. تملؤها الحياة بدرجة لا تصدق بالنسبة لشخص يحتضر. فكر في الموعد المرتقب ولكن فكر في تبني كرة البهاء الصغيرة.

لم تكن التجارب المعملية هي سبب الأرق، ولكن كانت هي، الابتسامة المعدية، الفرحة العارمة، إرادة الحياة، الشجاعة، حبها الذي لا ينضب للطب، كونه متخصص في علاج التصلب الضموري الجانبي. علم ما ينتظر بيهو في المستقبل إذا لم ينجح العلاج. وهذا ما تعرفه بيهو أيضاً. تماما مثل آخر مرة، ستموت على مهل، موتا أليماً... الفكرة في حد ذاتها جعلته يتقلب في مقعده متألما. الأسوأ من هذا كله، أن تموت داخل غرفة العمليات.

فقد شاهد مرضاه يفقدون السيطرة على أطرافهم، أنفاسهم بمشقة، طريحي الفراش، غرقى في الشفقة على الذات، يلعنون حياتهم ثم يموتون. فارتجف. فتقارير دوشيانت لم توصله لشيء. انتابه الإحساس بالذنب. فكل دقيقة تمضي

وهو يفكر في بيهو ومحنتها تعني معاناة أكثر لمريض على فراش آخر. ليس أنه لم يهتم بمرضى مثل دوشيانت الذي يتمنى الموت. فجسده عبارة عن مزيج من المركبات الكيميائية السامة من المنشطات إلى المخدرات، وأدوية ممنوعة أخرى. غادر الغرفة ليتحدث لدوشيانت ويرى إن كان ينقصه شيء في تحاليله الأولية. مشى في أروقة المستشفى وحيدا. إنها الثالثة صباحا، يمكنه سماع أصوات الشخير المتواصلة، أصوات الصرير، وإضافة إلى تلك الأصوات، هناك الصمت المميت للمستشفى. يتجول حوله حفنة من الأشخاص. فتيان الحراسة الليلية، سير بعض الأطباء بحركة أشبه بالموتى العائدين إلى الحياة، الممرضات، بعض الأقارب الحزانى متمددين على المقاعد.

في الشهر الماضي، ذهب إلى منزله ثلاث مرات فقط، وهذا، ليُحضر بعض القمصان البيضاء. الآن يلجأ للطلب عن طريق الانترنت: قميص أبيض، كبير، الكمية:5، الدفع عند الاستلام. كان ذلك مناسبا له. فعدم امتلاكه الوقت ليختار ما يرتديه يعني مئات من الساعات الاضافية للحياة. فما الذي يقدمه دوشيانت وبيهو للحصول على هذه الساعات الاضافية؟

أتى صوت من الخلفية. «أمازلت هنا؟» كان هذا رئيس قسم الأورام.

أجاب. «عليّ أن أنهي بعض الأعمال».

قال الرجل. «لديك دائما شيئا لتفعله». وانصرف وهو يبتسم. سيذهب إلى المنزل على الأرجح ليلتهم الأرز والدجاج المنزلي ويجلس مع زوجته ثم ينام. أما عنه، فهو في حالة من الأرق. تأقلم جسده على تحمل الساعات الطوال من دون ألم. يكتفي بعدد ساعات النوم المعدودة على الأريكة. ومؤخرا، أغرقت أمه صندوقه بالسير الذاتية لفتيات رشيقات وعلى قدر من العلم، إما مهندسات أو طبيبات من عائلات ذات سمعة جيدة والذي يستطيع الزواج من

إحداهن، ولكنه لم ينظر لأي منها. ظنت عائلته أن الطريقة الوحيدة لإبطائه هي تقيده بالزواج.

كانت الآنوار مغلقة فتأقلم ببطء مع الضوء الخافت في الغرفة. تفحص الأرقام والخطوط على الشاشة الصغيرة. كان دوشيانت مستلقي على جنبه بسلام. التقط البيان وقرأ التقرير، صرخ صوت بداخله: ياله من هراء.

ثم حياه صوت غريب. «أهلا». التف ليرى بيهو شبه نائمة في حاله رثة، وعيناها عليه. جعلته ابتسامتها يشعر أنه تغطى بلحاف دافئ مع كوب من القهوة الساخنة في يوم أحد ممطر، كالبتسامة التي تشرق على زوجة الطبيب بعد عودته من يوم طويل ومرهق.

رد. «مرحبا».

سألته. «هل أتيت لترانى؟». دفعته عيناها البريئة التي ترقبه للكذب.

قال. «أجل».

«أنت ألطف حين تكذب. أخبرت فينوجوبال بذلك. رد بأني مجنونة».

قال مداعبا. «من يكون فينوجوبال؟ هل يجب أن أشعر بالغيرة؟» وعلّق السجل مجددا على سرير دوشيانت.

«نعم فهو شخص وسيم في نهاية المطاف».

قال مداعبا. «أوسم مني؟ أشك في هذا. هل أخبرتك عن عدد الفتيات اللاتي رافقتهن في الجامعة؟ لعلمك لقد كنت مشهورا. لا أعتقد أن في مقدور هذا الشاب فينوجوبال أن يهزمني. إذا، هل هو أفضل مني؟»

قالت. «لا، فأنا كذبت».

«لا يجب أن تكذبي على طبيب».

«وأنت لا يجب أن تكذب على مريض».

قال مجادلًا. «أنا لم أفعل».

قالت بغضب مفتعل. «بل فعلت. فأنت لست هنا لأجلي، أليس كذلك؟»

سألها وهو يجلس على سرير دوشيانت في مواجهتها. «ماذا لو أن هذا صحيح؟» لم تكن كذبة فالذهاب إلى غرفة دوشيانت كان قراراً من عقله الباطن ليقترب من بيهو مجددا.

قالت مازحة. «أخبرتك أنه من الصعب أن تبقى بعيدا عني».

قال. «لم تقولي هذا أبدا».

قالت. «ها أنا أقولها الآن ومن الأفضل أن تصدقني. هل سيكون بخير؟»

دفعه القلق الذي رآه في عينيها إلى الشعور بالمسؤولية. «يبدو عليك الاهتمام. فأنت اخترت هذه الغرفة بعد أن قابلتيه، أليس كذلك؟ أخبرتني زهرة».

ضحكت وقالت. «تبدو منزعجا من سبب اختياري لهذه الغرفة. لقد فهمت الآن، هذا إذن هو السبب الذي يبرر عدم حبك له ـ لأنك ظننت أنني أكن له شيئا. ولعلمك هذا قد يكون ممكنا! فهو حاد الطبع وهذا أمر رائع. هل تعلم أنه تسلل للخارج لتدخين الحشيش؟ كم هذا رائع؟».

حتى مع الظلمة والاكتئاب الملازم لهذه الغرفة في المستشفى التي تؤوي شخصين على وشك الموت، كانت عينا بيهو لامعة. فروحها لا تقهر حتى وهي تحدق بالموت المحتوم. ولكن لم يكن لها خيار آخر غير المقاومة.

«أنا لم أعجب بأي من مرضاي، خصوصا من على شاكلته. الذي يجب أن يموت قبل أن يصل إلى المستشفى».

«لا يجب أن تكون هكذا! أنا لا أحبه إلى هذا الحد! لا يجب أن تكون

أنانيا معي إلى هذه الدرجة. يا الهي، احتاج لبعض الحرية». قالت وهي تحرك يدها كفتاه مدللة، ورفيقة صعبة الإرضاء ترتدي جوتشي، لها كعوب حادة طولها خمسة بوصات. ضحك بفعل تقليدها.

قال في النهاية. «أنا جاد على أية حال».

«لا يمكن أن تكون جادا، أليس لهذا السبب نأخذ الدواء؟ لإنقاذ الارواح ولعلاج الناس؟ لا أحد يستحق الموت».

«أنا لست لئيما. ولا أقول أنه يستحق الموت. لا أحب من يهدر حياته سدى».

قالت. «أنت أيضاً تهدر حياتك».

رد. «كلا».

قالت. «أنت تعمل كثيرا. أعلم أنك مسؤل تجاه المرضى المتواجدين هنا. ولكن لديك مسؤولية تجاه نفسك أيضاً، ومن الواضح أنك تتجاهلها».

قال. حسنا يا جدتي! هذا ما تقوله الفتاة التي تظل مبتسمة طوال اليوم لأنها لا تريد رؤية بكاء أهلها؟ إذا هل تعتنين بنفسك؟».

قالت. «نعم أفعل ذلك».

قال. «أنت تهتمين بهم يا بيهو. فأنا وأنت لا نختلف عن بعض كثيرا».

قالت مدافعة. «بل نختلف».

قال وبعدها لاذ بالصمت. «كما أخبرتك لتوي، لا تكذبي علي. لا تخبريني أنك تواجهين أوقاتا ترغبين فيها بالبكاء بصوت عال وتسبين البشر وكل شيء، وتقذفين الأشياء من حولك. وتكسري رؤوس الناس. لا تخبريني أنك تريدين أن تجذبي والدك الباكي من تلابيبه لتسأليه عن سبب ما يحدث لك، وليس الرجل على الفراش الآخر، ولا ترغبين أن تطلبي من أمك أن تتوقف عن البكاء وأن تبكي

بدلا منها». لم تنطق بيهو بشيء. أدرك حماقته، قال لها. «أنا آسف. أنا فقط أتمزق من الداخل حين أراك ترقدين هنا تبتسمين للجميع، بينما أعلم تماما أنك مدمرة من الداخل».

قالت. «أنا أبتسم لأني سعيدة أنك تتفهم». أمسك يديها وداعب جلدها المثقوب من الحقن. «نعم أنا أبتسم لأجلهم. ولكني أبتسم لنفسي أيضاً. فستذهب ذكرياتي عنهم عندما أرحل، وستبقى ذكرياتهم معهم إلى الأبد. ألا نبتسم عند التقاط الصورة حتى في أسوأ النزهات؟ هذا كل ما أفعله. أريد أن أبتسم في آخر لقطات لي».

لم يعلم كيف يرد على هذا الكلام. «بالمناسبة، لاحظت أنّ والداك قررا أخيرا العودة للبيت؟».

أجابت. «اضطرا إلى ذلك فقد هددتهما». ضحك. «لم تسر لذلك. لماذا تضحك؟»

«هل هددتيهما؟».

«لماذا؟ ألا أستطيع؟ فأنا حازمة للغاية إن أردت ذلك؟».

«أنا متأكد أنكي تستطيعين. ولكن للتأكد أنك هددتي أشخاص حقيقيين؟ كيف؟ أغلقت فمك ورفضتي التنفس؟ فمن يمكنك تهديده؟». ثم كتم ضحكته بصعوبة.

قالت غاضبة. «لا يهم. أخبرني، لما أنت هنا؟».

قال. «ألم تقولي منذ لحظة أني سأجد صعوبة في البقاء بعيدا عنك؟».

قالت. «بالله عليك. أنا أعرف أني لطيفة ولكن لماذا تريد أن ترى فتاة تحتضر؟» بعدها توقفت للحظة، وقالت. «أنا أمزح معك! أنت هنا لتراه، أليس كذلك؟».

قال. «نعم. تريدين أن تعرفي ما خطبه؟».

«هذا هو أكثر ما يعجبني فيك. أنت تعرف كيف تدب الحماس في أوصالي!». وحركت رموشها.

«أنا آسف لأني سأخيب ظنك، فنحن لم نكتشف سبب المشكلة بعد. أستطيع أن أستفيد من رأيك».

«عفوا؟ هذه سعادة لا توصف! يمكنني أن أكون طبيبة حقيقية». قالتها بحماس.

قال. «بينما يضع السماعة حول رقبتها، إذا، تفضلي». ملأت الابتسامة وجهها.

قرأ لها التقارير، شارحا لها جميع تفاصيل حالة دوشيانت. ولمدة نصف ساعة، سألته عشرات الأسئلة وجاوب عليها بسعادة بالغة. ترك لها جميع أفكارها مع أن أكثرها كانت متهورة ولا تعقل. لم يرفضها. ففي النهاية فرق الخبرة والعلم كانا شاسعين وبالنسبة لسنها وخبرتها كانت استثنائية على نحو غريب.

استفسرت. «آمل ألا أكون مضيعة لوقتك؟» بعد فكرتها العشرين عن كيفية معالجة الرجل. قال لها بعد التفكر والتدبر الحذر. «لا على الإطلاق، من الجيد معرفة رأي آخر. على كل حال، الأطباء هنا ليسوا على مستوى جيد». قال ذلك تشجيعا لها. «إن قدمت للعمل هنا، ستحصلين على الوظيفة. وبهذا يجب أن أعترف لكي أن لدينا إجراءات صارمة لإقامة علاقة مع المدير».

ابتسمت بخجل وقالت. «سآخذ الوظيفة لأخضع لهذه الإجراءات فقط». ضحكا حتى شعرا أنهما على وشك الانفجار. تحول حديثهما من كيفية علاج دوشيانت إلى أيامهم في كلية الطب. أمتعته بالعديد من القصص عن فترتها القصيرة في الكلية، اعترف أنه لا يملك أي ذكريات عن أساتذته، المعامل،

غرف العمليات، إحساس التعامل مع أول جثة. أثناء وصفها لأول شق في الجثة، بدا بالشعور بأنه معها هناك، ممسكا بيدها، موجها المشرط أثناء تحركه خلال القفص الصدري. كما لو كان جزءا من هذه الذكرى. التقت صورا لها ووله ولجثتها الوهمية.

حالما انتهت، أرادت بيهو أن تعرف أكثر عن المرضى الذين عالجهم بإعجاز خلال فترة عمله. قال بفخر. «لا توجد معجزات، المعرفة والمنطق فقط».

ردت بيهو. «دعك من ذلك».

كان يعلم أنه موهوب. يستطيع أن يرى فيما وراء المعتاد ويتخذ قرارات جذرية لا يستطيع أحد أن يجرأ على اتخاذها. تعجب الناس من قدراته ولقبوه بالغريب والعبقري، ولكنه لم يعبأ بالأمر وتقبل موهبته بتواضع كهدية. سألته. «ألست قلقا بشأنه؟». قال. «أنت حقا معجبة به أليس كذلك؟».

«كلا. في حقيقة الأمر. لم يكلمني بلطف أبدا. يؤذيني دائما ويخبرني كل مرة أحدثه فيها أن أهتم بأموري فقط. أنا لا أعلم مشكلته. ربما لا أعجبه».

قال. «أنت لطيفة جدا». وأضاف. «هيا نلقنه درساً. لا مسكنات له من الغد».

«لا، لا تكن شريرا! إنه مريض للغاية».

«لن يكون كذلك في الغد. سنأخذ عينة من الكبد لنرى ما الذي يتسبب في تلفه. الأورام أم شيء آخر، أما الآن فلا مسكنات للألم. ما رأيك في هذا كتعويض؟».

قالت بتعجب. «لن تفعل ذلك!» وانحنت شفتاها بابتسامة خبيثة.

غمز لها وقال. «راقبيني». قام وأزاح الستارة. وصل إلى المحاليل ولكنه توقف عندما رأى دوشيانت يحاول الوصول لطاولته ليجلب كوب من المياه.

صعق دوشيانت لرؤيته من خلف الستارة، أصابه الهلع وتدحرج من الفراش وارتطم بوجهه على الأرض بقوة. وصرخ صرخة مدوية قبل أن يصل إليه، تدحرج على الأرض وتعلق بيده.

صرخ دوشيانت. «فلتفتك بي»! وضرب بقبضته على الأرض. رآه يتلوى من الألم واندفع نحوه. لم يفلت دوشيانت يده، حتى عندما انحنى إليه ليراه عن قرب. كان يتصبب عرقا ووجهه محمرا، يرتجف جسده بالكامل من الألم. قال بصرامة. «دعني ألقي نظرة». ولكن دوشيانت واصل التقلب وفمه ملئ باللعاب. نهضت بيهو من فراشها عند سماع صوت الجلبة. ناشدته. «دعه يراها». ترك دوشيانت يده.

ألقى نظرة خاطفة وقال. «أظن أنها كسرت».

قال دوشيانت. «ولكن اللعنة اللعنة اللعنة، لم يكن سقوطي بهذه القوة». تبلل وجهه بالدموع والعرق. صرخ. «اه! هذا مؤلم».

قال. «يبدو أن عظامك رخوة».

فكرت بيهو وقالت. «أظنني أعرف السبب. انه تسمم الكادميوم السبب في تلف كبده».

بينما دوشيانت ينظر لبيهو باحتقار. تشابكت خلايا مخ أرمان وأصابته الدهشة، إنه أمر منطقي تماما. إنها على حق. كيف فاتني هذا؟ كان دوشيانت يئن من الألم بينما يبتسم إلى بيهو. فعلتها!! بدت وكأنها تقولها بعينها.

ولاحقا في تلك الليلة، تم تحديد موعد الجراحة لدوشيانت لإصلاح يده اليسرى. وراجع جميع تقاريره مرة أخرى. وافق تسمم الكادميوم جميع الأعراض. لن تكون مشاكله الأخرى ذات تأثير على كبده. وأخيرا بعد أيام من التخبط أصبحوا يملكون وسيلة ستجعل دوشيانت يتحسن.

أخذت بيهو وقتا طويلا حتى تستطيع النوم. ارتسمت عليها ابتسامة عريضة منذ أن أتت بالتشخيص الصحيح. ففي آخر ثلاث ساعات، تردد على غرفتها للاطمئنان عليها. انتابه شعور غريب بأنه عالة ـ حتى ولو كان بسيطا ـ جعله يشعر بقليل من الاشمئزاز. ولكن اطمئنانه لرؤيتها نائمة في هدوء أثار شيئا انسانيا بداخله. فمع الوقت أصبح يرى أشخاص وليس مرضى، أمراض لا مشكلات، ضعف لا مشاعر، الخطأ الإنساني. تغير شيء بداخله، ذكره بحياته التي تركها وراءه.استمرت العملية ساعتان ونصف، لن يبدأ علاج تسمم الكادميوم حتى غد. شعر بأنه أغمض عينيه لتوه عندما طرق أحدهم الباب. كانت زهرة. «ألم تأتي مبكرا؟» نظر إلى ساعته ليجدها الثامنة. ظل نائما مثل الطفل لمدة أربع ساعات ماداً قدميه على المكتب، يحلم ببيهو في معطف الطبيب، مثل رمانسي يائس.

تعجب بشده وطلب من زهرة الدخول. استأذن وتمشى إلى دورة المياه، غسل وجهه وأسنانه وعاد إليها. وعلى سبيل التغيير، التقطت قميصا أبيضا جديدا (والذي طلبه من الانترنت) من خزانته، ارتداه وتساءل إذا كان سيعجب بيهو. قال لنفسه. إنه قميص أبيض بحق السماء! كان كوب القهوة في انتظاره على مكتبه، عندما عاد، بينما كانت زهرة تتصفح ملف دوشيانت.

سألته. «هل أصيب بكسر؟» وهي في حالة صدمة. «هل سارت العملية بشكل جيد؟».

قال ضاحكا. «كأنك لا تعلمي. لقد ذهبتي إلي غرفته قبل أن تأتي هنا، أليس كذلك؟ وتحققت من جميع النشرات، أيضاً. من الواضح، أنك تهتمين لأمره».

«كيف ـ؟».

قال. «اتركي هذا. أنا فقط أعلم». ثم ارتشف رشفة من قهوته. عرف شيئا واحدا وهو أن زهرة كانت اختيارا ممتازا. القهوة ممتازة، على الاعتراف بهذا. «إننا غريبوا الأطوار يا زهرة، تعرفين هذا، لكني أحب قهوتي».

لاحظ نفورها في غالب الأحيان من الإمساك بيد الرجال لتعطيهم الدواء وأنها حاولت أن تبعد نفسها عن المرضى الرجال ـ إلا دوشيانت، بالطبع. هناك شيء غريب بهذه الفتاة، ولكن اختار تجاهل الأمر. قالت. «حسنا». كان على علم أنه أربكها بأدبه الجم.

سألته باستهجان. «ماذا حدث لدوشيانت؟»

«ارتطم بالأرض، ولكن هذا لم يكسر ذراعه. فعظامه كانت ضعيفة ومتهالكة. أخضعناه لتحليل تسمم الكادميوم وظهرت النتيجة إيجابية. هذا ما كان يأكل كبده».

«في البدء، علينا أن نعالجه قبل أن نعالجه من الأورام». تعجبت كعادتها عندما يأتي بفكرة كهذه.

«أتمنى أن تبقيني قريبة لأصنع القهوة، ورجاء أخبرني بالتفاصيل دائما».

«أنا لست صاحب الفكرة، بل بيهو».

«بيهو؟ بيهو مالهوترا؟ المريضة».

«رفيقة دوشيانت بالغرفة. كانت هناك عندما حدث الأمر. أخذ الأمر منها ثانية لإدارك الموضوع». شرح لها ولمحة من الفخر في نبرة صوته.

«ممم...» رآها عاجزة عن الكلام استطاع أن يتفهم عدم تصديقها. ارتشفا من القهوة. وأخيرا قالت. «ماذا كنت تفعل هناك في ذاك الوقت المتأخر من الليل؟» لم يجب لعدة ثواني ثم قال. «كنت أتفقد دوشيانت. وأنا من يسأل الأسئلة، وليس أنت. فأنت تصنعي القهوة».

«ولكن ـ »

قال مقاطعا ليتجنب المزيد من الأسئلة. «أظن أنني واضح». قاطعها لتفادي

المزيد من الأسئلة. لم يكن السبب في هذا الانزعاج الذي شعر به عندما يتحدث الآخرون عن حياته الشخصية، بل كان الحرج الذي شعر به عندما فكر في علاقته المتوترة مع بيهو. لقد مر بالأمر قبل ذلك وانزعج عندما ظن أنه سيقطع الطريق مجددا. لطالما كانت العلاقة مع مريض طريقا متعرجا.

ابتسمت زهرة وعرف أن لديها ما تصل إليه بمفردها. أخذت الملف وجهزت نفسها لأول جولة لتفقد المرضى.

حاول أن يتفادى عينيها.

ضحكت زهرة وسألته. «هل ستبدأ في رؤية مرضاك الآن؟».

قال. «أظن ذلك، بما أنهم يأتون بتفسيرات أفضل للأمراض. أنا لا أعلم لماذا علينا أن نعين متدربين وأطباء». ثم أضاف ضاحكا. «يجب أن نسأل المرضى عن الحلول أليس كذلك؟» لم تتأثر زهرة بينما ظلت الابتسامة مرسومة على وجهها. الآن، اعتادت على السخرية. غادر مكتبه وتوجه للمطعم للافطار. وأهم من ذلك أن يتفادى أسئلة زهرة الشائكة، وبعضا من أسئلته أيضاً.

أراد كذلك أن يعرف ماذا تفعل.

15 ـ زهرة ميرزا

عاشت زهرة على بعد خمسة عشر دقيقة من المستشفى، وعادة ما كانت الطرق خالية وقت عودتها للمنزل. لن يختلف الأمر في تلك الليلة. كانت متعبة، ذهنيا وجسديا، بعد يوم طويل من الحقن، الفحوصات، وشكاوى المرضى. وقالت أنها صفت سيارتها في مكانها المعتاد ـ خارج المجمع السكني ـ بعد ستة أشهر من القتال والتصارع مع الجيران وغيرهم من ملاك الشقق على مكان صف السيارة، أدركت أن الأمر لا يستحق العناء. إنها مجرد سيارة! كانت الخلافات حول أماكن إيقاف السيارات شائعة في منطقتها السكنية، شعرت أنها محظوظة أنها لم تعد جزءا منها بعد الآن.

جرت نفسها صاعدة السلم في اتجاه شقتها ـ تفعل هذا بانتظام للحفاظ على طاقتها ـ ووضعت المفتاح في الباب. حاولت مرة أخرى. على مدار الثلاثين ثانية التالية، لكن لم يفتح القفل. مغلق من الداخل؟ أوه لا. هذا مستحيل. على مضض، رنت جرس الباب، وانتظرت الاسوأ. أرعبها صوت الخطوات القادمة نحو الباب. أرادت أن تهرب. ثم انفتح الباب.

يمكنها أن تشعر بالقيء في فمها.

«مرحبا، زهرة!». صرخت أمها ثم عانقتها. التف الوشاح حول أنفها وفمها مما يدل أن أمها كانت تنظف وتمسح البيت.

«تعودين للمنزل في مثل هذه الساعة المتأخرة؟ كل يوم؟». وجهت سؤالها

بينما تدخل زهرة إلى الشقة، وتلقي بحقيبتها على رف الأحذية. المنزل أنظف بكثير، ورائحتة رائعة. لم تكن فوضوية أبدا ـ إنها تملك هوس أمها بالنظافة ـ لكن أمها لازالت أبرع منها في جعل البيت يبدو جميلا ونظيفا على نحو أفضل... تساءلت ماذا حدث لجميع زجاجات الكحول ـ المكدسة في طوابير تحت سريرها ـ جمعتها كي تفرغ روحها فيها أو تفرغها في روحها.

قالت. «أنا فقط مثقلة بأعمال كثيرة».

«إنها ليست آمنة على الاطلاق. وهذه المنطقة خطرة جدا. بالأمس فقط كانت هناك تقارير عن وقوع سلسلة من حوادث الخطف في الحي. أعتقد أنك يجب أن تتزوجي. على الأقل لن يكن لدينا ما يدعو للقلق عليك».

قالت. «سيكون هناك شخص آخر يتولى مسألة القلق، وليس أنت».

«تعرفين جيداً ما أعنيه.» واصلت أمها الثرثرة دون توقف. أخبرت زهرة عن الفتيات العاديات في عائلتهم، ممن تعانين من صعوبة في العثور على الشخص المناسب، وزهرة اختارت أن تتجاهل مخاوفها بابتسامة قصيرة. في زاوية الغرفة، كان والدها يشاهد التلفاز، لم يلاحظ أنها كانت في الغرفة أيضاً.

«المنزل في غاية القذارة. ألا تنظف الخادمة البيت؟ وتبدو مرآة الحمام أنها لم تنظف أبدا. كم كنت تدفع لها؟ سأتحدث لها عندما تأتي غدا. لماذا لا تقول لها شيئا؟ أنت تتركين مئات من الروبياتات في كل مكان. أنا على ثقة أن الخادمة سرقت الكثير منها. ستسرق المال وتهرب يوما ما!».

«أنا مشغولة يا أمي». ردت عليها ورقدت على أريكة غرفة الرسم. «ليس لدي ثلاث ساعات لمتابعة ما تفعله الخادمة».

لاحظ والدها وجودها. «أوه، أنت هنا؟ متى أتيت؟ قامت أمك بتنظيف البيت. طلبت منها ألا تفعل، لكنك تعرفين أمك».

«أعلم هذا. نعم». قالتها وتقابلت عيناها مع عيني أبيها. بينما تقلبت عينا أمها.

وتساءلت دائما عن الخطأ الذي ارتكبه والد زهرة. كان رجلا صالحا، وأب جيد، ولكن على قدر ما تذكر، توترت علاقته مع زهرة، على مدار زمن طويل. منذ ذلك الصيف الذي مر عليه زمن طويل، كانت الأمور على ما يرام... بل رائعة حتى. وفي يوم واحد، ينقلب كل شيء إلى أسوأ ما يمكن أن يكون. وقالت أنها طالما انتظرت أن تنصلح الأمور من تلقاء نفسها، مع افتراض أن علاقة أي أب بابنته قد تمر بمرحلة كهذه، لكن الامور لم تتحسن مطلقا.

قالت. «سأذهب لأغير ملابسي». واتجهت إلى حجرتها. دخلت وأغلقت الباب خلفها، وبقيت هناك. قال ميشيل دي مونتين مرة واحدة ـ لا شيء يصلح أمرا في الذاكرة غير الأمل في نسيانه ـ تعرف هذا أفضل من أي شخص آخر.

لو أمكنها أن تبقى في سريرها حتى يغادر والداها المنزل، المبنى، الشقة، وأن يبتعدا بعيدا. تمنت لو أمكنها أن تفعل ذلك. بعد رش بعض الماء على وجهها، جلست مع جهاز ماكبوك برو الباهظ الثمن الذي اشترته حديثا، وليس لديها وقت لاستعماله. سجلت الدخول إلى الفيسبوك، وتصفحت شريط الأخبار دون اكتراث. تزوج بعض الأصدقاء. وكان البعض الآخر في إجازة. وضع عدد قليل صور الفساتين القصيرة، الحفلات في النوادي الجذابة، مع أحبتهم الأثرياء، والسمنين.

من ناحية أخرى، سيطر على حياتها شعور طاغ بالجمود... مملة وتتحرك بسرعة بغيضة متواصلة. لكنها واثقة من أي شخص آخر يتطلع إلى حياتها بنفس الشكل. بعد كل شيء، إنها تلك الفتاة المحظوظة التي تتدرب في مستشفى شهير، معروفة بقدراتها البحثية التي لا تضاهى، المعامل التي تحتوي على أحدث

تكنولوجيا. إنها الوحيدة التي نالت فرصة العمل مع أفضل الأطباء الذين يتطلع للعمل معهم أي طبيب. بضع سنوات في الولايات المتحدة، ونجاحها قد يصبحا حديث طاولات القهوة بين أقرانها لسنوات قادمة. وبخيبة أمل، أغلقت جهاز الكمبيوتر ولعنت حياتها البائسة. إنها في حاجة ماسة للتدخين، ولكن أمها كانت تواصل الضجيج عند بابها. فكرت في دوشيانت، وكيف تمكن من تجاهل عائلته والمضي قدما في حياته.

بعد أن بدلت ملابسها، انضمت إلى والدتها في المطبخ وساعدتها قليلا. وقد أسرعت أمها عملها بالمطبخ بفضل مساعدة زهرة لها. كفتة مشوية، دجاج بالزبد، والأرز مع الخضروات ـ الأشياء الوحيدة التي جعلتها تريد أن تعود إلى البيت والبقاء معها ـ جلسوا على الطاولة وحاولت جاهدة ألا تتلاقى عيناها مع عيني والدها. وأعربت عن أملها أن ينتهي الأمر في أقرب وقت. بالنسبة لها، كان الحادث الذي شوه لها حياتها خطأ ارتكبه والدها، وقد قبلت ذلك على أنه حقيقة اللّه الصادقة.

قال والدها. «كيف حال الطبيب الذي تعملين تحت إدارته؟ سمعت أنه شاب ممتاز».

ردت. «نعم، هو كذلك؟».

«أخبري والدك المزيد عنه» تدخلت الأم في محاولة لتشجيع الحوار بينهما.» كانت طوال تلك السنوات المتألمة صامتة.

«لا يوجد ما يمكن قوله أكثر من هذا. وهو طبيب كبير ومعلم عبقري».

«ساد الصمت مرة أخرى. حاولت أمها أن تطرح موضوعات مثل خططها للزواج، وما إذا كانت مغرمة بأي شخص، فما كان من زهرة إلا أنها أغلقت كافة الموضوعات بازدراء. ارتسمت على وجوه والديها علامات االذهول، متعجبين

عما فعلوه ليستحقوا هذه المعاملة القاسية من ابنتهما. ماذا يعرفان؟ من ناحية أخرى، إنها تشعر بالغثيان بحلوسها بجوار والدها. بعد العشاء، فتح الأب لها زجاجة ويسكي اشتراها خصيصا، ودعا زهرة بمشاركتهما. رفضت، على الرغم من أنها تريد حقا أن تشرب.

استغرق الأمر منها ثلاث ساعات، وزوجين من لفافات الحشيش القوية لتغفو. رغم أنها واقعة تحت تأثير الحشيش، إلا أنها قررت الاتصال بدوشيانت، لكنها لم تستطع الوصول إليه. شبكة الاتصالات في المستشفى دائما ضعيفة. ارتسم الحزن على عينيها، ابتلت الوسادة بفعل الدموع التي انسالت منها. كم تمنت لو فهمها والدها في حينه، وقت أن كانت تتوق لذلك... أو بالأحرى احتاجت ذلك. في بعض الأحيان، كانت تتسائل إذا ما كان يتذكر ذلك اليوم، عندما روت له الحادث. هل هو عاجز عن إدراك حقيقة أن هذا النفور قد نشأ في اللحظة التي لم يصدق فيها ابنته؟ هل كان جباناً إلى هذه الدرجة حتى أنه عجز عن الوقوف في وجه رؤسائه؟

في كل مرة فكرت فيها في مسامحة والدها، كانت صور مرعبة تمر أمامها لزهرة الصغيرة تجرجر نفسها عبر الحمام، بينما ينسال الدم من بين فخذيها، تبكي بصوت مكتوم، وهي تنتظر بطلها ـ والدها ـ أن ينقذها. إذا لم يكن أبوها هو من يقدم لها العون في اجتياز هذا الموقف البشع، فإنها لا تحتاجه الآن.

16 ـ بيهو مالهوترا

بدأت حالة بيهو تسوء. بدأت تظهر العلامات الأولى للانتكاس لمرض التصلب الجانبي الضموري. تبين من اختبارات توصيل العصب أن هناك فقدان ملحوظ في الإحساس بأقدامها. وفي ذلك النهار، ارتطمت بالباب أثناء دخولها إلى المرحاض. بدأت يداها بخذلانها مجددا. فقد أضحت تسقط الأشياء، وأصبحت أكثر ارتباكا، عاودها الرعب من كونها مصابة بمرض التصلب الجانبي الضموري. لم يزعجها الخوف من فقدان الإحساس والسيطرة مثلما أزعجها الطبيب، الذي كان أول من تصفح التقرير. طمأنت أمها التي كانت حزينة لرؤية ابنتها تعاني عند فعل أبسط الأشياء. «سأكون بخير، يا أمي. لقد عاد المرض أسوأ من ذي قبل».

قالت. «لا لن تكوني، إنه خطأنا. لابد وأننا فعلنا شيء خاطئ». ثم أجهشت بالبكاء. توقف أبوها عند أكتاف أمها، ثم ابتسم لابنته. كان ذلك هو الشيء الوحيد الذي فعله. فلا بد لأحدهما أن يكون قويا، يجمع شتات حياتهم ويذكرهم أنه مازال هناك أمل، وأنه لم يتبدد. ليس من الطبيعي أن تتوقعه من بيهو. سألها والدها. «متى سيحدد العلاج؟»

قالت. «قريبا».

تناقشوا في أمر العلاج مسبقا. العلاج غير قانوني، على درجة عالية من الخطورة، رأت بيهو أن الأمر مربحا لجميع الأطراف. لم تشعر بالخوف من وجود

احتمالين لهذا العلاج بالخلايا الجذعية. أما الموت السريع، موت بلا ألم، أو الشفاء. فقد كان أمرا معقولا بالنسبة لها. مجرد أن رأت نفسها تذبل، وتوشك أن تموت، أدركت السبب الذي جعلها تعاني طول هذه المدة. مازال داخلها تلك الفتاة التي تخاف الموت خلف تلك الابتسامة والتماسك العاطفي. سيقضي عليها إما المرض أو العلاج. فضلت الأخير. استأذنت أمها الباكية للحظة وجلس والدها بقربها. قال أبوها. «هل تظنين أن علينا القيام بهذا، عزيزتي؟»

طمأنته قائلة. «إنه خيارنا الوحيد يا أبي، فالدكتور طبيب ماهر. يعرض نفسه للخطر ليجرب الأمر. أنا متاكده أنه يملك شيئا ما في ذهنه».

قال. «ماذا لو ـ؟».

قالت. «لا تقلق. أنا في أيد أمينة». ضحك والدها كطفل صغير.

قال. «أتعلمين فيم أفكر في بعض الأحيان؟» نظرت اليه وحثته على المتابعة. «كل مرة يأتي فيها ليتفقدك، أفكر ماذا لو كتب لكما أن تكونا معا. أعني كزوجين. أنا أعلم أنه أمر سخيف، ولكن لا أستطيع أن أمنع نفسي من التفكير فيه. فكل المجوهرات التي جلبتها لك والدتك، و... و...أحلامها...»

تراجع صوته.

قالت. «أو. هذا أمر لطيف يا أبي. ولكن ألا ترى أنه كبير بالنسبة لي؟ ولا تنس أنه يحاول أن يقتلني بتجاربه العلمية. ما كنت لترضي أن تزوج ابنتك لرجل يستخدمها كفئران التجارب».

قال. «هذا أمر مضحك. بالمناسبة، لقد جهزت لك شيئا. أتمنى أن يعجبك».

قالت. «من أجلي؟ هدية عيد ميلاد؟ لن أموت في خمسة عشر يوم، يا أبي». وتعجبت إذا كان ذلك ممكن. فعيد ميلادها خلال ثلاثة عشر يوما وتساءلت هل سيمر عليها واحدا آخر أم لا. لم تكن أبدا محبة لأعياد الميلاد. ولكن يقيم

والداها كل سنه حفلة عائلية مع كعك الشيكولاتة، الشموع، والبلالين قلبية الشكل وقبعات أعياد الميلاد! حسنا، ربما كانت محبة لأعياد الميلاد. أشفقت على أصدقائها الذين يقضون أوقاتهم في الملاهي الليلية، متزينين بفساتين جديدة مدعين بقضاء وقت لا يعوض.

أجاب. «أنا أعلم أنك لن تذهبي لأي مكان». اختفت ابتسامته قليلا، ولكنها عادت الآن. «هذا شيء لطالما أردت أن أعطيكي إياه».

أصغت اليه، منتظرة أن يسهب في كلامه. مازحها قائلا. «سأخبرك عن الأمر لاحقا. أظن من الأفضل أن تنامي قبل أن يأتي صهري».

قالت. «أجل، يمكنه أن يكون مزعجا» وأغلقت عينيها. بدأ ذهنها في تخيل صور لها وهي زوجة له في صالة كبيرة للأفراح مع أصدقائها وأقاربها، وكأنه فرح ملكي. رأت نفسها متألقة في فستانها الأبيض الحريري الخلاب، بينما يبدو أنيقا في بدلته السوداء المحاكة بالخيط الأبيض. ومنّت نفسها في احلامها بشهر عسل رومانسي في المياه الزرقاء المائلة للخضار في جزر مالي. والتي تذكرتها في إعلانات الدعاية للإجازات، وغطت في النوم.

ولأول مرة تخيلت أنها تقبل رجلا، وقبضت على وسادتها بقوة. وعندما استيقظت بعدها بساعات، رأت والدها يجول الغرفة بحماس. المفاجأة؟

سألت بتردد. «ما الخطب؟» أجاب. «لاشيء لا شيء». ثم ابتسم. وعلى الفراش المقابل، دوشيانت الذي ظل ساكنا منذ أن كسر ذراعه، نائما بعمق. كانت متشوقة لتخبره بأنها هي التي اكتشفت أمر تسمم الكادميوم. ففي نهاية المطاف، هذا أول تشخيص لها. فبعد أن جلست هي ووالدها متعبين، فتح باب الجناح ودخل عشرات من الوجوه المألوفة وزحموا الغرفة الصغيرة. صاحوا باسم بيهو في بهجة وانسجام. غمرتها السعادة لرؤية أصدقائها من كلية الطب مجددا

وشعرت بأن قلبها سينخلع من صدرها. عانقتهم واحدا تلو الآخر، وفينوجوبال آخرهم. كان صاحب أكبر ابتسامة، وأكثرهم حزنا خلف هذه العيون الخالية من التعبير. لم يأتوا فارغي الأيدي... صناديق مستطيلة متشابهة مغطاه بورق أصفر. يمسك بعضهم ببالونات الهيليوم التي تقبل سقف الغرفة. تساءلت متى ستعود للأسفل؟ هل عندما تذهب إلى النوم. هل سيكون أمرا مفزعا؟

تجمع الكل حولها يسألونها عن حالها. ألقت إليهم واحدة من نكاتها بأنها على وشك الموت وانفجر الجميع من الضحك. أخبروها كم هم فخورين بها وكم هي قوية. قاطعها بضعة فتيات بسؤالها عن دوشيانت. «من هذا؟» قالت وهي تغمز لها. «إنه جذاب، أليس كذلك؟».

قالت. «من الأفضل أن تتركوه وشأنه، إنه مصاب بالايدز».

قالت الفتاة التي ارتعدت. «أنت تمزحين، أليس كذلك؟». قالت. «بالتأكيد. إنها حالة تسمم. بالاضافة إنه فظ، فنحن لا نتحدث اليه». وابتسمت وعين الفتاة ما تزال على دوشيانت.

قالت بيهو. «إنه أمر غاية في اللطف أن تأتوا إلى هنا. أنا في غاية السعادة! هل أستطيع أن أفتح هذه؟ من فضلك؟» تجولت كطفل صغير بين الصناديق الصغيرة، تلمسهم، وتخمن عما يكون بداخلها. لقد كانت تعلم. ولكن هذه مرة من المرات التي تعرف ما بداخل الهدايا ولكن لا تريد أن تصدق حتى تفتحها حتى لا يخيب ظنها.

نظر إليها الجميع بابتسام. ووالدها واقف في الزاوية، والسعادة تشع منه، وتنهمر دموع أمها. فتحت الهدايا الواحدة تلو الأخرى. كانت كتبا، كتبا ضخمة. كتب عن الطب. ياللهول!

قالت. «ما هذا؟» وعيناها مليئة بالدموع، التي كانت على وشك الفيضان.

أصيب زملاءها بالذهول. فقد كانوا على علم بأنها ستحبهم ولكن ابتسامتها المليئة بالدموع فاقت توقعاتهم. قال فينوجوبال. «نحن نعلم أكثر شيء تريدينه. فأنت شخص غريب. ونحن نعطيك ما تريدينه. هذا هو مقرر السنتين القادمتين، إضافة إلى بعض ملاحظات الطلبة المتقدمين». بعد أن أخذت وقتها لتستجمع نفسها وهي تشعر بأن سعادة الدنيا تركزت في لحظة واحدة. كمائة عيد ميلاد مجتمعين في يوم واحد. قالت. «يجب أن أقول أن ظني خاب قليلا، ظننت أنكم تعرفوني أكثر. هل تعلمون أني قرأت نصف هذه الكتب؟» تدلت أكتافهم، في انكسار.

صاحت. «أنا امزح بالتأكيد! فهذا أفضل ما يمكن أن أحصل عليه! فليس لديكم أدنى فكرة عما يعنيه هذا لي. وإذا كنتم تظنون أنكم تعرفوا، فأنا أشعر بأكثر من هذا بأضعاف». فضحك الجميع. عانقتها فتاتان بدأتا في البكاء.

قالت. «على كل، رغم أني لم أكن أمزح تماما، لقد انتهيت من القليل منهم».

صخب المكان ببعض النكات، وبعدها تحولت الغرفة الى فصل في الجامعة، بعد آخر امتحان، الذي لم يستعد له أحد، شعر الجميع بارتياح لانتهائه. غادر والدا بيهو. صارت الغرفة كما تصفها المدرسة في الكلية بسوق السمك! فالمكان يملؤه الصياح، النكات، الضحك. لم يكن أحدا فيهم على استعداد أن يهدأ.

بدأوا في النقاش حول أساتذتهم، عن حيلهم، التشريح، وغيرها من الأمور المتعلقة بكلية الطب، نميمة عن من اكتشفوا وهم يتبادلون القبلات ومن يخون من. وفي وسط الحديث، أغلقت عينيها للحظة وتخيلت نفسها وسط الجثث المجمدة، تمرر بها المشرط، تدرس ما بداخلها، وتسجل الملاحظات. وفي تلك الأثناء، شعرت بأنها تعيش الحياة داخل كليتها. طلب فينوجوبال البيتزا، المحشوة بثلاث أنواع من الجبن الساخن، قاموا بأكلها كرجل كهف جائع. في استطاعة

بيهو جعل الناس يتحدثون، حديثها شيق يعشقه الناس. ماعدا الفتى على الفراش الآخر، صاح دوشيانت. «هلا خفضتم من أصواتكم؟ بحق السماء؟».

أجاب فينوجوبال. «ما هذا بحق السماء ـ؟».

هدد دوشيانت. «إذا لم ترحلوا في هذه اللحظة من الغرفة، سأقوم بطردكم جميعا».

رد أحدهم. «فلتجرب».

أضافت فتاة من الفتيات التي كانت تبكي قبل قليل. «أجل، عليك اللعنة».

انفجر الدم في عين دوشيانت، مثل شرايين العين الغير مرئية لكنها تفرض حضورها، صاح. «عليكم اللعنة». وانتزع الأنابيب من يده. انتفخت العروق في جبهته بينما بيهو تشاهد الموقف في ذهول ورعب. وقبل أن تستطيع التصرف، قفز دوشيانت تجاه فينوجوبال وضربه بقبضته، تلك التي عرفت مكانها بدقة إلى ذقنه. تمدد فينوجوبال على الأرض في ألم واضح. توجه دوشيانت إلى الفتى التالي، متحاشيا الفتيات وهاجم بقبضة مفتوحة. أصابت قبضته الفتى الآخر ووقع على الأرض.

صاح ووقف مكانه وهو يتنفس بصعوبة. «هل ثمة شخص آخر؟» وتمتمت إحدى الفتيات أخيرا. «يا له من أحمق» بينما ينظر الجميع إليه محدقين.

ضغطت بيهو زر الطوارئ لحظة اعتداء دوشيانت على فينوجوبال، حضر رجلان إلى الغرفة مسرعين. جاء معهما، الذي كان في الجوار، واصطحب الحارسين للداخل. أمسك الرجلان بدوشيانت، الذي ضربهم بدوره وصدمهم بالباب. ساعد الفتية الآخرين أصدقاء بيهو المستلقين على الأرض، محاولين التغلب على الرعب والصدمة. بعد أن أوجع رجال الحراسة، تركهم يذهبون واستلقى على فراشه. صُدم للغاية كغيره ولم يستطع القيام بأي رد فعل. تذمر وقال بينما ينظر إلى

دوشيانت. «ماالذي يحدث هنا؟». وطلب منه تفسير. كان مطبقا قبضته، أدركت بيهو أنه ممسكا نفسه عن توجيه اللكمات لوجه دوشيانت.

رد دوشيانت. «لقد كانوا يعبثون معي. فرددت لهم الصاع صاعين». قالها وعينيه تشع نارا.

أمر. «أحضروا هذا الحقير الى قسم اختبار الأمراض». لايزال الفتية خائفون من دوشيانت. «أمسكوا معصميه. سأتعامل معه لاحقا».

قال دوشيانت. «سأذهب بنفسي» وانصرف. «حمقى، كلكم حمقى». ثم استدار وتوجه ازاء الباب.

ناده. «أيها المتحذلق، الفتاة التي تدعوها بالحمقاء هي من أنقذت حياتك عديمة الفائدة. تسمم الكادميوم. لم يكن في مقدور أحد أن يتوصل لهذا، ولكنها فعلت. أتمنى لو أنها لم تفعل وأنك مت في فراشك». نظر دوشيانت إلى الخلف مندهشا. فقد تسبب الألم المبرح جراء السقطة في تخدير عقله، فحقيقة أن بيهو هي من شخصته لم تخطر على ذهنه. وأضاف. «ارحل قبل أن أقذف بك إلى الخارج».

غادر دوشيانت الغرفة من دون كلمة واحدة. شعرت بيهو بالخجل، حيث الجميع ينظر إليها باعجاب.

قال مؤكدا. «نعم قد فعلتها، أفضل من بعض الأطباء. أنا متأكد».

قالت بيهو. «إنه فقط يتعامل بلطف مع فتاة تحتضر».

قال فينوجوبال: «هلا توقفتي عن هذا؟ فتاة تحتضر وهذا الهراء. فلا أحد هنا سيموت».

انضم إليه الآخرون. «أجل». قال ولوح بيده. «بالمناسبة، أنا الدكتور». عمت

ابتسامات التقدير المكان حيث أن معظمهم سمع عنه. أما عن من لم يسمع به، فقد أخبرتهم بيهو عن الطبيب الجذاب الذي بالمستشفى.

ضحكت واحدة من الفتيات وقالت. «بيهو تظن أنك لطيف». ابتسم ورد. «أنا أيضاً أظن أنها مذهلة، أليست كذلك؟» لم يجب أحد، ولو أن حدقت به الفتيات بعيون ثابتة ورفرفوا برموشهن. لم تكن بيهو ترتاح لنظرة الفتيات إليه كاشفين عن ابتساماتهن البديعة. فهو ملكها فقط. فهي التي على وشك الموت. فهي استحقت الطبيب الشديد الجاذبية الذي يعمل منقذا للأرواح. ولكن لحظة! هل أخبرها لتوه أنها مذهلة! قال وهو يمسك أحد الكتب الملقاة على السرير. «أظن أنه يجب أن أذهب الآن. أنت تطعمين إدمانك، أتمنى أن تعرفي ذلك».

ردت. «تعاني من نفس الإدمان».

قال. «يجب عليكي أن ترتاحي وليس أن تقرأي كتب الطب».

سألت. «ماذا عنك؟ متى آخر مرة نمت فيها؟».

قال مجادلا. «أنا لا أحتاج النوم. أنا مشغول بمساعدة من هم مثلك، وهذا ليس إدمانا». ثم قال. «يجب أن تنامي. أعيدي الكتاب إلى مكانه. سأتفقدك لاحقا. وداعا يا رفاق. كان يجب أن تجلبوا المجوهرات أو شيء آخر... هذا لا يعني أنها تحتاج شيئا لتبدو جميلة».

استدار وغادر الغرفة. ولعدة ثواني، بدا وكأن أحد غيره لم يكن هناك بالغرفة.

عادت المحادثة في الغرفة لتتناول الطبيب الفاتن، الذي بدا واضحا أنه يكن شيئا لبيهو.

قالت إحدى الفتيات. «أظن أنه معجب بك».

قالت بيهو. «يفترض منه أن يكون لطيفا فهو طبيب!».

أضافت فتاة أخرى. «بالله عليكي! ألم تشاهدي كيف ينظر اليكي؟ من الواضح أنه معجب بك! كأننا لسنا متواجدين!»

قالت بيهو باستهجان. «فليكن، فلنناقش أي أمر آخر، هناك العديد منها». رغم أنها لم تكن تفكر في سواه. جميل. مذهل. الجميع في نفس الحديث. شعرت وكأنه عيد ميلادها في نهاية المطاف.

غادر الجميع بعد فترة صغيرة. تمنى لها الجميع التوفيق، آخرون بالحياة، وغيرهم بالخير في علاقتها مع طبيبها. فقد جاءوا خائفين من أن يجدوا فتاة فاقدة الأمل، ولكن وجدوا فتاه تملؤها الحياة أكثر منهم مجتمعين. فينوجوبال كان أطولهم عناقا لها وأخبرها بأنه بدأ بمواعدة الفتاة. الفتاة التي بكت. هزت بيهو رأسها بالموافقة. عاودتها أحلام اليقظة مرة أخرى، بينما هي وحدها بالغرفة. في هذه المرة، هو الأستاذ وهي الطالبة المتحمسة في أول صف، والتي ستفعل أي شيء للحصول على علامات جيدة. أي شيء!. خجلت في نومها وهي تتخيله يقبلها في حجرته. غيرت الموضوع ببطء قبل أن يصبح الأمر أكثر بذاءة.

استيقظت لتجد الغرفة خاوية في وقت متأخر من الليل. لم تنم جيدا حيث كانت الكتب مصدر تشتيت لها، يطلبون منها تركيزها الكامل. تتقلب طوال الليل، تفكر في الوقت الذي ستستيقظ فيه لتكتب اسمها بالحبر الأزرق على الكتب المهداة. أرادت بشدة أن تستخدم القلم المهدى من فينوجوبال. وقد كانت مفاجأة سارة بأن فينوجوبال بدأ بمواعدة فتاة حقيقية بعد العديد من الفتيات المتخيلات، تخيلت الفتاة التي بكت اليوم تضحك على لغة فينوجوبال الإنجليزية السيئة. لقد افتقدته وافتقدت الجامعة. وتفتقد في بعض الأحيان الجزء العملي في دراستها للطب، تشريح الجثث ومعرفة ما بداخلها. رئات تالفة، بنكرياس متقلص، كبد مدمر، تلك الأشياء تجعل جلدها يقشعر ووجهها يتهلل. قامت وتوجهت إلى الحمام. لم تكن يداها وقدمها أقوياء كفاية لدعمها، غسلت

وجهها. فربما جسدها أوشك على الاستسلام أما روحها فلا. بالاضافة أنه نعتها بـالمذهلة. فلديها جميع الأسباب لتكون سعيدة أكثر مما كانت عليه ذات يوم. دغدغ مشاعرها إحساس الدفء، ورفضت الابتسامة الخجولة أن تغادر وجهها.

وعندما عادت إلى الغرفة، التقطت بعض الكتب ووضعتهم على السرير. وكتبت بالقلم: بيهو مالهوترا، السنة الثانية، كلية الطب بدلهي، على كل كتاب. ولحظة انتهائها، التقطت كتاب عن السرطان وتصفحته. كان به صورا ملونة ومملوء بملايين النصوص. فتحت فصلا عشوائيا وبدأت في القراءة. لا يوجد اختبار، إنها متعة دراسة الطب.

عند فتح الباب كانت قد وصلت للصفحة الخامسة، رأت دوشيانت يدخل. ذهب مباشرة إلى فراشة. دخل وراءه فتيان وثبتوا الحقن والمحاليل.

لم تشعر بالكره تجاهه بالرغم ما حدث مؤخرا هذا الصباح، خلال التسعة عشر عاما لم تشعر بذلك تجاه أحد. ومع ذلك ضحكت بشدة عندما قال لها فينوجوبال. «لو لم يكن مريضا، لكنت لقنته درسا». فبيهو تعلم أنه لن يفعل شيئا مثل هذا. ففينوجوبال شخص لطيف. أما على الجهة الأخرى، فدوشيانت متعطش للعراك وجريح حرب. شعرت بالتعاطف تجاهه، لغضبه، لافتقاده للأصدقاء، ولما أصابه. فهو يستطيع القتال، والفتيات يحبون ذلك في الرجل. لم تكن بيهو مختلفة. مفتول الذراعين، غضب في عينيه، ثقة. فكل ما ينقصه هو قلب رحيم.

17 ـ دوشيانت روي

تقطعت أوصال دوشيانت من شدة الألم مع دخول الحقنة إلى وريده وجريان السائل الشفاف في مجرى الدم. كانت عيناه عالقة على السرير المجاور له ـ إنه فارغ ـ فحصت زهرة الأدوية وسحوبات الدم.

قالت. «تبدو تائها».

تطلع دوشيانت بعيدا عن سرير بيهو وأجاب. «ليس تماما. لم تأتي في الصباح. لماذا؟».

حضرا والداي للعيش معي. أرادا أن أقضي بعض الوقت معهم. لذا حصلت على إجازة هذا اليوم». قالتها وأدارت عينيها. «تبدو حزينا. لا أستطيع البقاء في البيت أكثر من هذا. أعني... الأمر يبدو طبيعيا عندما أبقى عندهم. حيث كنت أعيش، ولكن لا أستريح لبقائهم عندي».

«أستطيع أن أتفهم».

«لا أتصور أنك تستطيع».

«لماذا لا تدفعيني لذلك؟».

سأل الممرضة التي تغرز الحقن في بدنه بشكل متواصل. «هل انتهيت؟». أومأت الممرضة وانصرفت.

«تبدو أكثر احتمالا اليوم. ما الأمر؟». تساءلت مع ابتسامة متكلفة.

«ماذا تعني؟».

«عادة، من الصعب أن يتحمل الناس التواجد بالقرب منك. أنت عدواني ووقح بلا داعي. لا تقل لي أنك لا تعلم هذا. لست ـ »

قاطعها. «أوه، من فضلك، أنت. فليكن. بالمناسبة، لماذا لم تخبريني أنها من قام بتشخيص مرضي؟» سأل. «هل فعلت حقا؟ أو كان يثرثر فقط؟».

«أولاً، لا يثرثر أبدا. وقد فعلت حقا. نجحت في التوصل للتشخيص المناسب بمجرد انكسار عظامك». أوضحت. «لا تتأثر وتندهش بهذا الشكل أبدا».

قال متذمرا. «اللعنة».

«ماذا حدث؟».

«أظنها كانت تحتفل بعيد ميلادها أو شيء من هذا القبيل. حضر عدد قليل من أصدقائها إلى هنا هذا الصباح، وأحدثوا ضوضاء بشعة... و... و؟» وغمغم. «ضربت بعضهم».

سألت مذهولة «ماذا فعلت؟».

«لقد كنت غاضبا. طلبت منهم أن يصمتوا ولكنهم امتنعوا». اعترف خجلا. «لكمت أحد الشباب، وضربت الآخر».

«هل أصابك الجنون يا دوشيانت؟ وماذا فعل؟».

«أعتقد أنه أراد أن يضربني لكنه لم يفعل. نقلني إلى غرفة أخرى لبعض الوقت، ثم أعادني إلى هنا مرة أخرى الليلة الماضية. أشعر بالهزال الآن لماذا كان على تلك الفتاة أن تقوم بتشخيص حالتي». وقال غاضبا. «إنها فتاة مزعجة».

«لماذا؟ إنها إن لم تفعل ذلك، ربما كنا قتلناك». قالت. «كنا نعالجك من مرض آخر. عليك أن تشكرها لما فعلته من أجلك».

«أعتقد أنه يجب أن أفعل هذا. إنها فتاة لطيفة على كل حال. لماذا اختارت هذه الغرفة بالذات؟» أصدر صوتا كالصرير ثم أراح رأسه للخلف. إنها شديدة الازعاج. لو كان باستطاعته أن يختفي قليلا. لفعلها. فعل دوشيانت الكثير من الأشياء التي لا يفخر بها، لكنه لم يشعر بالأسف لفعلها أبدا. ولكن في تلك اللحظات، كان يشعر بالأسف. تطلع إلى سرير بيهو برغبة أن يعتذر لها. الأمر بالنسبة له سواء، مات أو عاش، لا يهم. عادة ما كان يشعر بالرعب في صباح اليوم التالي عندما يصحو، يجر نفسه ليوم جديد. لكنه شعر أنه غريب قليلا لاعتدائه على أصدقاء الفتاة التي أنقذت حياته. قال فيما يشبه النعيق. «أحتاج للتدخين».

سألته وهي تجلس إلى جواره. «هل أنت واثق؟».

قال. «أجل، مؤكد. أنا أيضاً في حاجة إلى تقديم الشكر لها. أعيدي عليّ اسمها مرة أخرى؟».

قالت متعجبة. «بيهو. لا تقل لي أنك لا تعرف!».

«أعني... أعرف، لكني نسيت الاسم. هل نستطيع الذهاب؟».

أزالت زهرة الأنابيب وساعدته أن ينهض من فراشه. في طريقهم للخروج، أخذت زهرة بيان بيهو المعلق على مدخل الغرفة وقالت. «إن عيد ميلادها ليس قبل أسبوعين من الآن. أعتقد أنك يجب أن تحضر لها هدية».

سأل. «هل تعتقدين أني سأبقى هنا لأسبوعين». بينما بدا على صوته الانفعال الشديد.

«هناك أورام في كل مكان نفحصه يا دوشيانت. إنك محظوظ لبقائك على قيد الحياة». ثم قالت. «أعتقد أنك ستبقى هنا لفترة طويلة».

«أنا حقا بحاجة إلى التدخين».

غادرا الغرفة وسارا عبر الممر دون كلمة واحدة، صعدا عبر المصعد إلى الدور السادس، ثم دخلا الشرفة.

كان لدى زهرة عدد قليل من لفافات المخدرات، المعدة ببراعة ـ في حقيبتها، مما أسعد دوشيانت بشدة، إذا لم يكن مندهشا.

قال. «هذا رائع». بعد أن تفحص اللفافة التي بين أصابعه.

«ماذا؟» سألت. «كنت تعتقد أنني لا أستطيع أن أعد لفافة مخدرات؟»

قال ضاحكا. «لا تبدين من هذا النوع. ولكن على أي حال، لا تبدين ذلك النوع الذي يخاطر بحياة مريض. أيضاً، بنزع الأدوية ومساعدته في الحصول على النشوة بتدخين المخدرات».

«أنا لا أخاطر بحياتك. إنها لتهدئة الألم. هذه هي الماريجوانا الطبية!» وقالت مدعية. «إنها شرعية».

«ستكون قانونية إذا لم تكن في غفلة من الآخرين، كما هو حالنا هنا». قال بعد أن سحب نفسا عميقا. «لا أعتقد أنهم يعطونها لك كي تقومين بإيقاظ مريض ومنحها إياه لتدخينها». أعلق الدخان حنجرته أثناء خروجه وخدر أحاسيسه.

«فليكن».

«حسنا، هذا أمر جيد. أوافقك أن هذا يخفف الألم». ثم أضاف. «إنها قوية بشكل لا يصدق». سألها. «لكن، ما الألم الذي تحاول أن تخففه؟». أعطاها اللفافة لتدخن.

هزت كتفيها. «لا شيء».

«هيا! عليك أن تفتحي قلبك لي. أنا تقريبا رجل ميت». ثم ضغط عليها. «لن تذهب أسرارك إلى أي مكان».

«أنا متأكد من أنك يمكن أن تثقي بي. بعد أيام قليلة سأختفي من هذا العالم. وإذا كنت تعتقدين أنني لا أستحق تلك الثقة، بإمكانك أن تقتليني أثناء النوم».

ردت بحدة. «لا يمكن، إنه أمر شخصي».

«لا عليك، كنت فقط أحاول المساعدة».

«أعرف هذا. الأمر أنني لم أشارك أحدا في هذا مطلقا. لا أعتقد أن الأمر يبدو منطقيا أن أتشارك معك في هذا السر، أكاد لا أعرفك». بدت عيناها زجاجية شاردة.

يعلم دوشيانت أنها ضعيفة، وأنها سوف تحكي كل شيء. إنه فقط أراد أن يضغط عليها قليلا.

«تستطيعين. كنت أقرأ كتابا عن جنود الحرب. إن معايشة أهوال الحرب مرة ومرات يجعل احتمال الألم أمرا سهلا». وأكد لها أن تقاسم الأمر معه ربما يساعدها على التجاوز.

ردت. «لا أعرف ـ »

قاطعها. «تعرفين أنك تريدين...»

ترددت زهرة ونظرت بعيدا عن عيني دوشيانت الفضوليتان الحادتين. تساءل دوشيانت. ماذا تخفي عنه خلف تلك العيون الزجاجية والهيئة المحصنة.

قالت بألم. «لقد تعرضت للاغتصاب». ثم فرت من عينها دمعة وسقطت على خدها.

وقف دوشيانت مذهولا، لا يصدق ما سمعه لتوه. تردد الكلام في الفضاء القريب منه، عاجزا عن تصديق ما قالته له.

لابد أنها تمزح.

أكد الصمت جدية الأمر. جفت حنجرته؛ وصارع لقول شيء.

«ماذا؟ لماذا؟ من؟ متى؟ ماذا فعلتي؟». لا رد، لكن هربت من شفتيها تنهيدة ما إن حدق فيها، كأنه رأى شبحا أمام عينيه.

وقالت زهرة. «يملك أبي شركة تجارية كبيرة. خلال إحدى حفلات العمل، اغتصبني اثنان». وفجأة، تلاشت الدموع من عيني زهرة، واستبدلت الكآبة على وجهها بتعبير هاديء، متمرس، غير مكترث.

سأل دوشيانت. ما إن استعاد صوته. «ثم ماذا حدث؟».

قالت زهرة. «لم يحدث أي شيء». قالتها زهرة بصوت حاسم لإنهاء الحديث.

تسائل. «ماذا يعني لا شيء؟ ألم تخبري أحدا؟ والديك؟ والدتك؟ أبوك؟».

حدقت زهرة دون أن تنطق بكلمة في أضواء المدينة المتلالئة بينما دوشيانت يقف في انتظار الإجابات. شعر دوشيانت أنه من تعرض للاغتصاب وليس هي، تجمدت قبضتا يديه في غضب. اقترب منها. بينما شعر زهرة يطير على وجهه. دعاه جزء منه أن يديرها بيديه ويحضنها بين ذراعيه، لكنه خشى من رد فعلها.

قال دوشيانت ضاغطا عليها. «بإمكانك أن تخبريني».

تراجع صوتها وخفت. «حاولت أن أخبر أبي».

«ماذا قال؟ لم يفعل شيئا؟». زأر دوشيانت، انتفخ عرق الغضب في جبهته.

«لم يصدقني».

«لم يصدقك؟ أنك تعرضت للاغتصاب؟ اللعنة؟ كيف يمكن هذا؟». أمسك دوشيانت يدها وهزها بعنف، كأنها يمسك بهؤلاء المغتصبين.

«هناك اختبارات، أليس كذلك؟».

«لم أخبره أنني تعرضت للاغتصاب. أخبرته أنني تعرضت للاهانة... للأذى».

«لماذا؟ امممم...لكن...» كان دوشيانت يصارع الكلمات. ترنح في الظلام ليتوصل إلى تفسير لعدم تصديق والدها روايتها، ولماذا كان عليها أن تكذب. تساءل ماذا لو أخبرت كاجال أي شخص بما حدث في تلك الليلة.

قالت زهرة بصوت معدني. «رفض أن يصدقني وقال أني أتخيل. لم أعرف ماذا أقول له».

«ولم تخبري أحدا بهذا مطلقا؟» دوشيانت لازال يحاول الضغط عليها ليحصل على الإجابات، محاولا أن يفهم سببا لهذه البشاعة.

اعترفت زهرة. «أنت أول إنسان على وجه الأرض يعرف هذا الأمر».

«لماذا؟» شعر دوشيانت بحمل فجأة، ودون مقدمات، شعر بمسؤولية لما حدث لزهرة منذ خمسة عشر عاما.

بدأ يتخيل فتاة وحيدة مسكينة تتعرض للاغتصاب بواسطة اثنان من رجال الأعمال، وهي تصرخ من الألم دون حول ولا قوة. شعر برغبة تتزايد في التقيؤ. سأل دوشيانت متمنيا الأسوأ. «ماذا عنهم؟ هذان الرجلان...»

«مات أحدهما منذ عام. أما الآخر، فقد تعرض لحادث في البيت وسقط في غيبوبة». قالت باحساس المنتصرة. «التهمته مروحة ومات أيضاً».

تلعثم دوشيانت. «أتمنى أن كان ذلك مؤلما».

قالت. «هذا حقيقي! من يستطيع ألا يفعل؟». قالت زهرة وهي تتململ في مكانها. «لقد كرهت الرجال منذ ذلك الحين. أشعر بالرعب في وجودهم. أكره أن ألمسهم وأتمنى ألا يقتربوا مني».

فكر دوشيانت. كل الرجال سواء، بينما تأتيه ذكريات تلك الليلة التي اعتدى فيها على كاجال.

«كان على أبيك أن يقف إلى جانبك. هذا ببساطة غير مقبول... أو ألهذا السبب لا تشعرين بالراحة مع والديك؟»

صححت له. «أبي فقط».

تساءل دوشيانت. «ألا تعتقدين أن من حقه أن يعرف هذا؟ أو لك الحق أن تخبريه بالحقيقة؟».

سألت زهرة. «وما فائدة هذا؟» بينما وجهها يحاول أن يبدي عدم الاكتراث، حتى لو لم تفعل.

قال دوشيانت. «من يدري. أعني أني لا أعرف لماذا فعل والدك ما فعل، لكنك بحاجة إلى إخباره عن الخطأ الذي ارتكبه». قال. «كان عليه أن يكون إلى جوارك بينما لم يفعل».

قالت زهرة. «لا أعتقد أن هذا سيفيد». أوضحت. «لقد تجاوزت الأمر».

قال دوشيانت. «تجاوزتي الأمر؟ إنك على وشك البكاء يا زهرة».

قالت. «لا ـ» وغرقت في بركة من الدموع. وقبل أن ينطق دوشيانت بكلمة، احتضنته وبدأت تبكي بحرارة.

احتضنها دوشيانت بيديه محاولا أن يهدئها كي تشعر بتحسن، بينما يتساءل طيلة الوقت ما إذا كان أساء لها بلمسته. إنه مغتصب كذلك على أية حال.

قالت زهرة. «أعتقد أن علينا أن نذهب».

قال لها. «كلا». واحتضنها بقوة. «أعتقد أنك بحاجة أن تبقي هنا، معي».

«حقا ـ »

قاطعها. «لن أدعك تذهبين».

قالت. «أحتاج لبعض الهواء المنعش، فلنقم بنزهة». وهي تحاول ألا تبكي أكثر من ذلك.

أومأ دوشيانت. وبينما ينزلان بالمصعد إلى الطابق الأرضي للمستشفى، شعر دوشيانت بألم شديد في الجزء الأسفل من بطنه. اعتصر الألم دوشيانت لكنه نظر إلى الجانب الآخر.

سألت زهرة. «هل أنت بخير؟».

قال مبتسما. «ألا يجدر بي أن أسألك أنا هذا السؤال؟».

فكر أنه بحاجة إلى لفافة أخرى يدخنها. سجلت انصرافها في دفتر العاملين ثم خرجت نحو موقف سيارات الأطباء.

تمتم. «سيارة جميلة». خفق بطنه. إنه بحاجة ماسة إلى مسكنات.

قالت. «إذا كانت هذه مزحة، فهي سخيفة». ثم ظهرت ابتسامة خلف الدموع المتواصلة.

دخلت السيارة وتحركت. ما إن وصلوا الطريق الرئيسي، حتى جفت الدموع وسط تيار من الهواء تدفق عبر نافذة السيارة.

قال. «هل ستخبريه؟» زاد الألم ووصل إلى مؤخرته. شعر كأن أحشاؤه مثل الخلاط. بدأ يتعرق، يداه صارت مبتلة ولم يساعد الهواء في تجفيفها.

أجابت. «لن أخبره بشيء».

«لكن هناك سبب هام... عليك أن تفهمي هذا. ما الضرر على أية حال؟

تقولين أنك تجاوزتي الأمر، أليس كذلك؟. من فعلوها ماتوا بالفعل. لم تتصالحي مع أبيك حتى الآن». قال متذمرا. «أعتقد أن عليك أن تخبريه». تصاعدت حدة الألم في جسده، وصار جسده أكثر سخونة، محاولا أن يهزم الألم... جرى الدم في وجهه وشعر كأن عينيه ستنفجران. كأن شخصا أمسك بجسده، سحقه، طواه مرة ومرات.

قالت زهرة دوشيانت. «هل أنت بخير؟ تبدو كأنك محموم...»

أجاب. «أنا بخير». شعر أنه سيموت في أي لحظة.

قالت. «لا تبدو بخير». ووضعت يدها على جبهته. «إنك تكاد تحترق!».

فتح فمه ليقول شيئا لكنه تقيأ كل ما في جوفه. فتح الباب وأفرغ كل شيء على الرصيف. اهتز ظهره بشدة، واندفع الدم من جوفة مع طعام نصف مهضوم. انحنت زهرة وربتت على كتفه لتهدئته لكن جسده لا يزال يرتعد على نحو سيء، انتشر الدم في أرجاء المكان. وبعد أن انتهى، انقلبت عيناه كأنه فارق الحياة. أعادته زهرة إلى السيارة، واتجهت بالسيارة صوب المستشفى بأسرع ما يمكنها.

كان بانتظارها ثلاثة من الحراس بنقالة على الباب الرئيسي للمستشفى.

هرولوا نحو وحدة الرعاية المركزة، بينما دخلت زهرة كالمجنونة لترتدي معطف الطبيب. أسرعت إلى غرفة العمليات حيث لاحظت أن دوشيانت مر بالفعل بنوبة، وأن الأطباء يفتحون فجوة في حنجرته لمساعدته على التنفس. قاوم جسد دوشيانت بتلقائية السكين الذي كان يخترق خنجرته. وقفت زهرة هناك، مذهولة، بينما يدفع الأطباء الأنبوب داخل حنجرته. بينما وقفت عاجزة عن تحمل الأمر، خرجت من الغرفة بصعوبة، وكادت تفقد الوعي، فسقطت على أريكة بالخارج. استطاع دوشيانت الذي يرقد نصف ميت أن يلمحها وهي متجهة إلى خارج الغرفة قبل أن يسقط في غيبوبة بفعل الألم.

18 ـ أرمان كاشياب

كان يغط في نومه حين رن جرس الهاتف. وهذه هي المرة الأولى منذ أسابيع التي عاد فيها إلى مسكنه، ليفاجأه اتصال هاتفي مزعج، آخر ما تمناه. وبعد الرنة الخامسة اضطر لرفع السماعة. تعرض المريض في الغرفة رقم **502** إلى نوبة كلى، تكاد كليتاه تتوقفان. لقد تقيأ دما وتوجب صنع فتحة عبر حنجرته حتى لا يحتنق حد الموت. اللعنة.

بعد ما حدث في تلك الغرفة بين أصدقاء بيهو ودوشيانت، لم يكن ليهتم إذا عاش دوشيانت أو توفي. إنه بمثابة كرة نار مشتعلة على أية حال. اتجه من فوره إلى الحمام واغتسل بسرعة. بينما الماء ينهمر على جسده، أدرك أن وزنه زاد خلال الأعوام القليلة الأخيرة. لم يعد ذلك الشاب، الرياضي، الساحر. صار جسده فجأة صلبا كالجرانيت، يشيخ ببطء، عيناه أصبحتا غائرتان من التعب، من الساعات الطويلة التي يقضيها في المستشفى، كان واقفا أمام المرآة يتساءل: كيف يبدو والداه بهذه الشباب في هذه العمر. وكان الجواب واضح كما كان دائما ـ جمع المال من مهنة الطب أسهل بكثير من الخروج للعمل وصناعة الفارق ـ

كان يجلس في سيارته البي ام دبليو اللامعة الزرقاء، وهي واحدة من عدد قليل من الهدايا التي انهالت عليه في الماضي في عيد ميلاده. انطلق خلال حركة السير الصباحية ليصل إلى المستشفى خلال خمسة عشر دقيقة. لاحظ سيارة

زهرة واقفة دون اكتراث في موقف للسيارات. دخل الاستقبال ومنه مباشرة إلى مكتبه. وفي طريقه، غير غرفة الجراحة، حيث كان دوشيانت. دخل ليعرف ماذا جرى. تعقد حاجبيه.

«وضع اثنين، اثنان معا». قال غاضبا في طريقه إلى مكتبه.

«فيم كنت أفكر بحق الجحيم؟» كانت زهرة في حالة ذهول، وارتسم شكل مفرش الطاولة على وجهها.

«ماذا؟». سألها. «ماذا علي أن أقول لك؟ كدت تقتليه. أولا دفعتيه للتدخين، ثم أخذتيه لنزهة خارج المستشفى؟ فيم كنت تفكرين، تتسببي في موقف كهذا؟».

«أنا ـ »

«لو كان أحد آخر في مكاني، لفقدت وظيفتك على الفور!» وقال غاضبا. «لقد أوشكت أن تقتلي شخصا في الليلة الماضية. لا أدري إن كنت قادرة على استيعاب ماذا يعني أن تكوني طبيبة، لا أن تكوني سببا في نزيف المرضى حتى الموت. هل تفهمين هذا؟ هناك قواعد ولوائح لابد أن تتبعيها. ما مدى صعوبة أن تفهمي هذا؟ لا أعرف ماذا تتشاركين مع هذا الشخص التافه نص الميت، ومهما كان، لا يجب أن يؤثر هذا بشكل سلبي على علاجه. لن أتحمل سقوط دمه على يدي».

«أنا آسفة».

قال وهو يضرب بقبضته على الطاولة. «ماذا كنت تظنين أنك فاعلة؟ مريض عليه أن يبقى في المستشفى حتى يتم علاجه ويخرج، هل في هذا صعوبة عصية على الفهم؟».

ارتعشت شفاه زهرة حتى أن باستطاعة أرمان أن يرى يداها ترتجفان من الخوف. على الرغم من ذاته لم يبد احتراما للقواعد أو اللوائح، إلا أنه يجب على الجميع أن يدرك أبعاد تلك القواعد واللوائح تماما. وهو الشيء الذي عجزت الطبيبة الشابة على فهمه. كانت الفتاة أمامه تنظر إلى ركبتيها وتهتهم بكلام غير مفهوم.

سأل. «هل يمكنه التحدث؟».

همهمت. «كأنك تحترم القواعد».

«ماذا تعني؟».

«أعلم أنك على وشك القيام بعلاج تجريبي لبيهو، أليس كذلك؟».

جف الدم في وجه أرمان وحدق في وجه زهرة برعب. «كيف عرفت هذا؟». سأل. «من قال لك هذا؟».

أجابت الفتاة بعد أن نظرت في عينيه. «لا أحد. أنا لست غبية. رأيت التقارير والاختبارات المتكررة التي تجرونها على الفتاة. لا داعي للقلق، سرك بأمان معي. أنا على ثقة إنك بصدد أمر ما في رأسك». بدا صوتها قويا وحازما. «نعم، تصرفت من تلقاء نفسي بالأمس، أشعر بالأسف لذلك. سأعمل جاهدة حتى لا يتكرر هذا الأمر ثانية. إن المريض يعني الكثير بالنسبة لي، تماما مثل بيهو بالنسبة لك. سأفعل أي شيء حتى يعيش. أنا حقيقي آسفة لأني خذلتك».

تمتم. «لا أعتقد أن أمامه الكثير من الوقت».

قالت زهرة كقريب قلق. «كلا؟ مالذي يجعلك تقول هذا؟». لم يملك قلبا ليخبرها، خاصة ما دام رأيه قائما على خبرته وفطرته أكثر من الدراسات الواقعية ونتائج الفحوصات..

«جسده بالكامل يحتضر. عانى كبده من أضرار بالغة لا يمكن علاجها، والآن جاء دور الكلى. وهو أضعف مما كنا نظن. ولا يعني أنه لا يبكي من شدة الألم أنه لا يعاني شيئا. ربما يكون بحاجة لإجراء عملية زرع، والتي من الصعب أن تحدث نظرا لتاريخه الطويل في إدمان الكحول والمخدرات. لا أعتقد أنه سيخرج من هنا على قيد الحياة».

«لكنه كان يتحسن ـ »

«إننا عالجنا الأعراض فقط. جسده هو ساحة المعركة بين الأمراض والأورام، وليس في مقدورنا أن نعالج كل شيء. أي تعامل متطرف مع معاناته سيدفعه للموت بأسرع مما نتخيل. ولا يمكننا أن نعيد زرع كل خلية في جسده من جديد. لقد فات الأوان لإنقاذه، على الرغم من أنني كنت على خطأ من قبل».

رغم أن له هذه الشخصية الحادة، إلا أنه لم يحب مطلقا أن ينقل أخبارا سيئة لأحد. ولا حتى زملائه الأطباء. كان على علم بالعلاقة التي تربط دوشيانت بزهرة، وتطورها، لكنه لم يكن ليجرؤ أن يخبرها بهذا. أما أمر تعافي دوشيانت المتدرج، على مدار الأيام القليلة الماضية، منح الجميع ـ زهرة، بيهو ـ أملا أن الوقت كفيل أن يصلح كل شيء، ويخرج دوشيانت بلفافة مخدرات بين شفتيه. قالت. «هل من الصعب أن نزيل الأورام؟».

«من الكلى التي تتهاوى؟».

قالت. «ما هي إذن الخيارات المتاحة أمامنا؟».

شرح. «يمكننا زراعة كلية جديدة، وربما كبد جديد، إذا ما تدهورت حالته، لكن مع ضيق الوقت، لا يمكننا أن نحصل على شيء».

قالت. «أنا من سيملأ استمارة التبرع. كم من الوقت تبقى لدينا؟».

أجاب. «لن يتعدى ثلاثة أو أربعة أسابيع على الأكثر». لم يكن يملك من

الكلمات ما يساعد على تهدئة تلك الطبيبة الشابة التي يعلم أنها ستأخذ مسألة الموت على محمل الجد. لا ينسى الأطباء أبدا أول حالة وفاة يواجهونها في حياتهم. إنها تبقى معهم، تذكرهم بمسؤوليتهم وضعفهم.

أنهى الحوار بعد قليل وترك الغرفة. شغلت عقله نتائج فحوصات بيهو. تسارعت خطاه بينما كان يتقدم بسرعة نحو قسم الأبحاث في المستشفى لمتابعة الروتين الطبي المعتاد لفتاة تحتضر. لا تملك وقتا كما يملك دوشيانت ذاته.

19 ـ بيهو مالهوترا

كانت عيون بيهو مثبته دون حراك نحو السرير الآخر في غرفتها، من ناحية كانت تعيش حالة من الإنكار، من ناحية أخرى كانت تشعر بالأسف لحال دوشيانت. زاد عدد الأنابيب والشاشات التي تراقب احصائيات أجهزتة الحيوية. وكان لا يتنفس من تلقاء نفسه ولكن من خلال الأنابيب التي تعبر في فوهة في حنجرته. صارع جسده وتلوى من الألم مع كل نفس، وبدا معذبا. مر أسبوعان على وقوع الحادث ـ عندما تقيأ دما ـ لم يفق منها منذئذ. نهض الآن، تناول الأدوية، تأوه، وعوى من الألم، ثم عاد لنومه. في بعض الأحيان لاحظت أن دوشيانت ينظر إليها، محاولا أن يقول شيئا، لكن رسالة لم تصل منه أبدا. كلامه صار همهمة، وتأوهات.

بالأمس فقط، جمعت شتات شجاعتها لتجرؤ على السؤال عن أحوال دوشيانت، وما إذا كانت حالته ستتحسن. أصابها الذهول عندما عرفت أنه يحتضر. لقد كان على ما يرام، ألم يكن؟ تحولت نظرتها نحو ساقيها التي تخضع للفحص من خلال الدكتورة زهرة، واثنان من المساعدين تراهم للمرة الأولى. بدأت الإجراءت الروتينية الطبية، وقد سئمت ابتلاع عشرين حبة في اليوم. كان الأمر سهلا في البداية، ولكنه صار صعبا مع مرور الوقت. بدأت الحبوب تتسبب في اكتآبها، وفي كل مرة اضطرت لتناول واحدة، فإن مرارة الطعم في مؤخرة لسانها كانت بمثابة المنبه الذي يذكرها بمرضها.

سأل أحدهم. «هل تشعرين بها؟».

قالت زهرة لتلفت أنتباهها. «بيهو».

تمتمت. «لا يمكنني». بينما يحاولون رفع ساقها. ربما بإمكانها أن ترى أيديهم وهم يجرون المساج لرجليها، لكنها لا تشعر بهما بالطريقة التي اعتادتها من قبل. الآن، تعتبر ساقيها مجرد امتدادا لجسدها، لا يمكنها أن تحركه أو تشعر به. شعرت بأنها عاجزة، مهزومة، فور أن رأت الصدمة والرعب في عيني أمها. المرض يتقدم بشكل أسرع مما ينبغي.

في وقت لاحق من ذلك اليوم، حاولت المشي إلى الحمام، لكن بدا الأمر صعبا عليها، حتى مع وجود عكازين. كانت قوتها تتراجع. ولأن كل طلباتها كانت تلبى لها في المستشفى، فقد أدركت مدى صعوبة القيام بالأعباء اليومية. صار المشي أزمة، ارتداء وخلع الملابس أصبح عذابا حقيقيا، بينما كان تناول الوجبات أبطأ كثيرا من ذي قبل. لحمياتها من الإرهاق أثناء المضع، تحدد لها وجبات من الطعام المهروس، يتم تسخينه مرتين على الأقل، في كل وجبة. كانت تعاني ألما في فكيها بعد كل وجبة.

تعرف بيهو أنها ستتعرض للاختناق قريبا أثناء الأكل، وستحتاج إلى العون وقت الاستحمام، وعندما تدخل إلى الحمام، أو حتى عند رغبتها في التقاط أحد الكتب. ونظرا للحالة الخاصة، فهي تعلم أنها يمكن أن تأتي في وقت أقرب مما كان متوقعا. أبقت الكتاب الذي يتحدث عن السرطان جانبا، التقطت كتاب أيام الثلاثاء مع موري، ذلك الذي يتحدث عن حكاية واقعية لشخص مات بسبب مرض التصلب الجانبي الضموري. لم تكن المرة الأولى التي تقرأ فيها هذا الكتاب، وتعلم أنها لن تكون الأخيرة. أعطاها هذا الكتاب دافعا قويا على الاستمرار، والحفاظ على روحها القتالية حية.

في وقت لاحق من تلك الليلة، جاء لزيارة بيهو. كانت والدتها نائمة، بينما عاد والدها إلى المنزل. أيقظها وقابلته بابتسامة مهتزة. لوجوده في غرفتها دائما تأثير كبير، يهتز شيء ما في أعماقها، شعور بأنها لم تخبر من قبل تلك المشاعر الدافئة التي تفوح برائحة كرائحة الشيكولاتة... والمنزل. كان كما لو أن كل خلية في جسدها تستجيب لوجوده بالقرب منها. جلس على حافة سريرها وأخذ يدها بين راحتيه. وبينما يمسك بيدها، شعرت بيهو بأنها فقدت تماما سلطانها على يدها. لم تكن لتمسك بها بتلك القوة التي تمنتها.

سأل. «كيف حالك اليوم؟».

أجابت بخجل. «لست أسوأ من قبل. أنا أفقد سيطرتي على نفسي ببطء».

أجاب. «أريد المزيد».

قالت بجدية شديدة. «لقد نزل وزني عن **200** رطل، لا أعتقد أني سأستطيع أن أنافس في ماراثون دلهي هذا العام».نظر في ذهول. وضحكت بدورها.

أخبرته بيهو بشأن فقدانها القوة والتناسق، كيف لم تعد قادرة على استعمال الملعقة والشوكة لتقطيع الطعام، عن مشاعرها تجاه مسألة عدم قدرتها على المشي، حتى باستخدام عكازين، وعن الصعوبات التي واجهتها في التنفس. يموت معظم المرضى المصابين بمرض التصلب الجانبي الضموري، لأن عضلات الحجاب الحاجز أضعف من أن تساعد على التنفس، لذا يختنق المريض حتى الموت. سألت إذا ما كانت هذه هي الطريقة التي ستموت بها. حاول أرمان تهدئتها وإخبارها بكل ما يعرف عن المرض ـ وكان بالفعل كل ما كان متاحا من معلومات عن المرض.

فجأة، بدأت بيهو تبكي قليلا. أحاطها بذراعيه، محاولا تهدئتها، وواصلت البكاء بين ذراعيه. تواصل بكاءها لفترة طويلة من الزمن. عندما نظرت إلى

الساعة المعلقة على الجدار المقابل لسريرها، قالت أنها لاحظت أنها كانت تبكي في الدقائق الثلاثين الماضية، خمسة وعشرين منها، كانت في أحضان الدافئة. حاولت أن تتوقف عن هذا لكنها عجزت. إنها تفكر في المواقف العصيبة التي عليها أن تواجهها مستقبلا، ومن ثم لا تريد العيش أطول من هذا. لو كتب لها أن تموت وهي نائمة، ورئتاها تصرخان من أجل النفس الأخير، من الأفضل أن تموت الآن.

سأل بينما توقفت بيهو عن البكاء. «هل أنت بخير الآن؟».

شعرت بالحرج وقالت. «أنا آسفة».

«لا عليك، لا داعي للأسف. أعتقد أنك تعلمين أن المشاعر الجياشة أحد أعراض هذا المرض». أوضح. «يواصل المرضى الضحك أو البكاء لفترات طويلة بسبب التراجع في خلايا المخ التي تسيطر على تلك المشاعر».

تمتمت. «أعتقد أني قرأت هذا مرة. من اللطيف أن أعرف أن عقلي يتضاءل. وهو أمر منطقي على أي حال. عقلي أكبر بكثير من جاذبيتي».

«باستطاعتي مساندة هذا».

ضحكت ثم توقفت. قالت. «أخشى فقط لو ضحكت لفترة طويلة، ربما لا أتمكن من التوقف». ضحك كلاهما وضربا كفيهما، رغبت بيهو في احتضانه مجددا، لكنها ظنت أنها قد تبدو غريبة الأطوار.

واصل. «على أية حال، باستطاعتنا أن نرتب الجراحة الأولى عندما تكونين مستعدة».

قالت. «أنا مستعدة».

سأل. «غدا؟».

«بهذه السرعة؟».

«أعتقد أنه حان الوقت». وأضاف بصوت جاد وحاسم. «لست بحاجة أن أسألك بعض الأسئلة قبل الجراحة. أنا أريد منك أن تتحدثي إلى والديك قبل أن تجيبي على الأسئلة.»

سألت. «عن ماذا؟ أنت تخيفني؟».

«لا داعي للخوف، إنها أسئلة عادية». قال بهدوء. «إنها أسئلة عليك أن تناقشيها مع والديك». ارتبك صوته.

سألت من جديد. «ماذا عنهم؟».

«امممم... المسألة تخص ما إذا كنت تؤيدين سعينا للحفاظ على حياتك وبالتالي توافقين على لجوءنا إلى المساندة الخارجية ما تطلب الأمر ذلك». ثم همس. «هل ترغبين أن نحاول إنقاذك حال فقدتي نبضك... مثل هذه الأمور». ظهر عبء الأسئلة على صوته. أكثر من أي شيء آخر، انزعجت بيهو من التعبير الذي بدا على وجه الطبيب.

قالت. «اتخذت قراري بالفعل».

سأل بعصبية. «فعلا؟».

شرحت. «أريد أن أظل على قيد الحياة طالما يسمح لي جسدي، حتى لو كان ذلك يعني أن أبقى على قيد الحياة شكليا». وقالت إنها تعرف أنها لم تكن لتبكي إذا لم تتغير النظرة على وجهه، من الحزن الشديد إلى الراحة. وبما أنها وجدت نفسها في أحضانه مجددا، شعرت بدفء صدره، وأنفاسه المتسارعة، وشعرت بشيء طالما تمنته منذ أن كانت تقرأ مجموعة الروايات الرومانسية الخاصة بأمها. شعرت أنها قريبة من إنسان على نحو لم تشعر به من قبل. وشعورها أن

هذا قد يكون محرّماً، أو ربما خطأ، زاد من الإثارة. ربما يبكي... لم تكن متأكدة. لكن مجرد وجود الاحتمال جعلها تبتسم، على الرغم من أنها تحتفظ بفكرة أن تبقى على قيد الحياة بواسطة آلة خارج رأسها. لو عادت مرة أخرى إلى كلية الطب، لواجهت العديد من حالات المرضى من الناس الذين يتطلعون إلى البقاء على قيد الحياة، وكم تمنت أن تستطيع أن تخفف عنهم آلامهم.

سألته مجددا. «هل أنت على يقين؟».

أكثر من أي شيء. ابتسمت في وجهه، وأضافت. «أنا على استعداد ليوم غد. ولكن عليك أن تقول لي ما الذي ستفعله بي. من الإجراءات المحددة وصولا حتى أدق التفاصيل».

«سأفعل بالتأكيد. ربما كنتي أكثر المرضى الذي عالجتهم في حياتي وعيا». قال ساخرا. «لو كان الجميع مثلك، لكانت الحياة جحيما لنا نحن الأطباء».

قالت. «هل يمكنني ان أسألك شيئا؟».

«بالتأكيد».

«ألا تخشى فقدان وظيفتك؟ رخصتك المهنية؟ لا تعطيني الأسباب القديمة. تعلم تماما، أنه حتى لو تم علاجي، لا تستطيع أن تصنع مني مثالا لإجراء مزيد من البحوث حول علاج هذا المرض. لا يزال الأمر غير قانوني». ساد الصمت.

قال. «أريدك أن تعيشي، وهذا دافع كاف لي».

لم تغادر عيناها وجهه، لكنه كان يتطلع بعيدا. وأخيرا قال. «ألا تركنا هذا الأمر؟».

«لم لا؟».

قال. «أرغب فقط ألا تسيطر عليك فكرة أنك ستموتين قريبا. تسللت يده

إلى يدها وأمسكتها. ملمس يده جعلها تشعر بإحساس لم تشعر به من قبل. إنها الطريقة التي قام بها. شعرت أنها استثنائية، شعرت أن أحدا يحبها. كانت الكلمات التي لم تُنطق بينهما رائعة وجميلة. ذكرتها التجاعيد الجذابة على وجهه بقارق السنوات بينهما. لكن كل فتاة تتمنى أن يكون لها حبيبا مثله. ما أربكها حقا هو السبب الذي دفع أن يعتني بها عناية خاصة. لماذا كانت تعني بالنسبة له أكثر من مجرد خنزير عيني للتجارب؟ إنه يستحق الأفضل، أليس كذلك؟ كانت شابة، وكانت غبية. ولا تعتبر اختيارا مناسبا لهذا الطبيب الرائع الاستثنائي. هل كان كل شيء في رأسها؟ لا، لم يكن. الجمال في لمسته، الولع في عينيه، والنظرة التي لا تخطئها العين في وجهه، كلها أشارت إلى أمر يتجاوز الاهتمام. كانت متأكدة من ذلك. أليس كذلك؟

قالت. «لا أريد أنا أيضاً أن أموت بسرعة». يشع أرمان نورا مثل تلميذ. سألت مذهولة. «أتعلم؟»

أجاب. «ماذا؟».

قالت. «ربما ستسخر مني». ثم احمر وجهها، وارتفعت حرارة جسدها

أكد لها أنه لن يفعل. «ما الأمر؟».

قالت. «لم يكن لدي حبيب». ثم توقفت لحظة... «و... لم يقبلني أحد قط». بمجرد أن قالت هذا، شعرت بالأسف أنها فعلت. وما زاد الأمر سوءا أن المستمع لم يقم بأي رد فعل. ظل ساكنا بلا حراك، محدقا فيها، وتعبير رزين على وجهه. كل لحظة تمر أسوأ من التي قبلها.

قال مختلفا معها. «كان عليك أن تفعلي». ثم ضغط على يدها الناعمة الهشة أكثر. مال بجسده نحوها، كما مالت بدورها نحوه. أغلقت عينيها في منتصف الطريق نحوه، بينما يقتربان من بعضهما. تركت يدا يدها واتجهت إلى وجهها،

الذي بدا محموما بفعل البهجة والترقب. شيئا فشيئا، أخذها نحوه وتقابلت شفاهما. انتفضت حين أحاطت شفاهه بشفاهها، في عناق عاطفي شاحن. كانت رطوبة شفتيه مثل إكسير حياتها. في تلك اللحظات، بقيت أصابعه حول رقبتها ووجهها، تداعبهما ببطء، شعرت في هذه اللحظة أنها شفيت من كل مرض. تاهت، تخدر جسدها حين قابل جسده، لتجد نفسها كأنها في حلم يقظة سحري. لعب لسانها بتلقائية مع لسانه، بينما كان يقود الحركة. لعب لسانه مع لسانها، وهي أيضاً، حتى صارا كأنهما واحدا. زادت سعادتها ورضاها مع أنفاسه القصيرة الثقيلة، وتأوهاته الشبقية. بعد عدة ثوان، تركها. تراجعت بيهو إلى فراشها مثل حقيبة، عاجزة، ضعيفة، تحت تأثير أول قبلة في حياتها.

مرت بضع دقائق ثمينة قبل أن تفتح عينيها، ورأت عينيه المذهلتين، تتطلعان إليها، في ثبات. عجزت عن مواجهته، شاعرة بالخجل الشديد من النظر إليه مباشرة. تململت أصابعها.

قال ضاحكا. «أنت رائعة بالنسبة لشخص يقبّل لأول مرة. كان علينا أن تفعل هذا منذ فترة طويلة».

لم تشعر بيهو بعدم الراحة كما هي الآن. كانت أصابعها لا تزال ترتجف، ليس لديها فكرة عما ينبغي أن تقوله. اللحظات التي مرت لتوها أحرقت ذاتها في عقلها، وهي تدرك الآن أنها لن تتمكن من نسيانها.

همست. «شكرا لك».

لم يقل أحد كلمة، حيث عادا بعد لحظات للعناق مرة أخرى. قالت ورأسها على صدره أنها سعيدة، وهي تستمع إلى ضربات قلبه تصعد وتهبط بانتظام. في بعض الأحيان، كانت تشعر بأصابعه على وجهها، تبعد خصلات شعرها التي حلقت فوق عينيها.

سألها. «أخائفة من الغد؟».

أجابت. «ليس بعد اليوم». ثم نظرت إليه بهيام.

قال. «أنا مرعوب». وأبشع أنواع الهلع ترتسم على عينيه. «لا أريد أن أخسرك».

طمأنته. «أنت تفعل كل ما بوسعك حتى لا تفقدني. فكر في الأمر، لو لم أصب بهذا المرض، لما قابلتك أبدا. إنه قدر، أليس كذلك؟».

قال. «هذا لا يجعل الأمر أفضل». واعتصر قلبه من فرط العواطف الجياشة. ظهر هذا على وجهه ولم تعرف بيهو كيف تعالج الأمر. بدا الأمر ساخرا، ذلك لأنها لا تتذكر متى كانت على هذه الدرجة من الرضا والسعادة في حياتها.

لم تترك بيهو يده حتى وقت متأخر من الليل، وتركتها عندما أدركت أن الوقت تأخر وأن أمامه الكثير ليفعله. تظاهرت بالنعاس وابتسمت عندما احتضنها وقبل جبهتها.

في السنوات التسعة عشر التي مرت، لم تمر في حياتها ليلة أكثر روعة من تلك الليلة التي انتهت لتوها، هي على يقين من ذلك.

20 ـ كاجال خورانا

وجدت كاجال نفسها دائما في خضم الفوضى والصراع النفسي. لم تكن تتخذ القرارت بسهولة، وحتى لو حدث هذا، تساورها الشكوك وتزعجها التحفظات بعد أن تفعل. في ذلك اليوم، بينما تحيطها كتبها التقنية التي تتناول تحويلات فورير، المعادلات وأجهزة الجر، قضت حياتها بينما تموج رأسها في الألوان. وبدا أن كل شيء لم يكن في نصابه الصحيح، وكان أسوأ ما في الأمر أنه لم يكن هناك شخص تستطيع أن تتحدث إليه عن الموضوع. كانت طفل من عائلة ثرية، ومن الاشكاليات التي واجهت المحيطين بها أنهم تصوروا أنها لا تواجه أي نوع من المشكلات التي يمكن أن تسرق النوم من عينيها، أو تحزن لها، غير مشكلة اختيار ثوب جديد لارتدائه.

مرت أيام معدودة منذ أن قررت أن تقطع صلتها بفارون، ورغم محاولاته المتواصلة للتحدث إليها، الا أنها ظلت على موقفها الرافض. أراد جزء منها أن يحاول فارون أكثر، أن يتصل بها، أن يمر على فندق الكلية، أن يصر على تناول العشاء معها، أن يرسل لها الورود، لكن كل ما حصلت عليه هو بعض المكالمات والرسائل النصية التي تتوسل إليها حتى تمنح علاقتهما فرصة جديدة. في بعض الأحيان، كانت مدركة أن ما تطلبه غير منطقي، وغريب، لكنها لعبت دور الطرف المتفهم في العلاقة على مدار فترة طويلة جدا حتى الآن.

لم تكن متأكدة إذا ما كانت بالفعل ترغب في الهرب، أو كان عليها أن تتخذ

هذه الخطوة منذ فترة طويلة. لكن التفكير في البقاء في كلية الهندسة أكثر من ذلك يبدو وكأنه الألم الذي لا يمكن أن تتحمله لفترة أطول. لم تكن دراسة الهندسة ما تحبه بالفعل. أخبرها صوت خافت في رأسها أنه كان يتوجب عليها أن تستمع لوالديها ـ فقد كانا دائما على صواب ـ وتلتحق بكلية تدرس فيها الصحافة والأدب في لندن.

اتخذت قرارها بالفعل، إنها مسألة وقت فقط ـ تعلم هذا ـ قبل أن تتخذ القرار بالفعل وتخبر والديها. لن تمانع أمها، سيدة المجتمع المسؤولة. كانت ترى أنه من الغريب أن تخبر أصدقائها أن ابنتها تدرس الهندسة في أحد المعاهد الراقية. علمت كاجال أن أصدقاء أمها ظنوا أنهم دفعوا نظير قبول ابنتها في كلية الهندسة. كان اليوم الذي تجاوزت فيه اختبار القبول يوم عظيم للثرثرة في دوائر أصدقاء أمها. فإن أخبار التحاق ابنتها بكلية تدرس الفنون وليس هندسة آلية التوصيل ستكون مصدرا لسعادتها بالتأكيد.

بالأمس فقط، تحدثت مع أخواتها، وقد بدا عليهما الحماس تجاه هذه الخطوة في مسيرة أختهما المهنية. نادرا ما تواجه معارضة من أختيها تجاه اختياراتها في الحياة. إنها دائما الطفلة المفعمة بالحماس بين أخواتها، وهي أيضاً معشوقة العائلة. وتساءلت كم من قرار لها تأثر بانفصالها عن فارون، وبالطريقة التي تعامل بها دوشيانت معها. هل كانت تهرب من الأشياء التي لديها القدرة على ايذاءها؟ أو أنها أدركت أنه لم يعد لها شيء في دلهي يدفعها للبقاء؟ تعرف أنها عاشت حياة رائعة بعيدا عن الصدمات التي تعرضت لها ـ دوشيانت، فارون إضافة لبعض المعادلات الرياضية ـ تلك التي كسرت إيقاعها تماما. تركت حجرتها بحماس، شعرها منطلقا، ثيابها متجعده وغير مهندمة. لجأت لإيقاف إحدى السيارات بعصبية بالغة، وطلبت من السائق أن يأخذها إلى مستشفى نيودلهي التخصصي.

دفعتها الريح في وجهها، فتراجعت بعيدا عن عالمها الحالم، فبدأت في التعاطي مع الواقع الذي يواجهه دوشيانت الآن. كان دوشيانت يضربها دائما كشخص أحب مرة واحدة، ثم لم يفعل ثانية أبدا، لذا كانت ترى أن دوشيانت يدفعها بعيدا عن قصد. الغضب الذي يملأ عينيه، الوريد الثائر على صدغه، قبضته المتأهبة، لم يكن هذا كله سوى تعبيرا جسديا عن شعور دوشيانت تجاهها. لقد رأت بل واجهت هذه الثورة قبل اليوم الذي تبادلا القبلات فيه للمرة الأولى.

أنزلها السائق عند مدخل المستشفى، أمسكت كاجال حقيبتها بعصبية. كانت تتصبب عرقا رغم نسمة الهواء العابرة.

كان قلبها يدق بعنف، بينما يجادل عقلها حول جدوى ما تفعل. على مضض، اتجهت نحو موظف الاستقبال، وسألت ما إذا كان المريض في ذات الغرفة. فحص الموظف قاعدة البيانات وأكد لها أنه هناك.

سأل. «هل أنت أحد أقربائه؟». أومأت ومشت بعيدا عنه، متسائلة عما إذا كانت تعني له شيئا على الاطلاق. تباطأت خطواتها وارتبكت ما إن خرجت من المصعد واتجهت مباشرة إلى الغرفة التي طردت منها من قبل. نفس عميق. نفسان عميقان. طرقت الباب وانتظرت أن يرد أحد. ما من مجيب. طرقت الباب مرة أخرى، ثم سمعت صوتا واهنا من الجانب الآخر يسألها الدخول.

دخلت الغرفة التي تفوح منها رائحة المستشفى المميزة الغارقة في المعقمات، الفينيل، المطهرات. ورائحة الموتى. قبل أن تتكيف حواسها مع الأجواء الغريبة في الغرفة، رأت كاجال دوشيانت راقدا دون حراك فوق فراشه، امتقع وجهها. انهارت حنجرتها بينما تحاول قول شيء. شكلت دموعها بركا صغيرة تحت رموشها مباشرة، على وشك الفيضان على وجهها الشاحب.

«دوشيانت...» واختنق الكلام داخلها. ارتفع صدر دوشيانت وانخفض

بشكل دوري، ليصدر صوت أزيز بشع في كل مرة. يبدو كأن عمره يتهاوى مع كل نفس يخرج منه. عيناه مغلقتان وبدا سجينا للألم. تقدمت ببطء نحو جانب السرير وجلست.

اختلف وجه دوشيانت عن آخر مرة، يبدو غائرا، بينما فقد جسده الكثير من وزنه. هناك بقع على خده، بينما تراجع اللحم حتى فكيه. وضعت كاجال يدها على صدره ومررت أصابعها فوقه. تدرك أن دوشيانت لا يشعر بشيء.

جاء صوت من الجانب الاخر. «أهو صديق؟».

تطلعت كاجال لترى ذلك الوجه المبتسم الذي يحدق فيها، منتظرا الرد. قالت كاجال بعد أن عثرت على صوتها. «نعم».

قالت الفتاة. «أنا بيهو. أخشى أنه نائم».

قالت. «أنا كاجال. هل سيكون بخير؟».

ردت. «لا أعرف ـ قالوا أن حالته حرجة». ثم أضافت. «الكثير من أعضائه تهاوت، وربما...»

«ربما؟».

قالت بيهو برزانة. «هناك فرصة ضئيلة لنجاته».

عجزت كاجال عن قول شيء أكثر من هذا. شعرت كأن جدران الغرفة تكاد تسقط فوقها، تحبسها، تخنقها. جلست بجواره ممسكة بيده، محاولة أن توقف نحيبها. لازالت عيون بيهو تحدق فيها. بينما تتفحص عيون كاجال غابة الأنابيب، الشاشات، القطارات من حولها، لامت نفسها على حالة دوشيانت المثيرة للشفقة. تخيلت موقفا جمعهما سويا تظللهما السعادة، ما من أحد يبحث عن العون في الحياة، ولا أحد يبحث عن الالتحاق بكلية في لندن.

قالت الفتاة التي تجلش على الفراش في الجهة المقابلة، وعلى وجهها ابتسامة كبيرة. «لو كان هذا سيخفف عنك ويجعلك أفضل، أنا أموت أيضاً!».

قالت كاجال. «لا». ثم أضافت بيهو لاحقا. «آسفة. لم أقصد أن ـ »

«حسنا، لم أشعر بالاستياء». قالت كاجال بدافع الفضول والصدمة. «لكنك تبدين بصحة جيدة».

«أعلم هذا. أنا أموت بفعل الشلل الذي يتطور. إنه يزحف إلى أعلى من أطرافي وينتشر إلى أجزاء أخرى من جسدي. يوما ما، سيصل إلى صدري، ولن يكن بمقدوري التنفس، وسينتهي بي المطاف بالموت».

ارتبكت كاجال ولم تعرف هل تعبر عن الصدمة أو الرهبة، فتساءلت. كيف يمكنها أن تكون رابطة الجأش وهي تتحدث عن أمر بهذه الخطورة؟

سألت بيهو. «ما هي طبيعة علاقتك بدوشيانت؟».

أجابت كاجال. «إننا أصدقاء». ولم ترد أن تقول أكثر من هذا.

«انتظري!هل أنت تلك الفتاة؟ التي جاءت هنا ذاك اليوم؟».

تجمدت. الآن، انتابها شعور بالحرج. لم يخطر لها على بال أن شخصا ما قد استمع لحوارها المذل مع دوشيانت في ذاك اليوم. قالت مؤيدة. «نعم. في الحقيقة، كنا نتواعد».

سألت بيهو لتتأكد. «كنت حبيبته؟». شعرت كاجال بنبرة الشفقة في صوت بيهو من الطريقة التي سألت بها، كأنها تشعر بالأسى أن كان لكاجال حبيبا مثل دوشيانت. وهذه ليست المرة الأولى، في الحقيقة. لم يقبل أصدقاء كاجال علاقتها مع دوشيانت أبدا، كانوا دائمي الرفض لها، حيث كانوا على يقين أنها ـ رغم كونها قوية ومتأججة ـ إلا أنها كانت ككارثة تنتظر الإنفجار في أي لحظة.

أجابت. «نعم كنت. مر على هذا سنوات».

سألت بيهو بكياسة. «وما الذي أعادك؟».

على الرغم من أن كاجال لم تكن في حالة مزاجية تسمح لها بالحديث، إلا أنها كانت مجبرة على الإجابة. «في الحقيقة لم أتوقف عن الانشغال به أبدا». قالت وعيناها تنظر إلى حيث يرقد دوشيانت، ضعيفا يحتضر. «يملك رغبة تلقائية في تدمير ذاته».

أضافت بيهو. «لقد رأيت هذا».

«فعلا؟».

«نعم». قالت ضاحكة. «لقد كان مصدرا للازعاج».

فهمت كاجال ما كانت ترمي له بيهو. مع كل ثانية تقضيها كاجال بجوار دوشيانت، تزداد رغبتها في البقاء لفترة أطول.

وعندما وصفت لها بيهو كيف هجم على أصدقاءها، فكرت كاجال في شكل الحياة لو كتب لهما أن يظلا معا. ربما تمكنت من إقناعه بالتخلي عن الإدمان. ربما تحول في النهاية إلى رجل أفضل، وكانت على يقين أنه قادر على ذلك. دوشيانت في جوهره رجل لطيف، لكن على المرء أن يصير رفيقه في صحبة الدخان والمخدرات، تلك الأشياء التي غرق فيها، كي يصل إلى ذلك الإنسان الطيب داخله. وربما كانت تلك الصفعة المدوية التي وجهها دوشيانت لها حادثا استثنائيا، وربما لا. وربما كان هذا الجماع الذي جرى بينهما تلك الليلة حادثا استثنائيا، وربما لا. ومن المحتمل كذلك أن هذا كان بداية لعلاقة مهينة مذلة، وربما لا.

قالت كاجال برغبة في التأكد. «هل ضرب أصدقائك؟». بينما سرحت بعيدا في قطار أفكارها.

قالت. «نعم. لقد تسببوا في بعض الضوضاء، هذا حقيقي، لكن ليس للدرجة التي تجعلهم يتعرضون للضرب. تعرفين، إنه بالفعل يدمر نفسه بقدر ما. هل مازلت تحبينه؟».

«كلا».

سألت بيهو. «ولماذا أنت هنا إذن؟».

ردت كاجال وهي تشعر بشيء من عدم الارتياح لاهتمام بيهو به. «أنا فقط أشعر بالقلق عليه». وعلى كل حال، قضت أغلب وقتها بجواره. سألتها كاجال بعصبية. «ما سر انزعاجك لهذا الحد؟».

«أردت فقط أن أعرف من يمكنه أن يحبه. أعني أنه فظ قليلا، أليس كذلك؟». ضحكت بيهو وأضافت. «لكنه يروق لي رغم هذا. أعتقد أن أحدا لم يفهمه ولو بقدر بسيط».

سألت كاجال. «هل أنت معجبه به؟».

«إعجاب بمعنى إعجاب؟لا لا! على الاطلاق. نعم، إنه لطيف. ولكني لا أحبه على هذا النحو». أجابت بيهو. «في الواقع، طريقة كلامه معي، كانت مفاجأة، لكني لا أكرهه».

سألت كاجال. «ولماذا لا تكرهيه؟» وهي لم تكرهه أيضاً رغم كل شيء. عجزت أن تكرهه رغم كل المرات التي كان فيها دوشيانت عنيفا، قاسيا، متملكا دون داع. تعترف أن شعورا بعدم الراحة نما في علاقتهما، إلا أن مشاعرها لم تتغير تجاهه أبدا ولو مرة واحدة.

«كما قلت لك، يبدو أنه يساء فهمه! لكن لا داعي للقلق من ناحيتي أبدا. فأنا مغرمة بشخص آخر!». ابتسمت وغمزت، بينما كاجال وقعت تحت تأثير صدمة من بيهو المتحمسة بشكل غير طبيعي.

أجابت كاجال. «حقا!». ولم تعرف ماذا تقول غير ذلك.

«نعم، أعلم أن هذا جنون، وأعرف أني أموت... حسنا، إنها مشكلة حقيقية». ثم قالت بحماس أمام كاجال المرتبكة. «لكنه أمر رائع جدا، ورائع جدا».

«ياه... هذا أمر جيد».

واصلت بيهو. «إنه طبيب، ربما لا يمكنك تخمين هويته. من؟». صاحت بيهو وانتظرت رد فعل كاجال.

«دكتور!». نظرت كاجال إلى بيهو كالمصعوقة وقالت. «لا أعرفه».

قالت محبطة. «ياه. حسنا». وأضافت. «إنه طبيبي، وهو يعالج دوشيانت أيضاً».

على الرغم من أن كاجال نظرت لبيهو كشخص معتوه قليلا، لاحظت أن دموعها جفت وأنها تحسنت نسبيا. وقد جعلها هذا تشعر بالذنب لأن دوشيانت لا يتحسن. خيط الأمل الرفيع الذي كان دوشيانت يتعلق به يحترق بسرعة.

سألت كاجال. «هل تحبي الطبيب؟».

تقلبت والدة بيهو قليلا على الأريكة، ما جعلهم يدركون أنهم يحدثون جلبة. طلبت منها بيهو أن تقترب قليلا. أومأت كاجال وجلست على الجانب الآخر من الفراش ممسكة بيد دوشيانت. قالت لنفسها: إنه لا يتألم.

قالت بيهو. «لقد تبادلنا القبلات بالأمس. أصابه الرعب من أن يفقدني وقبلني. ربما فعلها بدافع الشفقة. قال أنه لا يريد أن يتركني أموت دون قُبل. هل سبق أن قبلك أحد؟».

ذهلت كاجال وهي ترى بيهو تثرثر كطفلة. هل قبلت أحد؟ من يتحدث هكذا؟

أومأت كاجال. «نعم. لقد قبلت بعض الشباب». قالت وهي لا تزال تمنع ابتسامتها.

«ياه، بعض الشباب؟ كيف يبدو هذا؟ أعني كم عددهم؟». وسألت بحماس. «هل هناك فرق؟ هل أنا كثيرة الأسئلة؟ في الواقع، كانت هذه أول قبلة لي، ولا أعرف ما إذا كنت جيدة في هذا أم لا، ولا أدري ما إذا كان هذا سيتكرر أم لا».

قالت كاجال مؤكدة. «بالطبع، سيتكرر».

قالت. «أتمنى ذلك. هل قبلت دوشيانت؟».

أجابت. «بالطبع فعلت، وهو بالمنسابة بارع في التقبيل على ما أذكر».

«على ما تذكرين؟ لن أنسى قبلتي أبدا! على الرغم أني لا أملك الكثير من العمر أمامي، لكن تظل قبلة لا تنسى».

توسلت إليها كاجال. «هلا توقفت عن قول هذا؟». إشارتها المستمرة إلى أنها تحتضر دفعت كاجال للتفكير في حالة دوشيانت المميتة ولم يكن هذا أمر جيدا.

«أنا آسفة، كلما قلت هذا، كلما كان الأمر أسهل في تقبله بالنسبة لي».

«أنا آسفة. ليس لدي أدنى فكرة عما تعانيه. مجرد التفكير في الموت والاحتضار أمر صعب بالنسبة لي. منذ أيام مضت كانت صحته على خير ما يرام، والآن هو على هذه الحال». ثم قالت وهي تكاد تختنق. «هذا أمر سخيف. وأنت تموتين؟ من يستطيع تصديق هذا؟»

لم تنطق بيهو بكلمة. اغرورقت عيون كاجال بالدموع ولم تعرف كيف تتصرف. بدا كأن الوقت الذي عاشته بعد دوشيانت لم يكن له وجود.

قالت بيهو. «احكي لي عنه؟». ثم وضعت ذقنها على ركبتيها وانحنت للأمام.

«اممم... لست متأكدة».

«أووه... هيا». ثم أضافت. «إنه لن يستيقظ قبل الصباح، أمامنا الكثير من الوقت». وكأنها تتوسل لكاجال.

قالت ثم واصلت. «حسنا. لم تكن علاقة مثالية. لم يكن في هذه العلاقة شيئا ورد في الأفلام أو الكتب. لم يكن فارس أحلامي بدرعه اللامع لكن كان فيه كل ما أحتاج. لم يقل أبدا ما عليه أن يقوله، لم يقدم لي الهدايا وخلافه، لكنه كان دوما بجواري عند احتياجي له. حققنا أكثر الرغبات تطرفا سويا، ولبى كل منا للآخر كل الأماني الحمقاء».

«في كل مرة كان يتطلع إليّ فيها، كانت كأنها المرة الأولى. العشق الذي يشع من عينيه، الجمال في لمسته جعلاني أشعر كما لم أشعر من قبل. كانت هناك مشاكل، ولكن الحب هكذا. يقع المرء وينكسر ثم ينهض مجددا ويواصل حياته. سمعت عن علاقات مثالية، ولم تكن علاقتي بدوشيانت مثلها. كانت أفضل. ملك كل منا الآخر، جمعنا العشق، والكره أيضاً. ادخرنا كل منا للآخر عاطفة نقية. أنا لا أعرف إلى أين الحياة ستأخذني، ولا طبيعة الشخص الذي سأكونه في المستقبل، لكني أعرف يقينا أني أكون شخصا أفضل في وجوده».

سقطت دمعة وحيدة من عينيها، وانسدلت عبر خدها وبللت ملاءة سرير المستشفى. لقد كذبت، فإنها لا تزال مغرمة بدوشيانت. وعندما أغلقت عينيها، شعرت بأن يد دوشيانت تتحرك بكاجال لتمسك بيدها. تطلعت إلى وجهه، كان لا يزال نائما في سلام.

21 ـ دوشيانت روي

لا يستيقظ دوشيانت سوى لساعات قليلة يوميا منذ اليوم الذي نزف فيه في سيارة زهرة. كان تحت الملاحظة المستمرة، لكن حالته كانت تتدهور بسرعة. تهالك الكبد وهلكت الكلى تماما وخضع للعلاج بأدوية مختلفة. اقتصرت حياته على الرقود على الفراش والتمزق من الألم. على الرغم من انه شعر أن حاله أفضل كثيرا اليوم، استيقظ والألم يعتصر بطنه. حاول الاتصال بأحد ليعطيه شيئا كي يساعده على التخلص من الألم، لكن لم يتخطى الأمر، صرخة صغيرة هربت من بين شفتيه.

«هل هناك مشكلة؟». سألت بيهو وهي تتطلع إليه من بين صفحات الكتاب الذي كانت تقرأه. «انتظرته أن يقول شيئا، لكن انكمش وجهه بفعل الألم، وأمسك بمعتدته وتلوى».

قالت. «حسنا، سأقوم باستدعاء أحد، ثم صرخت طالبة المساعدة».

وبعد دقائق، جاءت ممرضة مسرعة، تفحصت القطّارة. سألت بعض الأسئلة، التي أجاب عليها دوشيانت بصوت خفيض. دفعت الحقنة في القطّارة، وطمأنته أنها ستزيل الألم. انصرفت الممرضة رغم تألمه وتشبثه بملاءة السرير، حين بلغ الألم صدره. بدا كأن أحشاءه ستنفجر وتتحول إلى ثريد. تساءل عما إذا كانت هذه هي لحظاته الأخيرة. يبدو أنها كذلك. أخذته أفكاره إلى المشرحة، حيث سيشرحونه لكنهم لن يعثروا على شيء، سوى غابة من الأحشاء الممزقة

التي نخرتها الأورام، والإصابات الأخرى. تخيل الحانوتية يحاكمونه بعد الموت. بصراحة، شعر بعدم الارتياح لمجرد تخيل أن شخصا سيعبث بجسده العاري. انتهى الألم. ظل مستيقظا.

نظر حوله، بينما تملكه شعور بالاشمئزاز تماما كما أحس في اليوم الأول عندما وجد نفسه مسجونا في سرير نام عليه الآلاف قبله. عن يساره، كانت بيهو تحدق في وجهه، وكالمعتاد، كانت على استعداد للإنطلاق في حوار سيدفعه حتما نحو الانتحار. لكن في هذا اليوم لم يكن لديه مانع من التحدث. انه مدين بحياته لها، أو على الأقل ما تبقى منها.

تمتم دوشيانت. «مرحبا».

نظرت بيهو في وجهه، ولم يبد عليها أي من علامات الامتعاض أو الغضب، رغم كل ما فعله بها. أجابت بحماس. «مرحبا». كما لو أنها كانت تنتظر منه أن يبادر بالكلام.

«كيف حالك؟».

قال. «أعتقد أني في أفضل حال منذ عدة أيام. أنا لا أتمزق، أنا مستيقظ، وهذا شيء طيب على ما أتصور».

صرخت رافعة أصابعها ابتهاجا. «هذا جيد!».

سألها. «لماذا أنت سعيدة على الدوام؟».

أجابت. «لماذا أحزن؟».

«الواقع أني أموت؟ في كل مرة أحاول النهوض، أشعر كأني سأهلك من فرط الألم. حقيقة أني أشعر كأن شخصا دخل أمعائي وأفرغها من كل شي».

ردت. «على الأقل أنت لازلت على قيد الحياة».

«وهل هذا ما تسمينه حياة؟».

أجابت. «كنت لأبدل المواقف وأكون مكانك برضا».

قال مرتبكا. «هذا لأنك مجنونة. كيف لفتاة تبدو في صحة جيدة، تجرى عليها فحوصات خيالية طيلة اليوم، تبدل حياتها بحياتي؟» لم يظهر عليها أي ألم، ولم تنزف أبدا، أو يجرونها مربوطة إلى السرير، هناك لعدة أيام متتالية. ثم سأل دوشيانت غاضبا مرتبكا. «ماذا أصابك؟».

توقفت الفتاة قليلا ثم قالت. «ما من شيء خطير، أفقد بعض الإحساس بأطرافي فقط». ارتبك صوتها للمرة الأولى ولم تنظر في عينيه، بعينيها الكبيرتين التي تشبه عينا الأرنب، عيناها التي تشع حتى أطرافها بالأمل والسعادة. انتابه شعور غريب لكنه لم يرد أن يدخل في جدال. آخر ما يتمناه أن يجد فتاة مزعجة تبكي على كتفه. ثم استحضر هذه الكلمات القليلة التالية بصعوبة بالغة، لكنه يعلم أن عليه أن يقولها.

قال. «شكرا لك، شكرا لأنك أنقذتيني. لو لم تفعلى هذا، لكنت في عداد الموتى».

«أترى! لقد قلت لك في السابق، ما الذي لا يجعلنا سعداء؟ شكرا لك أنت أيضاً. بالمناسبة، هذا ما يفعله شركاء الغرفة! عليهم أن يساندوا بعضهم». عاد الحماس والهيجان إلى صوتها من جديد.

«لسنا رفاق غرفة. إننا في أحد أجنحة مستشفى. وليس من المفترض أن يساند بعضنا الآخر. إذا كان الأطباء ماهرون هنا، وهم في الحقيقة ليسوا كذلك، لن نحتاج إلى بعضنا البعض. كيف عجزوا عن تحديد مرضي... وفعلت أنت؟ هذا المتحاذق دكتور ـ ».

قاطعته. «انتبه! أحذرك ألا تقل شيئا عنه! إنه طبيب ماهر! وكان تشخيصي مجرد تخمين. كنت محظوظة».

«لماذا تدافعين عنهم؟ لو كانوا يتمتعون بقدر بسيط من الذكاء، لاستطاعوا أن يحددوا المرض بدقة. الحظ؟ كيف يمكنك ترك حياة المريض إلى الحظ؟ لا أعتقد أنهم لهذا السبب يقضون سبع سنوات في كلية الطب؟ ألا يعتمدوا على الحظ وأن يتعلموا شيئا؟!».

قالت غاضبة. «اسمع، أنت تبالغ. قلت لك أن التشخيص كان صعبا. إنها حالة نادرة، وهو لا يظهر في أي اختبار، مرة في المليون! وفي حالتك، من الذي أساء لجسده إلى هذا الحد، فعل ما هو أكثر سوءا!».

أربكه التغير المفاجئ الذي أصاب صوتها، لكنه لم يكن على استعداد أن يلين. «لا تلقي باللوم عليّ الآن. لا يعني أني أملك جسدا يحتضر أن على الأطباء أن يجربوا كل ما يمكنهم فعله كي يقتلونني بأسرع ما يمكن!».

ردت بيهو. «إنهم لم يحاولوا قتلك».

قال وتابع تأثير كلماته. «كل الدلائل تشير إلى عكس ذلك. كسرت ذراعي، انفجرت كليتي، وهكذا أيضاً كبدي. نزفت كأنني أتبول بعد أن ثملت! أعتقد أنهم فعلوا كل ما في وسعهم للتأكد من أني سأموت». بدت أكثر غضبا. أحكمت قبضتها على أعمدة السرير كما لو كانت تحاول أن تنام عليها. بصراحة، هذا الإنسان ليس سوى شخص وقح مدعيّ، لا يعرف أي شيء عن الطب!

ردت غاضبة. «أنت ملعون! إنه يعرف كل شيء! ربما كان يحاول قتلك! كان ينبغي عليه أن يفعل! لا يجب أن تعيش على أي حال، إنه أفضل منك بكثير. على الأقل، لأنه يعلم كيف يعامل الفتيات، ولا يضرب حبيبته عندما يثمل!».

ثم حولت نظرها عنه والتقطت أحد الكتب. رأى صدرها يعلو ويهبط مع كل نفس. مرت بضع ثوان حتى تمكن من استيعاب ما قالته للتو. لم يستغرق وقتا طويل ليفهم ما كانت ترمي إليه، كانت صدمة قوية تلك التي تلقاها. كيف

عساها أن تعرف؟ شعر بالحرج، الخديعة، الغضب ـ كل تلك المشاعر في آن واحد! انكمش قلبه وتضاءل إلى حجم الزبيبة، لأنه تذكر ما فعل. استقرت أنفاسه على نحو بطيء، وتساءل ما إذا كانت كاجال تزور بيهو كي تسألها عنه. بدت منه ابتسامه تحت حاجبيه المعقودين ـ وتصاعد الدخان إلى وجهه.

سألها متذمرا. «كيف عرفت؟». لم تعره بيهو اهتماما وتظاهرت أنها تقرأ. وجهت لك سؤالا. «كيف عرفت؟».

«ليس لدي أي رغبة في التحدث إليك». ثم سحبت الستارة التي تفصلهما.

توسل إليها بفتور. «هلا أخبرتيني؟ من فضلك؟».

قالت وهي تمسك العكازين. «أنا بحاجة للذهاب للحمام». دفعت ساقيها الهامدتين إلى حافة السرير، ثم تركتهما معلقان. كان العكازان بعيدان عن متناول يداها الممدودتان. نظرت إلى دوشيانت وأشارت في اتجاه العكازين. «هل تمانع؟».

أومأ دوشيانت ثم خرج من سريره. سحب حامل القطّارات معه، وتحرك نحوها، ليعطي لها العكازين. سارت بيهو بارتباك في اتجاه الحمام، وسقطت مرتين، ولم يكن هناك سوى دوشيانت ليساعدها، حيث سار بجوارها.

قالت بيهو. «أترى، ألم أقل لك سنكون سندا لبعضنا البعض. إننا الآن متعادلان. النتيجة واحد مقابل واحد». أغلقت الباب وكان دوشيانت بانتظارها في الخارج.

قالت. «لقد انتهيت». ثم فتحت الباب. ساعدها دوشيانت في المشي حتى تعود من جديد إلى سريرها وتصعد إليه. وعاد دوشيانت بدوره إلى سريره. فتحت كتابها وبدأت في القراءة.

«ألا يمكنك أن تقرأي في وقت لاحق. هل تسمحي وتخبريني كيف عرفت؟».

«أعلم تماما أنك ساعدتني وفعلت الكثير للتو، لكني أعتقد أن عليك أن تعتذر لي أولا. قبل أن أقول لك شيئا».

«حسنا، اتفقنا. أنا آسف. لن أكون وقحا معك».

«والدكتور؟».

تمتم...

قالت. «افعلها إن استطعت!».

«حسنا! الدكتور طبيب عظيم. إنه الأفضل. إنه يعرف كل شيء!».

قالت. «إنك تسخر، لكني قبلت اعتذارك».

«والآن، قولي لي؟ كيف عرفت؟ هل أتت إلى هنا؟ لكي تسأل عني؟» وجه لها الاسئلة وقد نفذ صبره. على الرغم من أن مجرد ذكر كاجال أثار في نفسه الغضب وخيبة الأمل، إلا أنه أراد أن تقول نعم على كل سؤال طرحه عليها.

قالت. «لقد حضرت إلى هنا بالأمس. كنت نائما وقد أخبرتني عنكما. انتظرتك أن تستيقظ لكنك لم تفعل. لقد تحدثنا لعدة ساعات. ثم... أظن أنها لا تزال تكن لك مشاعرا. لم تترك يدك طيلة الليلة الماضية. عندما سألتها، قالت إنها فقط تشعر بالقلق لأنك كنت مندفعا بجنون نحو تدمير ذاتك».

«أنا على يقين أنها لا تكن لي أية مشاعر. لها حبيب، إنهما يعيشان معا منذ فترة ليست بالقصيرة». وتدلى رأسه وجف صوته.

«لقد تركته. قالت لي أنها في طريقها إلى لندن في غضون أيام قليلة للالتحاق بكلية هناك لدراسة في الفنون الحرة. الأدب أو الصحافة... شيء من هذا القبيل».

«ماذا؟».

قالت. «يبدو أنك لا تعرف؟ تصورت أنك تعرف. أوه نعم، لقد أخبرتني أنكما

لم تتحدثا على مدار السنتين الأخيرتين. أنا أتعجب لماذا تركتها ترحل ولم تحاول استعادتها. يبدو أنها من أصل طيب. قامتها فارعة، جميلة، ولطيفة جدا ـ أرى أنكما رفيقان رائعان معا...»

قال. «لقد حاولت...» ثم تلاشى صوته. لم يعرف ماذا يضيف، وبيهو بدورها لا تعتقد أن عليها قول أي شيء. عادت إلى كتابها.

قال. «أشكرك، أعتقد أني بحاجة لبعض النوم».

قالت بوجه باسم. «هذا من دواعي سروري».

أمسكت يدي؟ ثم فرك يديه وتطلع لهما، حتى أنه شم رائحتها فيهما. تقلب على الجانب الآخر وتخيل كيف كانت الليلة الماضية لتبدو لو لم يكن نائما، ولم يكن وقحا كما كان في المرة السابقة. كان ليحتضنها... ربما بكت، ربما لا... وربما كانت لتخبره كم تحبه، وقد لا تقول... ربما أخبرته بأن كل شيء سيكون على ما يرام، وربما لا. وبخ نفسه على الطريقة التي كان يفكر بها من قبل. الشيء الوحيد الذي أعادها إليه أنه على شفا الموت. وإذا لم يكن هذا هو السبب، ماذا تغير خلال عامين من تجاهلها له، والتصرف كأنه لا وجود له؟ عامين على معاملته وكأنه غريب؟ فكر. ربما كان يستحق ذلك.

كان غارقا في سيناريوهات خيالية أخذته للأماكن التي سيكونان فيها معا، حين دفع الباب ودخل ثلاثة من صبية الجناح إلى الغرفة. أعتقد أنهم قادمون من أجله، ولكن كانوا في طريقهم إلى الجانب الآخر، وبسرعة أخذوا بيهو بعيدا على النقالة. انتابه القلق بسبب أوجه صبية القسم العابسة، ووجهه تجمد. أراد أن يقول شيئا، جزء منه أراد أن يوقف الصبية ويمنعهم من أخذ بيهو، لكنه كان عاجزا عن الحركة. شعور مخيف يجتاحه. كما لو أنه لن يراها مرة أخرى. كانت بيهو تبتسم وهم يصحبوها بعيدا. تطلع حوله متوترا، وشعر بالضجر من الأنابيب والقطارات. إلى أين يأخذونها؟

حاول النوم كي يوقف الألم لكنه هجره. تطارده صور الوجوه الحادة المتوترة. ظل يتقلب في سريره دون هوادة. نهض وهو يتكئ على سريرها، وبدأ في تصفح الكتب التي كانت تقرأها بيهو. كانت مرصوصة بدقة على الطاولات المتوفرة في الجناح الصغير. وكان معظمها سميكا مثل معصمه فابتعد عنها. رأى كتابا في الزاوية، كتاب صغير، اسمه أيام الثلاثاء مع موري. لشعوره بالفراغ، سحب الكتاب وعاد لسريره. إنه يشعر أنه بحال أفضل اليوم. يمكنه التحرك دون ألم. عدد صفحات الكتاب تكاد تصل إلى 190 صفحة، يعرف أنه لن يستغرق أكثر من ساعة لقراءته من البداية للنهاية. إنه دوما قارئ سريع، وقد كان الأفضل في أداء امتحان القبول نيابة عن الطامحين في اجتيازه. كانت قوته في الأسئلة الخاصة بالمقالات الطويلة.

بدأ في قراءة الكتاب. بعد الصفحات القليلة الأولى، رأى أن هناك فقرات كثيرة من الكاتب وضع تحت سطورها علامات بالفلوماستر بشكل مكثف. إنه كتاب لأحد الطلاب يحكي عن مدرسه البالغ من العمر سبعين عاما، وقد رأى الطالب استاذه يموت ببطء بفعل مرض التصلب الجانبي الضموري أو مرض لو جيهريج، ويحكي عن الكيفية التي تأقلم بها مع المرض ببطء، حيث أصاب الشلل كل أجزاء جسده، وأصبح ضعيفا، بلا فائدة. اية. ال.اس هو اختصار التصلب الضموري الجانبي، لكنها قطعت تلك الكلمات وأبدلتها بكلمات أخرى بنفسها ـ عش دائما قويا، وتبعتها بابتسامة. ومع كل صفحة ينتقل إليها، يصير أكثر قلقا، ثم يبدأ في جمع التفاصيل معا. أخبرته بيهو أنها تفقد إحساسها، وهذا ليس بالأمر الخطير. كانت تكذب! الحقيقة أنها كانت تحتضر. كان يمسح حبات العرق من على جبينه كلما صار العجوز في الكتاب أكثر ضعفا، الآن صار عاجزا عن أن يتناول الطعام بمفرده. هناك أنبوب يخترق بطنه، وقد انكمشت ساقه وبدت كساق طفل. وكانت الأيام الأخيرة من حياة

العجوز مؤلمة ـ تلاشت عضلات جسده، التقرحات في كل مكان، هناك أنابيب تخترق جسده ليأكل، ليتغوط، وليتنفس. وفي أحد الأيام، سقط في غيبوبة، وغادر الحياة بعد عدة أيام. تلوى قلب دوشيانت بفعل الألم. جحظت عيناه، وإحساسه بالذنب لحماقته مع فتاة تحتضر كان مدمرا.

من المستحيل أن يكون وجود هذا الكتاب من قبيل المصادفة! العديد من العبارات وضع تحتها خط، وقصاصات ملونة من الأوراق وضعت في الأماكن التي تطور فيها المرض عند العجوز. لماذا أخذوها بعيدا؟ ربما كانت تخضع لعلاج ما الآن. وعلى أية حال، فقد كتب هذا الكتاب قبل سنوات مضت، وقد تغيرت أشياء كثيرة منذ ذلك الحين. من المؤكد، أن هناك علاج الآن. أمسك هاتفه الخلوي، وبعصبية شديدة، راح يتصفح جوجل بحثا عن معلومات عن المرض. كان وجهه يمتقع أكثر كلما قرأ المزيد عن المرض، وكان يشعر بالذعر لأن الأمر برمته ليس به أي نوع من العدالة. كيف لها أن تموت؟ بدت على ما يرام. نسي ألمه الخاص وانتابه شعور بالرعب لأجلها.

فجأة، مرت برأسه كل المواقف التي جمعتهما، في عرض بطيء، وشعر بألم شديد جراء الطريقة التي تصرف بها معها. ذاقت فتاة تحتضر منه كل أشكال السخرية، الوقاحة، الإهانة. فتاة تحتضر؟ هل من الممكن لأحد أن يكون أسوأ من ذلك؟ وضع وجهه على راحتيه وانتابه أسوأ شعور مر به في حياته... وهذا يقول الكثير، باعتبار أنه مر بتغيير حقيقي في حياته. لقراءة الأجزاء التي تحتها خط في الكتاب مرارا وتكرارا، أثارت لديه رغبة قوية في التقيؤ.

عندما وجدا نفسه قلقا مهزوما، اتصل فورا برقم هاتف كاجال. رن جرس الهاتف عدة مرات، دون رد من الطرف الآخر. وبطبيعة الحال، ونتيجة لأنه غير رقم هاتفه بضع مرات خلال الفترة الماضية، لم يتوقع أن يكون رقمه لدى كاجال. وبعد عدة اتصالات دون رد، اتصل بزهرة. أرادت زهرة أن تعرف لماذا يرغب في

لقاءها على نحو عاجل، قال لها أنه سيخبرها حين تصل إلى المستشفى. وبعد ذلك بدقائق، وصلت زهرة إلى جناحه بينما دوشيانت لا يزال تحت أثر الصدمة.

سألت زهرة. «ما المشكلة؟ هل أنت بخير؟». وبشكل تلقائي، وضعت يدها على جبهته لتفحص حرارة جسده.

قال. «أنا بخير». ودفع يدها بعيدا. ثم سأل. «لماذا لم تخبريني عن بيهو؟».

«ماذا عنها؟».

«إنها تموت! تحتضر، أليس كذلك؟ رأيتها تقرأ هذا الكتاب منذ بضعة أيام، وقرأته اليوم. إنها تموت، أليس كذلك؟».

«أي كتاب؟».

«هل هذا ما يهم بحق السماء؟ فقط أخبريني. هل هي تموت؟».

تمتمت. «نعم».

«لماذا لم تخبريني؟».

«تصورت أنك على علم! الجميع يعلم. تقضي الساعات معها في نفس الغرفة. افترضت أنك تعرف حالتها».

على الرغم من أن كلامها يبدو منطقيا، إلا أن دوشيانت لم يكن يبحث عن تفسير عاقل. إنما، كان مشغولا للصراع مع الحقيقة.

قال غاضبا بينما يتصبب العرق ببطء من جبهته. «لم أكن أعرف! لو علمت، لم أكن لأقسو عليها على هذا النحو. كانت دائما تبتسم وتضحك، لذا ظننت أنها تعاني من بعض مشكلات بسيطة مثل التهاب الزائدة الدودية أو شيء من هذا القبيل. إلا أن تصاب بالتصلب الجانبي الضموري؟ ليست عجوز على أية

حال! الرجل في الكتاب كان في السبعين من عمره! كان لا يزال بعيدا تماما عن الهدوء».

قالت زهرة بينما تجلس إلى جواره. «عليك أن تهدأ يا دوشيانت. كيف حال الألم اليوم؟».

«لا أعاني أية آلام بحق الجحيم! لماذا لا أعرف؟ دفن وجهه بين راحتيه مجددا؟».

«أنا آسفة، لأني لم أخبرك، ولأني افترضت أنك تعرف. هل أخبرتك عن مرضها؟».

قال لها. «عندما سألتها، أخبرتني أنها تعاني من بعض المشاكل في الإحساس في أطرافها، وأن هذا أمر بسيط ليس به أية خطورة».

«أتحدثت معها؟ هذا جديد. سيمر الأمر على خير. في الحقيقة إنها لم تكن تكرهك لطريقة تعاملك معها. لم تكن تكره أحدا».

قال وهو يهز رأسه. «يسيطر عليّ شعور الآن أني أحمق».

قالت ضاحكة. «تشعر؟ أنت أحمق، أليس كذلك؟ في الحقيقة، أنت تتفاخر بكونك كذلك».

قال. «الآن هذا أمر بشع».

كلما استغرقوا في الحديث عن الأمر، كلما اتضح الموقف بأكمله، وباتت التفاصيل ذات معنى. هذا يوضح لماذا كانت أمها تبكي كل ليلة وتتشاجر. طيلة الوقت، كانت تنظر إليه في حسد. الأمر واضح الآن لأن ابنتها كانت تموت في حين سيحيا هو. بينما كان جالسا هناك، تساءل ما إذا كانت والدتها تتمنى له الموت بدلا من ابنتها، لتعيش بضع لحظات إضافية قبل أن تفارق

الحياة. ظل الشعور بالذنب يسيطر عليه بينما يتذكر ذلك اليوم الذي حضر فيه أصدقاؤها لمقابلتها.

أخبرته زهرة عن الحوار الذي دار بينها وبين بيهو، وأخبرها دوشيانت بكل ما قالته بيهو عن كاجال، الغيبوبة، إمساك كاجال ليديه، وتفاصيل أخرى. يظن أنه رأى وجه زهرة يتدلى عندما حكى لها عن مقابلة بيهو مع كاجال. وبينما يشاركها تخوفاته من تواصله مع كاجال مجددا، لاحظ تلك النظرة الشاردة بعيدا في عينيها. ومع كل هذا الذي يدور برأسه، قرر أن يتجاهل الأمر برمته. وبعد ذلك بقليل، طلّ ألم مبرح بوجهه القبيح مرة أخرى، وكان على زهرة أن تحقنه بمسكنات لتصمت صرخاته، وأجهزته المحتضرة.

وبعدها بقليل، غط في نوم عميق بينما غادرت زهرة دون ابتسامة على وجهها.

22 ـ زهرة ميرزا

كان الكوب السادس من القهوة في صباح ذلك اليوم، كل واحد منها أقوى من سابقه. إن لم يكن جسدها قد اعتاد على تناول جرعات منتظمة من الكافيين، لانفجر قلبها لتوه وخرج من صدرها. إنها في حاجة إليها. طبيبها المشرف كان يجري عملية جراحية تجريبية على مريضته، وإذا انكشف سره، ستقع هي الأخرى في ورطة. من المحتمل أن تفقد رخصة مزاولة المهنة كذلك، في أقرب وقت. وكأنها في حاجة للمزيد من المتاعب، لتصل إليها أخبار صديقة دوشيانت السابقة ـ التي رحلت ـ تحوم حول غرفة دوشيانت، تمسك يده، محاولة استحضار مشاعر الحب المفقود.

«تلك العاهرة!».

ما أزعجها حقا، كانت سحابة الغموض التي كست وجه دوشيانت، عندما تحدث عن كاجال، وعما إذا كان عليه التحدث إليها. لم تكن كاجال الشخص الذي كان معه بينما كان يحتضر، أو عندما أُدخل المستشفى، وما من أحد لا يراه شخصا أحمقا. إنها هي! شعرت بأنها ضحية للخيانة على نحو ما، لخديعة. على مستوى آخر، شعرت أنها شديدة الغباء، لأنه كان مجرد مريض آخر. وإذا لم يكن ذلك كافيا، إنه ذلك المريض الذي قد لا يرى الفجر القادم. ربما لا أستطيع أن أحبه، فهذا من الغباء! هذا جنون!

الكلمات، والأمراض، واستمارات التأمين التي عليها أن تملأها صارت غائمة،

عجزت عن التفكير في أي شيء آخر غير دوشيانت. وأصبحت كل لحظة تمر بمثابة تهكما على حدسها السليم، وأصلها. لكنه وارد، أليس كذلك؟ حتى، الطبيب ذو الخبرة الكبيرة، اهتز قلبه بمشاعر تخطت كونها مجرد قلق على مريض يمكنه انقاذه. أصابها الغضب، فتجرعت القهوة الساخنة، التي أحرقت لسانها، وحاولت بإصرار أكبر أن تركز. بعد مرور الدقائق الأولى المربكة، قالت أنها تمكنت من إقصاء خواطرها الخاصة بدوشيانت من رأسها، ثم انطلقت. طوال اليوم، تجنبت عبور الممر عمدا. على الرغم من أنها تعرف أن دوشيانت نائم، لا تزال تجد نفسها بجوار سريره.

«لماذا؟ إنه مجرد نذل وقح!».

لإلهاء نفسها، ذهبت للإطمئنان على حال جراحة بيهو. وكان قد خطط لها كل شيء حتى أدق التفاصيل. لم يرغب في الاستعانة بأي من العاملين في المستشفى، لأنه يعلم جيدا أنه لو عرف أحد ما يقوم به، سيقع الآخرين في مأزق أيضاً. قبل أيام من الجراحة المقررة، كان قد اشتكى من الفطريات التي تنمو فوق فتحات التهوية في غرفة الجراحة. تم إغلاق غرفة الجراحة لبضعة أيام حتى إشعار آخر. تولى مسؤولية متابعة مدى العناية بها، والتأكد من عدم تفشي الفطريات في الغرف الأخرى. كان رئيس، ورئيس العمليات، مندهشا من المبادرة.

استخدمت الغرفة في ذلك اليوم لإجراء العملية لبيهو. كان من المفترض أن تمتد العملية لوقت طويل وكئيب، وبالنظر إلى أن زهرة لم تره منذ الصباح، تأكد لديها ذلك. علمت زهرة أنه سعى للاستعانة بمساعدة خارجية ـ أحد أصدقائه الجراحين زميله في كلية الطب ـ لكنه لا يريد لها أن تعرف. كلما قل ماعرفت، كان هذا أفضل.

إلى أي مدى يمكن أن يسوء اليوم؟ وبينما يدور السؤال في رأسها، سارت نحو غرفة الجراحة. عندما وصلت إلى هناك، وجدت الغرفة مختومة. ركضت باتجاه المصاعد ورأته يصافح رجلا في نفس عمره تقريبا. وقفت بعيدا في انتظار انصراف الرجل ثم اقتربت منه لسؤاله عن نتيجة العملية.

ألقت التحية. «مرحبا».

رد. «مرحبا».

سألته بصوت خافت. «كيف حال العملية؟». كان هناك آخرون في المصعد أيضاً، بعضهم أطباء. ظل على صمته حتى وصل المصعد إلى الطابق الذي يوجد به مكتبه.

«كانت على ما يرام. لكنها كانت أصعب مما تصورنا في البداية. كانت جراحة عسيرة جدا جدا». ثم توقف. «الحمد للّه أني...».

سألته بينما هما في الطريق إلى المكتب. «هل تعتقد أنها سوف تكون بخير؟».

أجاب. «لا أعرف ـ أعتقد أننا فعلنا كل شيء على النحو السليم. علينا أن نضعها تحت الملاحظة المتواصلة لمتابعة تطور الحالة. لسنا متأكدين من أي شيء حتى الآن. الخلايا الجذعية...»

قاطعته زهرة. «ستكون بخير». بدا مجهدا. الدوائر السوداء تحت عينيه وترهل كتفية لم تكن سوى اشارات صارخة.

«آمل ذلك». ثم استرخى على كرسيه وتنهد. تطلعت إليه وقالت. «من المؤكد أنه كان يوما شاقا وطويلا عليك». سألته. «هل تريد مني أي شيء».

أجاب. «ربما يكون لطيفا لو أحضرت لي بعض قهوة».

قالت. «أنا لا أعتقد أنك في حاجة للقهوة. أنت بحاجة للنوم. سأغلق الباب واطفيء الآنوار». وتوجهت نحو أزرار الكهرباء.

أجاب. «لا أعتقد أن بإمكاني النوم اليوم. هل اسديت لي معروفا وذهبت للاطمئنان على بيهو؟ إذا لم يكن لديك مانع. نحن بحاجة إلى ابقائها تحت الملاحظة، ولا يمكنني أن أفسر هذا لإدارة المستشفى. وسيكون لطيفا منك لو امكنك المساعدة».

أومأت زهرة. «سأفعل». رؤيتها له مجهدا ومبعثرا على هذا النحو، جعلها تشعر بالأسى حياله. لم تكد تخطو ثلاث خطوات، حتى ناداها.

تمتم. «لم أكن أتصور أن الأمر سيكون بهذه الصعوبة. سبع سنوات، وآلاف من المرضى... رأيت العديد منهم يموتون أيضاً. لكن بيهو بالذات، لا أعرف. كل قطع أقوم به في جسدها يجعلني في حال أسوأ، على الرغم من علمي أنها لا تشعر بأي ألم. في كل مرة تفقد بعضا من وظائف أطرافها، أشعر أني أتحمل المسؤولية. لم أتخيل أبدا ان ذلك سيحدث مجددا. هذا مخيف. أنتظر! مجددا؟».

سألته. «حدث مجددا؟ ماذا تعني؟». كانت حريصة ألا تضغط عليه كثيرا. لم يجب. لكنه أغمض عينيه، ثم استلقى على كرسيه. سحبت زهرة كرسيا من مكتبه وجلست إلى جواره. لقد رأت كل جوانب شخصية الطبيب غريب الاطوار، إلا أنها لم ترى أبدا هذا الجانب الهش في شخصيته.

شرع يحكي. «حدث هذا في مستشفى والدي، سيدة، تكبرني بست أعوام، دخلت المستشفى وهي تعاني من آلام شديدة في البطن. كنت في بداية حياتي العملية، وظننت أني أعرف كل شيء. طيلة سنوات دراستي للطب، وكنت استخف بالأطباء العاديين أعاملهم مثل الطفيليات. كنت على ثقة أنه بإمكاني علاج السيدة. مرت الأيام ولم تزيد حالة السيدة إلا سوءا. كانت فاتنة... وحيدة.

اعتدت الجلوس بجانبها، وتبادل الحديث خلال تلك الليالي المرعبة. رأى والدي، الذي اعتزل الطب واكتفى بالإشراف الإداري، أنه لم يكن أمرا صحيا. مر شهر ولا زاد هوسي بشعرها الطويل، حسن وجهها الذي أصابه الجاف، شفتاها الورديتان اللتان فرق بينهما الخصام، عظام خديها الحادة، ورقبتها النافرة.

ظل فشلي يتراكم، لكن إيمان السيدة بي لم يتوقف. أخبرتني أنها حتى لو فارقت الحياة، لن تحزن لأنها حظيت بفرصة من الحياة أن تراني كل يوم قبل أن تودع الحياة في يومها الاخير. لم يعترف أي منا أبدا للآخر بكلام واضح مباشر، لكن ما وصل بيننا كان أكبر من كل هذا. سرعان ما صار ألمها ألمي. عجزي عن علاجها سبب لي إحباطا، فحاولت بكل ما أستطيع أن أجرب كل علاج مستحيل، واحدا بعد الآخر. لم يعترض أي من أطباء المستشفى الكبار، نظرا لأن والدي يمتلكها، إضافة إلى أن أحدهم لم يملك حلا بديلا لعلاجها. وحتى لو جاء أحدهم باقتراح ما، لم أكن لأسمح بذلك. فقد كانت مني، أنا، وعليّ أن أعالجها بنفسي.

بعد شهرين من المعاناة على يد طبيب متعجرف تنقصه الكفاءة، قضت نحبها. كشف تشريح الجثة أنها كانت تعاني من سرطان نادر، الذي كان من الصعب جدا اكتشافه. لم يلقي أحد باللوم علي. حتى خبراء مرض السرطان لم يكونوا ليدركوا وجود المرض في سبع حالات من إجمالي عشرة. ليس لديها عائلة، وهذا سبب عدم رفع أية دعاوى قضائية ضدي. توفيت بين يدي. كان من الممكن أن أنقذها لو لم أكن متكبرا وعنيدا لهذا الحد.. كنت في موقع المتفرج وهي تموت... ببطء...»

عندما أنهى كلامه، لم تجد زهرة كلمات لتسعفها. جف حلقها. كانت فكرتها عنه أنه مجرد طبيب ماهر بلا قلب، وأنه لم يرتكب خطأ قط. هذا هو السبب الذي جعله يمتنع تماما عن العمل في مستشفى والده؟ هل هذا هو السبب في

توتر علاقته مع عائلته؟ أرادت الإجابة على هذه الأسئلة ولكنها لم تكن على يقين من امتلاكها حق التدخل في حياته.

وقبل أن تسترسل في تجميع أفكارها المبعثرة في جملة واحدة مفيدة، تابع حديثه. «قررت الرحيل برغبة في تعلم معنى المسؤولية. لم أكن أملك الثقة الكافية للعودة مرة أخرى. استغرق الأمر مني سنوات لتجاوزه، وللتخلص من التورط العاطفي مع من أعالج من المرضى. على أي حال، هذه هي القاعدة الرئيسية اللعينة لمن يريد أن يصبح طبيبا».

تاهت مجددا في كلماته. آخر شيء كانت تتوقعه أن ترى طبيبا مثله يتهاوى على هذا النحو ويكشف عن أسرار من ماضيه. القاعدة الأولى ليست: »ألا تكون عاطفيا»، وإنما أن «تواصل حياتك». من مريض إلى آخر، من مرض إلى آخر، من مجموعة من الأمهات الثكالى والآباء الباكين لأخرى.

«لا أظن أنه عليك أن تلوم نفسك لموت السيدة. أو حتى لبيهو. فعلت كل ما بوسعك، وهذا ما يفترض علينا القيام به».

«زهرة، أعلم هذا. أنا فقط... أشعر بالأسف لأجلها».

أجابت. «لست وحدك من تشعر بالأسف لها، كلنا نفعل».

قال. «أتمنى أن تنجح العملية». ثم وضع وجهه بين راحتيه.

«كلنا نتمنى ذلك. ثم ربتت على ظهره».

«كيف حال دوشيانت؟».

شعرت بالاستغراب لأنه يسأل عن دوشيانت من بين كل المرضى ممن تقوم بمتابعتة حالاتهم. ردت. «إنه على ما يرام. دعنا نرى. إنه تحت الملاحظة، أتمنى أن يجتاز الأزمة بسلام».

صاح وهو يغلق عينيه. «لا تقعي في ذات الخطأ الذي وقعت فيه».

أطفأت زهرة الآنوار وغادرت الحجرة وهي تدرك أنها وقعت في ذات الخطأ الذي وقع فيه.

23 ـ بيهو مالهوترا

مرت ثلاثة عشرة ساعة كانت فيها بيهو راقدة على سريرها فاقدة الوعي في نوم بلا أحلام. وعندما فتحت عينيها، كانت أول صور ضبابية ظهرت على صفحة عينيها ستة أزواج من أعين فضولية تحدق فيها بصبر نافذ. على الفور، بدأ رأسها رد صدى الأصوات. «هل أنت بخير؟».

«كيف حالك اليوم؟».

«هل هناك أي ألم؟».

«هل يمكنك رؤيتنا؟».

أغلقت عينيها مرة أخرى للهروب من تلك الأسئلة ولمعالجة ما شعرت به في ذلك الوقت. لا يوجد ألم. يمكنني رؤيتهم. لا يزال لدي بعض القوة. أعتقد أنني أستطيع النهوض. بعد أن أخذت أكثر من نفس طويل، فتحت عينيها ونظرت حولها. أمي. أبي.

دكتور زهرة. أحد أفراد الخدمة بالجناح لم يسبق أن رأيته. دكتور. تنهيده. دوشيانت.

«أنا بخير». همهمت بارتباك بينما تفتح عينيها مرة أخرى.

سأل. «أريد أن أوجه لها بعض الأسئلة، من فضلكم؟!» وانسحب الجميع من الغرفة ماعدا هو، جلس إلى جوارها وتنفس بعمق. ظل يتطلع إليها لبعض

الوقت، كأنه يراها بعد مرور عدة أشهر. جعلتها الهشاشة البادية على وجهه، والتي توحي بأنه يكاد ينهار إذا نظر إليها طويلا، تشعر أنها قيد الحياة. لم يكن سحره، أو تفوقه، وغرابة أطواره، ما جذبها له، إنما تلك الهشاشة والإنسانية خلف هذا المظهر المتعجرف، الذي يصاحبه دوما.

سألته. «لماذا تنظر في وجهي على هذا النحو؟». ثم تأملت الكلمات التي قالتها لتوها. كأنها خرجت قبل قليل من فيلم ثمانيني قديم بسيناريو سيء.

«أتساءل فقط كيف يمكنك أن تبدين على هذا النحو من السلام والهدوء بعد أن أجريت تلك العمليات الصعبة التي لم يجرها أحد قبلا».

قالت واحمر وجهها. «كنت بين يدي طبيب رائع».

قال. «حسنا، قبل أن تمطريني بكلماتك الرقيقة، أنا في حاجة لإجراء بعض الفحوصات ثم فحص النبض. هل تشعرين بأي ألم».

قالت محاولة إثارته. «ليس بعد الآن». ثم نظرت إلى عينيه.

قال غاضبا. «هلا توقفت عن فعل ذلك؟».

شهد والداها الحوار بأكمله، وأحست بيهو بحيرتهم بفعل الأجواء الوردية بينها وبين الطبيب.

«حسنا، سأكون جادة على شرط واحد، أن نخرج سويا في ميعاد غرامي. لم أواعد من قبل، ومن يدري... ربما لم تتح لي الفرصة مطلقا». قالت بعذوبة. «أتمنى أن تكون أول من أواعد».

«أنتي فتاة ذكية، تستخدمين ورقة مماتك بذكاء». ثم قال. «لو تحدثنا بجدية، لا أشعر بخير عندما تقولين هذا».

«ربما لا أضطر لاستخدامها إذا بدأت تتصرف كرجل شهم وعاملتني بالطريقة اللائقة».

«حسنا!».

«ماذا؟».

«الليلة. موعدنا. سأحاول أن أكون رجلا نبيلا. ولكن عندي شرط، أيضاً».

سألته. «ما هو؟».

قال. «أن تتحسن حالتك في أقرب وقت».

ابتسمت بيهو. بعد ذلك، أجابت على جميع الأسئلة التي وجهها لها، ولم تصدق حظها أن أعظم طبيب رأته في حياتها سيخرج معها في موعد غرامي. وجب على والدها أن يكون فخورا؟ هذا المساء! لهذا صنعت الحكايات الأسطورية... وفي وقت لاحق، سألت نفسها السؤال الذي لم تعتقد أنها ستسأله أبدا. ما الذي يجب أن أرتديه؟ ثم تطلعت لمعطف المستشفى وشعرت بالأسف لنفسها. ولو قليلا. على كل حال، إنه أول موعد لها في حياتها مع رجل ربما تصارعت من أجله كل الفتيات. عبقري. مليونير. مذهل. طبيب.

كان جسدها يؤلمها بحلول المساء. هناك ندبة كبيرة على عمودها الفقري حيث فتحوا ثقبا ورتقوه. مؤلم. طوال اليوم، تعتذر عن الحديث مع أي شخص متحججة بالألم الذي تشعر به. ومن الغريب أن دوشيانت كان يرغب في التحدث إليها في ذلك اليوم، لماذا اليوم؟ جالت بخاطرها ملايين الأسئلة، بينما سيطر عليها شعور بالضيق والقلق. موعد في رداء المستشفى؟ حاولت عدم التفكير في ذلك، وكلما جاهدت، كلما انتهى بها الأمر في العودة للتفكير في ذات الأمر. هناك اختبار للأعصاب كان عليها أن تجريه خلال اليوم، ورغم أنه لم تظهر أي من مؤشرات التحسن، إلا أن حالتها لم تسوء. نزلت عن فراشها بضع مرات لتعرف ما إذا كانت قادرة على السير بمفردها أم لا.

لم تستطع.

ساقيها كأنهما امتداد مطاطي لجسدها لا جدوى منهما. تلهث بعد عدة

خطوات كأنها كانت تعدو. إضافة إلى ساقيها عديمة الجدوى، لم تكن أجزاء جسدها الأخرى أحسن حالا، فقد كانت بلا جدوى كذلك. لم تظهر آثار العملية بعد. صلاة واحدة تتردد في قلبها ـ فليكن اليوم عظيما وسوف أموت سعيدة. وبعد محاولات قليلة للمشي بالعكازات، استسلمت. وعندما عادت لترتاح على سريرها، أدركت أنها لا تملك ما تخفيه عنه. لا يوجد من يعرف عن تطور المرض أكثر منه. لقد كانا معا في كل هذا.

كان من المفترض أن يلتقي بها في الساعة الحادية عشرة ليلا، عندما ينام الجميع. الوقت يسير ببطء. منذ الثامنة مساء، وهي تنظر إلى ساعتها كل بضع دقائق، على أمل أن يتحرك الوقت بشكل أسرع 9.10 10.30 10.45 كلما اقترب الميعاد، كلما بدا بعيدا. في الدقائق العشر الأخيرة، عطرت نفسها وصففت شعرها على أفضل ما يكون. هناك حدود لما يمكنها فعله، وبكل أمانة، لكنها تحب ذلك. كان الأمر بسيطا.

عيناها لا تغادر الباب أبدا، إنها تنتظر فارسها بدرعه اللامع ـ وفي حالتها، فارس بسماعة حول رقبته ـ ليأخذها بعيدا. الآن يخفق قلبها تماما، ولم يعد الأمر مجرد تعبير. وأظهرت الأجهزة التي قاست ضربات قلبها معدلاً سريعاً، وبدأ الرسم البياني كما لو أنها أنهت الماراثون لتوها. أصبح أسوأ مع مرور كل ثانية. في بعض الأحيان، شعرت أنها على وشك الموت. بعد لحظات، دفع الباب ودخل. وعلى الفور، شعرت بالضآلة أمام شخصيته القوية، يرتدي قميصا أزرق داكن، بنطال مناسب. بدا شعره مصففا بشكل جميل، ذقنه حليقة، ورائحته ذكية. أظهرت نظافة وجهه عينيه، التي بدت كبيرة متألقة، وأسنانه، تشع بياضا. يا إلهي! آمل الا ينخلع فكي ويسقط من وجهي! انه رائع!

تمتمت بعد أن عثرت على صوتها مرة أخرى. «تبدو رائعا!»

قال بهدوء. «شكرا لك». بدا وكأنه قد نسي ذلك الطبيب الوقح، السمج داخله، واحتفظ بـالفارس النبيل. «وأنت كذلك تبدين رائعة».

«نعم، لم لا؟». قالت ساخرة. «إنه حلم كل فتاة أن تكون بمعطف المستشفى في موعدها الغرامي الأول، أليس كذلك؟».

«لا أعرف شيئا عن الفتيات الأخريات، لكني أعرفك أنت. أول ميعاد غرامي لك في المستشفى. إنه أمر رائع، أليس كذلك؟». قال. «ليس في معطف المستشفى، إنما في معطف الطبيب». ثم مد يده اليمنى التي حملت معطفا أبيض، مطبق بعناية ومعه سماعة.

«ماذا؟».

أخذته من بين يديه، ثم جالت برأسها ذكريات كلية الطب. عرجاء وليست عرجاء. هذا أروع شيء رومانسي حدث لها طيلة حياتها... أفردت المعطف، تتلقى الصدمة الثانية لها هذا المساء، إنه بادج معلق على المعطف. كتب على البادج. (دكتور بيهو مالهوترا) تحته اسم وشعار المستشفى. أتمنى أن أتزوجه!

قالت وهي مغمورة بالسعادة. «هذا أروع شيء قدمه لي أحد طيلة حياتي!».

«هذا لا شيء». ثم احمر وجه الطبيب المتعجرف وحرك جسده بتوتر.

«هذا كثير!». قالتها ثم عانقت المعطف بمحبة وابتسمت في وجه. وضعته حول كتفيها ووضعت ذراعيها في أكمامه، ثم علقت السماعة حول رقبتها. شعرت كما لو أن... كأنها رأت هذا في أحلامها.

سأل. «هلا ذهبنا؟».

أجابت. «بالتأكيد». ومدت يدها للعكازات التي كانت إلى جوار سريرها.

قال. «لا حاجة لنا بها طالما أنا معك» ثم اعترض طريقها.

«الكرسي المتحرك؟».

قال. «هذا أفضل».

تطلعت إليه مرتبكة عندما سحب إحدى يديه ووضعها حول عنقها. وعلى نحو تلقائي، وضعت يدها بدورها على رقبته، بينما يده الأخرى تحملها من على سريرها. وبحركته السريعة، حمل بيهو بين ذراعيه. لم تظهر على وجهه المبتسم أي علامة على الإجهاد بينما يتجه صوب الباب، وهو يحملها بين ذراعيه القويتين. إنها تحلق، ما بها أكبر بكثير، من أي كلمات، من أية مشاعر، من أية أحاسيس، تشعر أنها مخدرة وكل ما فعلته هو التحديق فيه، بإعجاب كبير، وهيام خطف قلبها. بينما يحملها عبر الممر، تمنت أن تتجمد هذه اللحظة. أرادت أن تغادر جسدها كي تتطلع إليه وترى كيف يبدو ـ بينما يحملها بين يديه ـ ثم تأخذ صورة ذهنية لهذا المشهد وتحتفظ به في عقلها... سألت نفسها. لماذا لم أواجه الموت من قبل؟

كانت خطواته الواسعة قوية واثقة بينما كان يدخل المصعد ويضغط على زر الصعود للطابق الأخير. أخذتها كل خطوة وكل إحساس انتقل إليها من جسده إلى عالم مختلف تماما. إذا كان هناك أي إحساس آخر تريد أن تعيشه في هذه الحياة سيكون هذا الإحساس عندما يلمسها. وصل المصعد إلى الطابق الأخير، خرج منه، بينما لازالت يده ملتفة حولها. أنفاسه الدافئة التي انسابت على شعرها منحتها سعادة لا توصف، لدرجة أنها أصيبت بالقشعريرة في كل جسدها.. شعور لا يوصف ذلك الذي استولى عليها بينما يدخل إلى سلم الحريق، ويصعد بعض الدرجات ليصحبها إلى سطح المستشفى.

بمجرد وصولهما إلى هناك، أدركت أنها لم تعد في غرفتها. النسمة الباردة على وجهها أخرجتها من الحالة التي تشبه الغيبوبة التي تعيشها وعادت بها إلى وقتنا الحاضر. تلتفت حولها، واكتشفت أن المكان لا يبدو كما يظهر في الأفلام. لم يتضمن المشهد الحالم أية لمبات حمراء صغيرة، أو طاولة مستديرة

صغيرة عليها شموع، أو جهاز تسجيل يبث نوع الموسيقى الذي تحبه إنما طاولة مستطيلة صغيرة وزوج من الكراسي البلاستيكية. على الطاولة، هناك عشاء لفردين، زجاجتين من المياه المعدنية على الجانب. عبس وجهها لبرهة، وتجعد بفعل عطره الذي فاح ليخطفها مجددا، فارتسمت البسمة على وجهها.

وأخيرا، وضعها على الكرسي، وجلس إلى جوارها. لم ينطق أي منهما بكلمة لثوان معدودة. «حسنا، هذا غريب. لا شموع؟ لا أضواء؟ لا موسيقى؟ ما من طعام مغلف بالبلاستيك؟ كيف يكون موعدها الغرامي الأخير هكذا؟» قالت. «إذن...» وهي تحاول أن تشرح، ثم سألته أن يشرح لها أيضاً، كل هذا في وقت واحد.

«أعرف ما تفكرين فيه». سأل. «لماذا كل هذا، أليس كذلك؟» وارتفع أحد حاجبيه كأنه على وشك أن يعرض خطة ماكرة.

«نعم». قالت ضاحكة. «أنا واثقة أنك تملك تفسيرا منطقيا. أعني، كل شيء عظيم، ولكن بلا زهور؟ بدون موسيقى؟».

«كما في الواقع، ليس لدي تفسير منطقي. تخيلي أننا عشنا سويا على مدى خمس سنوات. ماذا عسانا أن نفعل؟ ربما كنا سنذهب للمواعدة بكثير من الورود، الشموع، وكل ما يمكنك تخيله في رأسك الصغيرة الجميلة. لكن هذه ليست حياتنا، أليس كذلك؟ ستكون حياتنا كالتالي ـ سنجلس في مقهى المستشفى، ونتناول طعاما سيئا، ونناقش أمر المرضى. الصراع حول فكرة من على صواب ومن أخطأ. التعلم من بعضنا البعض. التشاجر. الضحك. البكاء. هكذا ستكون حياتنا. ستكون هذه هي أعظم لحظات حياتنا. أكثرها سعادة. لن نستطيع التمييز بين عيد وعيد. كل أعياد السنوات التي ستمر بنا خلال مرحلة الثلاثينيات، والأربعينيات، الخمسينات، ستكون متماثلة. لكننا سنذكر تلك السنوات، وليس

تلك المناسبات. الأيام ليست السنوات هي الأهم. السنوات ليست مهمة، إنما المهم هو التجارب. لا أهمية للتجارب، إنما الحياة أهم. هكذا ستكون حياتنا».

«فهمت وجهة نظرك». قالت ضاحكة. «ألا يمكننا أن نفعل ذلك مع الزهور؟ إني أمزح. أعتقد أنه شيء رائع، وأنا لا أعتقد أن بإمكانك أن توضح أفضل من ذلك. وقد قلت للتو «ملكنا»، لذا أنا أشعر بالسعادة. ولكن ما كل هذا؟». وأشارت إلى ملف على الطاولة يبلغ سمكه ستة بوصة. الاوراق في الملف بالية من أطرافها، وكأنها وضعت باهمال.

«هذا ملف يحتوي على ثلاث وستين حالة، هي الأكثر إثارة، بين الحالات التي عالجتها طوال حياتي المهنية. بعضهم كتب له الحياة وبعضهم مات. هذه هي الرسوم البيانية لأمراضهم، تطور الحالات، والأدوية، وأخيرا، النتائج». قال. «ربما تكون بعض هذه الحالات أصعب من قدرتك على الفهم، لكنك أثبتي في أكثر من مناسبة أنك أكثر من رائعة.. أعتقد أننا سنستمتع بالقيام بهذا».

في هذه المرحلة، كرهت الاعتراف بأنها في حالة إثارة. بدا الأمر كأنه نوع من الجنس الذهني، لا نهائي، لذة جنسية متفجرة، أو أفضل من هذا. فتحت الملف بحذر شديد، بدأت في دراسة أول مريض.

{عام 2004، جاء صبي يبلغ من العمر خمسة عشر عاما إلى المستشفى بألم في الصدر، طفح جلدي في جميع أنحاء جسده ـ

قاطعته. «هل جمعت هذا خصيصا من أجلي؟».

قال مواصلا. «فلنركز على الحالة».

طوال الساعة والنصف التالية، فحصوا العديد من الحالات، تشاجرا حول التشخيص المحتمل، أكلا من الأكل البارد عديم الطعم، تبادلا النظرات، وهما

على يقين أن لا شيء سيجعلهما أكثر سعادة إذا هذا كان روتين حياتهم للأبد. بينما تجري بينهما تلك الأحاديث الساخنة، تحرك إلى جوارها، وأمسك بيدها. كانوا يتحدثون عن مرضى راحلين، ولكن كلا منهم يعرف تماما عما كانوا يتحدثون. عندما استنفذت طاقة كل منهما، حملها وعاد بها إلى حجرتها ووضعها في سريرها. قبلها قبلة النوم الخالدة وغادر.

خاصم النوم بيهو ما تبقى من الليل. لم تتوقف عن استعادة ما حدث طيلة الليل مرارا وتكرارا. إضافة لهذا، لم يدعها ألم الصدر، وصعوبة التنفس المتزايدة، تنام بقية الليل. قالت لنفسها: ليس هناك ثمة شيء خطأ. قالت لنفسها: هذه هي حياتي، ولا يعتبر الغد سوى مجرد إجازة مرضية.

24 ـ دوشيانت روي

كان الوقت متأخرا، ولم يذهب دوشيانت للنوم بعد. على مدار ساعتين، كان في انتظار بيهو أن تعود من ميعادها الغرامي السحري. خمن أن الامور تسير على ما يرام، فقد مر وقت طويل. على كل لن يلوم نفسه لو سارت الأمور على غير ما يبغي. على كل حال، فإن سماعة الطبيب، معطف الطبيب، ملفات حال المرضى المثيرين. كانت فكرته لميعاد غرامي مثالي لبيهو. في وقت سابق من ذلك اليوم، عندما كان يجري فحصا روتينيا عاديا، بدا عليه التوتر قليلا. لم يكن دوشيانت ليتكلم، لكنه سأله عما يزعجه. طلب منه أن يغرب عن وجهه، وأن ينشغل بقتل نفسه، لكن دوشيانت أصر. باختصار، اقترح دوشيانت عليه كيفيه ترتيب موعد غرامي مثالي لبيهو.

في وقت سابق من تلك الليلة، عندما رأى أنه ينفذ اقتراحه بشأن الموعد الغرامي كما اقترح، ابتسم وصلى لأجلها. لكنه ظن بعد تفكير، أن وجود بعض الزهور، الشموع لم يكن فكرة سيئة على الاطلاق. كانت الثانية بعد منتصف الليل، عندما شاهده وهو يدخل الغرفة، حاملا بيهو بين ذراعيه. يا ترى كم يبلغ وزنها؟ حالما غادر، ود لو ذهب وتحدث إلى بيهو. كما كان عليه أيضاً أن يعتذر، لكن لم يجد الوقت المناسب ليفعل بعد.

لكن ساد شعور إيجابي، وتصور أن عليه أن يترك بيهو تأخذ كفايتها من هذه اللحظة الخاصة.

بينما يضع رأسه على الوسادة، تساءل عن شكل حياته لو احترم الفتاة التي يعني لها كل شيء. ومع عدم قدرته على منع تلك الرغبة، أخرج هاتفه الخلوي، واتصل بالرقم الذي كان عليه أن يتصل به منذ وقت طويل مضى. رن الهاتف.

قال وانتظر. «مرحبا كاجال». هذا دوشيانت. مر وقت طويل منذ أن سمع صوتها آخر مرة، تساءل ما إذا كان ذلك الصوت الرخيم، الحلو، الجميل لا زال على حاله.

ردت. «مرحبا، كيف حالك؟». لا يزال رائعا، فكر.

«أنا بخير». قال كاذبا. «الأدوية تبلي بلاء حسنا حتى الآن. كيف حالك؟». أراد أن يسألها لماذا حضرت إلى المستشفى لكنه احتار كيف يفعل هذا.

«أنا بخير أيضاً». ثم قالت. «لقد حضرتِ إلى المستشفى في ذلك اليوم. أووو! لقد كنت نائما، ولم أجد أمامي سوى الحديث مع رفيقتك في الغرفة، بيهو».

«نعم لقد أخبرتني. كنت أتمنى أن أراك». تساءل إن كان هذا سيظهره في موقف الضعيف. لكنه على أي حال، يحتضر.

قالت. «وأنا أيضاً أتمنى ذلك».

«هل يمكنك المجيء؟».

«الآن! هل أنت متأكد؟».

«هل يمكنك ذلك؟».

ساد الصمت على الجانب الآخر. مر الوقت بين اللحظة التي أنتهى فيها والتالية التي ردت فيها كأنه دهر من العذاب. لا يعرف لماذا طلب منها أن تأتي. هل أراد هذا لأنه رأى السعادة على وجه بيهو بعد أن عادت من الموعد الغرامي. هل يريد نفس الشيء؟ وعندما درس نتيجة عرضه الأنثوي، قالت كاجال أنها

ستأتي على وجه السرعة. رقص رقصة ابتهاج قصيرة في رأسه. لأول مرة منذ أن دخل المستشفى، نهض من سريره، جر نفسه إلى الحمام، ونظر إلى نفسه في المرآة. أكره نفسي. لم يحلق ذقنه منذ أيام، ولم تكن هذه هي المشكلة الوحيدة. خلال الشهر الماضي، فقد دوشيانت الكثير من وزنه، ولم يعد ذلك الرجل الذي قاربت رفعته **190** خلال تمارين كمال الأجسام. ولما حاول أن يستعرض عضلاته في المرآة، لم ير أمامه سوى هيكل ذراع. لم يعد هناك مكملات غذائية، حقن المنشطات في يده المنتفخة التي كانت تئن تحت قميصه الضيق. حلق ذقنه. غسل وجهه. مرتين. لا يزال مظهره سيئا كما في السابق.

استبد به الغضب، فلجأ إلى الصابونة الخاصة ببيهو التي تفوح منها رائحة الفراولة، وهو ما جعل جلده يبدو منتعشا.

توجه إلى سريره وبدأ يحسب الوقت بالعد التنازلي. لم يمر وقت طويل حتى سمع صوت طرقات على الباب ودخلت كاجال. وفي حلتها الزرقاء، بنطالها الممزق، والشبشب لم يبدو أنها طالبة في كلية الهندسة أبدا. ثم أفاق على الصدمة، كاجال في غضون أيام لن تكون طالبة هندسة. على الرغم من أنها من الأغنياء، إلا أنها قد لا يبدو عليها أبدا أنها ذلك النوع الذي يمكن أن يترك كلية الهندسة في منتصف الطريق، لأن الحياة قصيرة كي تفعل أشياء لا يرضى عنها، ويذهب للرقص في لندن ويدرس ما ليس له أية قيمة أكاديمية. لكن مرة أخرى، أضافت بيهو أن اتخاذ كاجال هذا القرار له علاقة بانفصالها عن فارون. ذاك السافل!

كراهية دوشيانت لفارون شديدة التعقيد ومتعددة الجوانب. وكان السبب الأكثر وضوحا نوم فارون مع صديقته. ولكن مرة أخرى، لم يكن هذا هو السبب الوحيد. فارون شاب غني وقد أنجز ما يفوق طموح أية فتاة. قد جاء من عائلة من أصحاب الملايين، لكنه أضاف بضعة ملايين من مجهوده الشخصي، أيضاً،

إلى حسابات والده الألفية في العديد من دول أوروبا. كره كل ما له علاقة به. السيارات. الأماكن التي ذهب إليها. رحلات الطيران الفئة الاولى. شقة فاخرة لم يسبق له أن عاش فيها. الشعر الأملس. نبرة الكلام المثالية. التقى به في المرة الأولى ـ عندما كان دوشيانت وكاجال يتواعدان ـ قرر أن يكره هذا الشاب، وقد زاد شعور الاشمئزاز والكره أكثر مع الوقت.

قال لكاجال. «تبدين في صورة رائعة». عندما جلست كاجال إلى جانبه.

«وأنت كذلك لا تبدو سيئا». ضحكت. «ربما أصابتك النحافة قليلا، لكني لم أعجب أبدا بعضلاتك على أية حال». رأى دوشيانت عيناها تتجولان بين القطّارات والإبر التي تخترق جسده وتبقيه حيا.

قال ساخرا. «هل أعجبوك! لا يمكنك إبعاد يداك عنهم».

«كلا. هذا فقط لأنك بذلت مجهودا كبيرا، وأنا لا أريد أن أخيب ظنك». كان هذا صحيحا. لم تخيب ظنه أبدا. أنا الأحمق. سألت. «هل تشعر بأي تحسن».

«قليلا. رغم أن الألم يصبح رهيبا ما إن يتراجع تأثير المسكنات. تلف كبدي وكليتي». قال. «وضعوني في قائمة زراعة الأعضاء، على سبيل الاحتياط». ربما نسي تماما أنه قد لا يعيش حتى الشهر القادم.

«قائمة زرع أعضاء؟». بدت الصدمة واضحة على وجه كاجال. أعرب عن أسفه لأنه تكلم. ليس بغريب عليه أن يقول أشياء لا يجب أن يقولها.

«أوه... ربما هناك فرصة في المليون لاحتمالية حدوثها». ثم كذب. «ليس بي شيء». على الرغم من أن كلماته كانت تتردد في رأسه. سنضعك في قائمة زراعة الأعضاء، لكن لا أعرف إن كان في هذا أية فائدة كانت. تتحرك القائمة ببطء وسجل أخطاءك لا يساعدك بشكل جيد مع أصحاب القرار. أعتقد أن عليك أن تخبر والديك. ربما يكون هناك تطابق.

قالت، وصوتها ممزق. «رفيقتك في الغرفة تقول أنك تموت. هل أصابك الجنون يا دوشيانت؟». لف ذراعه حولها حتى يهدئها.

«إنها مجرد طالبة صغيرة في كلية الطب. وعلاوة على ذلك، إنها واحدة من المحكوم عليهم بالموت، ومن الواضح جدا أنها تفقد عقلها ببطء..» ضحك دوشيانت. الغرفة تموج بالموت وخيبة الأمل، لكن لا يزال هناك قليل من الضحك في قلوبهم على أي حال. وضحكت بدورها.

«سمعت أنك في طريقك إلى لندن». سألها. «لماذا؟».

«مثلك تماما».

قال. «هل أنت متأكدة أن الموضوع ليس له علاقة بفارون؟».

«ولماذا؟ كلاكما أحمق. كنت تعيرني اهتماما كبيرا، بينما هو لم يفعل أبدا. لقد كنت دائما على خطأ مع خياراتي في الرجال. تذكر حازم؟. هذا الرجل الذي قال لي في السنة الأولى أنه سينتظرني حتى النهاية؟. ذلك الذي امتلك سيارة دفع رباعي سوداء كبيرة؟».

قال بكبرياء. «نعم هذا الذي ضربته».

«نعم. لكنه كان بمفرده وكنت بصحبة عشرة أصدقاء آخرين».

«كنت مضطرا لطلب العون». قال دفاعا عن نفسه. «كان كبير الحجم، أليس كذلك؟». أمر غريب أن مجرد ذكر الشباب الأخرين الذين عرفتهم يجعله يتلوى. مجرد تخيل كاجال مع شخص آخر كان أمراً محبطا له. خلال الفترة التي كانوا فيها معا، وجد دوشيانت نفسه في شجار دائم وهو ثمل، وتعارك بالأيدي مع أي رجل يقترب منها... في بعض الأحيان، وصل الأمر لعراك بين خمسين شخصا. وغالبا ما ينتصر فريقه. ربما يتعرض للضرب، وربما يحطم رؤوسا.

«نعم، كان عظيما. ربما كان يتوجب عليّ الذهاب إليه. أتعلم - إنه لا زال ينتظر؟ لازلت أحظى بزهور وشوكولاتة عند بابي في أيام ميلادي وفي الفالانتاين. على أعتاب منزلي كل عيد ميلاد وعيد حب. هذا لطيف، أليس كذلك؟»

سخر دوشيانت. «بصراحة إنه بشع، ومضيعة للمال!».

ضحكوا مرة أخرى. في لحظة، عادوا إلى الأوقات التي قضوها سويا، تتعانق أيديهم في الممرات الفارغة لقسم الهندسة الميكانيكية أو الطابق الثالث من المكتبة. سريعا، بدءا النميمة والحنين إلى كل الأوقات التي قضوها معا. مضت ساعتان، بعدها عاود الألم دوشيانت من جديد من معدته. كان يتمزق من الداخل لكنه لم يسمح لهذه الألم أن يظهر على وجهه مجددا. ولكن مثلما تسلل الألم، يعتقد أن عليه أن يستدعي المساعدة. آخر ما كان يتمناه أن ينزف على سريره أمام كاجال ويرعبها.

قال مزمجرا. «أعتقد أن بحاجة إلى مساعدة. الألم».

هرعت مرعوبة. «أوو.. سأستدعي أحدا حالا».

أمسك دوشيانت بطنه، وكأن بركانا أصابها، سمع صوت غصة من الجانب الآخر من الستارة. دفع نفسه بعيدا عن السرير وسحب الستارة بعيدا رغم أن جسده بدأ كأنه سيتفتت. فوق السرير، رأى بيهو ترفرف بيديها بعنف، وقد انقلبت عيناها، بينما يرتجف جسدها بعنف. وقبل أن يتمكن من دفع نفسه نحو سريرها، كانت قد توقفت. دون حراك. صرخ بصوت عال عند رؤيتها دون حراك. صرخ وهزها لكنها لم تستجب. أصيب بالهلع، وصفعها عدة مرات، لكن وجهها كان يتدلى من جانب للآخر. صرخ طلبا للمساعدة. وبعزم ما تبقى به من قوة، صعد على سريرها، ووضع كلا يديه فوق صدرها وبدا في الضغط عليه. لقد رأى هذا يحدث على شاشة التلفاز مرات عديدة. انحنى ونفخ في فمها المفتوح،

وضغط على صدرها مرة أخرى. حينها زاد الألم في جسده. الساقين. المعدة. الصدر. إنه يتلوى. أغلقت عينيه حين ترنح جسده وسقط من أعلى السرير فوق الأرض الصلبة، الباردة... ظلام.

25 ـ زهرة ميرزا

كان صباحا كئيبا، مثل كثير من صباحات قبله. ضوء خافت من الزجاج الداكن بغرفة نومها رسم أشكالا على الأرضية الموزايك. حضر والداها من جديد، وأخيرا تمكنت من فك لغز حضورهما المفاجيء المتكرر... في الليلة الماضية، ذكرت أمها خمسة أسماء، جميعهم أطباء، ممن عبروا عن إعجابهم بصورة لزهرة أرسلت لهم. إنها صورة لها من صور زفاف أجبرتها أمها على حضوره. كانت ترتدي ساري هندي، وفي يدها تحمل حقيبة شانيل ـ هدية أمها ـ اشترتها الأم لنفسها خلال رحلتها إلى أوروبا في العام الماضي. جمعت الصورة ثلاثتهم، لكن تم قصها.

سببت الزيارات الأخيرة لها إزعاجا. حاول والدها فتح مجال الحديث معها كل مرة كانا فيها على انفراد، لكنها كانت تشعر بالاضطراب والغثيان.

غادرت الغرفة وهي مرتبكة، واستدعت أمها. لا تعرف مكاناً تختبيء فيه. وبعد المرور على المطبخ، الشرفة، الحمامات، سألت والدها أخيرا. «أين أمي؟».

قال بينما يضع الجريدة إلى جواره. «ذهبت إلى المسجد المجاور لتصلي من أجلك. أعتقد أنها لن تغيب أكثر من نصف ساعة».

«حسنا». ثم استدارت منصرفة.

ناداها والدها. «زهرة».

«نعم؟».

سأل. «أيمكننا التحدث؟ هلا جلست هنا للحظات؟». نظرت إليه زهرة باشمئزاز. أرادت كل بوصة من جسدها أن تهرب من الرجل الذي لا يصدق ابنته، لكن نظرة التساؤل في عينيه منعتها من الرحيل...

قالت. «حسنا». وجلست على الأريكة. «من الأفضل ألا يتطرق الحديث عن من تم اختياره لي من الرجال». ثم أضافت بحزم. «أنا مشغولة بدرجة تمنعني من الزواج في الوقت الحالي».

قال. «أنا لا أتحدث عن هذا الأمر. أريد الحديث عنا».

هذا مستحيل. شعرت زهرة أن شخصا ما قد سحب البساط من تحت قدميها. فجأة، بدأت تشعر بالدوار. تملكتها رغبة في الهروب. لماذا؟ لماذا يريد الحديث عنا؟

سألت. «لماذا تريد الحديث؟».

«هناك بعض الأمور التي تعتقدي أني لا... وأشياء لا تعرفينها».

أووو كلا. هذا فقط سيزيد الأمور سوء. تمنت أن يتوقف ولا يتمادى أكثر من هذا. استغرق منها الأمر سنوات حتى تستطيع تجاوز تلك الليلة، وهو يجرها إلى الماضي، وهذا يعني أن ما حدث كان حقيقة. نظرت إليه باهتمام وهو سارح الفكر بينما رأت عينيه جاحظتين.

«كنت جبانا».

«نعم، كنت كذلك».

واصل. «أعرف ما حدث تلك الليلة. أردت أن أتحدث إليك منذ زمن بعيد عن ذلك، لكني لم أجد الكلمات التي على قولها. حاولت أن أغلق الموضوع وأن أخبرك أني لم أكن على حق أبدا، لكني عجزت عن هذا. أنا أتفهم جيدا كراهيتك

لي. أتفهم أيضاً أنه من الصعب عليك أن تجلسي في نفس الغرفة معي. وأنا أعلم أنني فشلت كأب».

سألت. «هل تسمح لي بالانصراف؟». اغرورقت عيناها بالدموع، لكنها حرصت ألا تبكي في حضور أبوها. وعلى الرغم من كل هذه السنوات التي مضت، التي قضتها في كره والدها، فانها لا تزال تذكر ذكريات الطفولة الجميلة، عندما كان والدها يدللها كوليد صغير. وقالت إنها لا تريد أن يذكرها أحد بهذا.

«نعم، بإمكانك. أنا أفهم لماذا. وأعلم أنه كان يتوجب عليّ أن أصدقك، ولكن هذا لم يحدث. وبعد مرور سنوات، عرفت ما حدث من ابنة رئيسي، وما فعل بك... أخبرتني أنك ذهبت للمستشفى عندما كان والدها في غيبوبة، قلت لها أن والدها كان وحشا، عارا، هتك عرض طفلة، منحرف فاسد... ثم خفت صوته. التهمني الإحساس بالذنب. لا أقل وحشية عن هذا الرجل. لم أكن أدري كيف آتي إليك وأعتذر. عجزت عن معرفة ما يتوجب علي عمله لعلاج الأمر... تمنيت الموت».

قالت. «أريد الانصراف». بينما سقطت دمعة وحيدة على خدها. قامت وأدارت ظهرها له.

تمتم. «حاولت قتل نفسي».

التفتت لتنظر في عينيه، لازالت تغلي، بينما تموج روحها بالمشاعر. وعلى نحو غريزي، فإن نظرتها الباحثة وقعت على يديه، على معصميه بقع كبيرة في كل مكان. يبدو أن شخصا عثر عليه سريعا بعد أن فعل هذا لأن الجروح تبدو عميقة بما يكفي لتكون كارثية وقاتلة في غضون دقائق. إنها قطعات متعمدة عميقة، ليست جروحا سطحية كما عند المراهقين.

«هل قطعت...؟» ثم خفت صوتها.

«لم تنجح المحاولة. سقطت بالسيارة من فوق الجسر. ابتلعت زجاجة من الحبوب المنومة... لكني نجوت». ناح كفتاة صغيرة. «عشت لأواجهك».

سألت. «متى حدث هذا؟» بدا التأثر واضح على صوتها. «انتظر؟ أكان ذلك عندما كنت أنت وأمي...؟».

أوضح لها. «لم نذهب أنا وأمك إلى أوروبا قط، كنت محتجزا في المستشفى لمدة شهر».

«وأمي؟ ألم تفكر فيها أبدا؟ هل تعلم؟ لو فارقت الحياة، ماذا عساها أن تفعل. لها ابنة لا تتحدث معها وزوج يحاول باستمرار أن يقتل نفسه؟ فيم كنت تفكر بحق السماء؟ ومجرد أنك حاولت قتل تفسك لا يعني أني سأغفر لك. كيف يمكنني غفران كل تلك السنوات التي كنت فيها أمام عيني ولم أجرؤ على قول شيء. ماذا تظنني فاعلة وأنت تذهب للحفلات مع ذات الرجال الذين اغتصبوني! كيف يمكن أن أنسى كل ذلك؟ فقط لأنك حاولت أن تقتل نفسك؟ أتعلم؟ كنت أتمنى لو فارقت الحياة؟ أنت تستحق الموت!». زمجرت ثم غرقت في بركة كبيرة من الدموع.

جلست على الأريكة، انكمشت ككرة صغيرة وتمنت لو أمكنها الاختفاء. بكت بينما تسمع أبوها وهو يبكي كطفل صغير. كانت غاضبة، مذهولة، واهنة. مر بذهنها ببطء شريط من الصور التي تجمعها بأبيها، وسار أمام عينيها، متقاطعا مع صور أخرى لأبيها يرقد على أرضية الحمام في بحر من الدم، يرقد بعظام مكسورة في سرير بمستشفى، يزبد من فمه لتناوله جرعة زائدة من الحبوب المنومة. تلاشى الغضب رويدا رويدا، لم يكن بإمكانها سوى أن تفكر كيف ستكون الحياة دون أبيها. كانت كالغريق.

لا تعرف كيف حدث هذا، لكنها وجدت نفسها بين ذارعي والدها، وكلاهما

بكى بحرارة. كل ثانية تمر تجعل حضور والدها بالقرب منها أمرا محتملا. ومع كل دمعة سقطت، كانت الكراهية تتلاشى. تراجع طوفان الدموع ولم يبق منه سوى دمعة. لم تعرف زهرة ماذا تقول، كل ما تعرفه هو أنها بعد سنوات من المرارة والعذاب، أعادتها إلى الحياة مجددا لحظة الحب الصغيرة هذه. عندئذ، رن جرس الباب.

وقفت زهرة وفردت قامتها. مسح كلاهما دموعه، وشعرت بشفتاها تتحركان لترسمان ابتسامة صغيرة. بعد ذلك، عدلت هندامها واتجهت نحو الباب. فتحت الباب واحتضنت والدتها. قالت هامسة. «صباح الخير». تطلعت والدتها إلى وجهها ولم تتغلب على إحساس الصدمة.

قالت أمها. «احضرت خبزا لالو بوري للفطور». ثم نزعت كيس النايلون بيدها.

قالت زهرة وهي تبتسم. «سآخذ حماما وأعود». بينما كانت في طريقها إلى غرفتها، لاقت عيناها عينا والدها وابتسمت. احمر وجهها خجلا. ولأكثر من سبب، النتيجة واحدة. طال بقائها في الحمام أكثر مما خططت. مكثت في الحمام لفترة طويلة، واقفة تتأمل شكل الحياة لو قدم أبوها اعتذارا لها في وقت سابق. أدركت أن غضبها كان موجها لوالدها في الأساس، أمها لم يكن لها شأن بهذا الغضب.

حضرت إلى غرفة المعيشة بعد أن جففت نفسها وارتدت ملابسها. كان والديها في انتظارها بالفعل على طاولة الطعام. سحرتها رائحة خبز الالو بوري اللذيذة المالحة. جلست وبدأت في تناول الطعام، بينما انزعجت والدتها إلى حد ما بفعل النظرات المتبادلة، والحوار القصير بينها وبين والدها.

سألت أمها. «متى تذهبين إلى المستشفى؟».

قالت. «في وقت متأخر من الليل». ثم ذكرت لوالدتها أيام عطلتها الأسبوعية.

سألت. «هل ستبقيان في البيت الليلة؟».

«كلا، سنذهب للسينما مع بعض الأصدقاء. فيلم المنتقمون الجديد يعرض في السينما حاليا. يقول الناس أنه فيلم رائع. سأحاول مشاهدته». ثم قالت. «إضافة إلى ذلك، روبرت داوني جونيور، لطيف للغاية». كانت أمها لا تزال على حيرتها من مزاج ابنتها المفاجيء للحديث.

«ماذا إذن عن الرجال الذين رشحناهم لك؟ عزيزتي، أنت على أي حال مشغولة جدا خلال أيام عملك. امنحيهم فرصة؟ هناك هذا الشاب اللطيف ـ»

قاطع والدها الحوار. «أووه... لا داعي. إنها لا تزال صغيرة. دعيها تستمتع بحياتها. يمكنها الزواج في وقت لاحق!».

قالت. «أترين يا أمي؟». وتتبادلت الضحكات مع والدها. اكتسى وجه أمها بالحيرة التامة.

«من يدري، ربما عثرت بالفعل على الشخص الذي تتمناه؟ زهرة، هل هناك من دق له قلبك؟».

قالت بابتسامة خبيثة. في الحقيقة، نعم. على الرغم من أنني لست متأكدة حقا من شيء بعد».

بدت أمها كمن صعقها البرق. تجمدت كأم في فيلم قديم من أفلام الثمانينيات، علمت لتوها أن ابنتها حملت من زميل لها في الكلية. «ماذا؟».

«أمي، أنا أمزح. هناك فقط هذا المريض الجذاب في الجناح الذي أشرف عليه».

«حسنا، إذن وقعت في غرام شخص ليس على ما يرام. أيا كان، إنه مريض. كيف يمكنك أن تحبيه؟ أتمنى أنه ليس مسيحيا أو هنديا. يا إلهي!». سألت وهي

تكاد تجن. «لماذا لم تخبريني بذلك من قبل؟». تطلعت إلى زوجها وقالت. «أكنت تعلم بالأمر؟». هز الأب رأسه بحماس كبير.

قالت. «أمي. اهدئي». ثم أضافت. «لا شيء سوى مجرد إعجاب».

قالت غاصبة. «الله وحده يعلم ماذا فعلت لأستحق كل هذا». وظلت لبقية الوجبة تبحث عن مبررات لتلعن حياتها، وهي ذات الأسباب التي تجدها زهرة لطيفة. بعد فترة من الوقت، تجاهلها أبوها وأمها، وشرعا يتحدثان في أمور أخرى. ولأن أمها لا تهتم بعملها قط ـ في الواقع، لم تتمنى أبدا أن تصبح ابنتها طبيبة وتعمل بالقرب من الأمراض ـ وبالنسبة لها من الأمور المريحة لها أن تتحدث عن عملها مع أحد أفراد عائلتها.

وبعد تضييع بعض من الوقت، لأنها لم تكن تريد أن تترك عائلتها التي استعادتها لتوها بعد كل هذه السنوات، غادرت البيت. التقت بصديقات المدرسة بعد فترة طويلة حقا، وفوجئوا لرؤية زهرة في تلك الحالة من النشوة. بعد أن جعلتهم يلغون خطة مشاهدة الفيلم، اصطحبتهم من متجر لآخر، لشراء هدية لوالدها. نالت اهتماما ولعنات كثيرة من أصدقائها، الذين فقدوا صبرهم بالتدريج، وأقنعوها أخيرا بشراء ساعة تاج هوير التي رأت ليوناردو دي كابريو يرتديها في أحد الاعلانات.

كان يوما مليئا بصدمات هائلة لأمها، لأنها رأت ابنتها تعطي والدها هدية أغلى من أي شيء اقتناه في حياته. لو كانت تحمل صينية من أكواب الشاي، لسقطت منها فورا، مثلما يحدث في المسرحيات التليفزيونية.

نحت على الساعة عبارة تقول. «مازال لدينا وقت».

في وقت لاحق من تلك الليلة، عرض والدها توصيلها إلى المستشفى لكنها رفضت. وصلت إلى سيارتها وغادرت، ولوح لها والديها من الشرفة، مثلما اعتادت

أيام المدرسة. بينما تسير سيارتها ببطء عبر الشوارع، تأملت كل الأوقات التي لعنت فيها والدها بسبب حياتها البائسة. وأنها أرجعت كل فشل واجهته في حياتها إلى أبيها. ولكن في ذلك اليوم، تعجبت كيف نست كل شيء بسهولة وهرعت للارتماء بين ذراعيه. بررت الأمر أنه مر وقت طويل على هذا، وأن والدها عانى بما فيه الكفاية. ربما أكثر مما عانت هي. للتكفير عن أخطائه، حاول والدها قتل نفسه ثلاث مرات، ولم تكن أي منها دون رغبة حقيقية. وفكرت أن الأحساس بالذنب ربما قاده إلى الجنون.

على مستويات معينة، شعرت هي ذاتها بالذنب حيال ذلك. ربما عادت الأمور إلى وضعها الطبيعي، قبل ذلك بكثير، لو أنها امتلكت الشجاعة الكافية، لفتح الموضوع مرة أخرى. لم يعد هناك المزيد لقوله أو فعله، الآن هناك شعور يتهاوى في معدتها، أن كل السنوات التي مرت في كراهية وبغض لن تعود أبدا. أوقفت السيارة ولدى دخولها لمبنى المستشفى، ارتسمت على وجهها ابتسامة الفوز. كان لديها رغبة في التصالح مع والديها. كانت فكرة مجنونة، وليس من المؤكد أن تكون شيئا ممتعا، لكن لم يكن هناك أي شيء تخسره.

ظهر الربيع على خطواتها، الابتسامة على وجهها، بدا حتى في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل. وضعت غلاية القهوة، وانتظرت حتى تصير جاهزة. تمددت على الاريكة، وفكرت في عطلة يقضونها سويا. ربما القيام برحلة حقيقية لأوروبا هذه المرة. أغلقت عينيها، وتصورت عائلتها في رحلة على جندول في البندقية، سمعت ضجة في الممر، ورأت طبيبا وبعض الممرضات يعدون من أمام مكتبها. أخبرتها فطرتها أن الجميع يهرع للغرفة الشهيرة **502**. قفزت وهرعت في اتجاههم.

وصلت هناك بعد خمس عشرة ثانية خلف الممرضات ورأت الباب مواربا. كانت بيهو تسعل بعنف على السرير بينما دوشيانت على الأرض، التوت ذراعه

بزاوية غريبة، دون حراك. على الباب، رأت كاجال ويديها تغطي فمها، كما اندفع الطبيب مع الممرضات بشكل جنوني من أجل المريضان. تجمدت ساقي زهرة، وعجزت عن الحركة أو التفكير.

تم وضع دوشيانت فوق نقالة، وأسرعوا به إلى وحدة العناية المركزة، فقد تعرض لنزيف حاد مجددا. من الخبرة البسيطة التي تملكها، يمكنها أن تعرف أن كبد دوشيانت قد تلف تماما. تواردت البدائل إلى رأسها. زراعة أعضاء، متبرعين أحياء؟ موتى؟ لا تأمين؟ ربما والديه؟ ثم جلست هناك على سرير دوشيانت، تحجرت، بينما استطاع الطبيب مساعدة بيهو لاستعادة التنفس الطبيعي مرة أخرى. اتصلت به لتعلمه بما حدث لمريضه.

لا تزال كاجال واقفة في الزاوية، تراقب المشهد في رعب.

وأخيرا، اتجهت نحو زهرة، وسألتها. «هل سيكون بخير؟».

«كبده انتهى تماما للتو». ثم قالت: وهو في حاجة لعملية زراعة كبد. لكن....»

«لكن، ماذا؟ هل تبحثون عن متبرع؟ هل يمكنني التبرع؟ إذا كان هناك توافق؟ أعني أنني بصحة جيدة ونحن حتى نتشارك نفس فصيلة الدم!». قالت كاجال وهي مذعورة. «ماذا تحتاجين أكثر من هذا لتحقيق التوافق؟».

نظرت إليها زهرة المرعوبة وهي في حالة صدمة كاملة. مشاعرها تجاه دوشيانت، تلك التي تصورتها حقيقية، تضاءلت أمام عرض كاجال بالتبرع.

قالت وهي تنهض من مكانها. «أنا بحاجة إلى التحدث مع رؤسائي».

قالت وقد فقدت صبرها. «هلا سمحت لي بمصاحبتك؟».

قالت. «لا، أعتقد أن عليك أن تكوني بجانب دوشيانت الآن».

قالت باكية وتكورت عند عامود السرير. «لا أعتقد أني أستطيع أن أراه في هذه الحالة».

زهرة، وبرؤيتها لشخص آخر أكثر قلقا على دوشيانت منها، قررت ترك الوهم والعودة مجددا إلى رشدها. ساعدت كاجال في الجلوس على السرير، ثم طمأنتها أنها ستفعل المستحيل كي توفر له متبرع. كاجال، التي تبكي دون توقف، همست أنها على استعداد أن تتبرع إذا ما اقتضت الحاجة ذلك. تعرف زهرة أن العثور على متبرع أمر في غاية الصعوبة، وبمجرد أن حصلت على الضوء الأخضر، ومع نقص أعداد المتوفين بأكباد لا يحتاجونها، والعدد المتزايد من مدمني الكحول المسنين ممن يملكون مالا وفيرا لإنفاقه. عملية زرع الكبد من متبرع حي أمر مكلف للغاية وهي لا تعرف بعد ما إذا كان دوشيانت باستطاعته تحمل التكلفة. إنها عملية طويلة جدا ومعقدة، تتكلف عادة أكثر من مليون ونصف روبية. بينما كانت تجلس هناك وتربت على كتف كاجال وتواسيها، دخل والدا بيهو مسرعان إلى الغرفة، يبكيان.. جلسا بجانب ابنتهما وظلا يسألان عن ما حدث. لم يكن عند بيهو أية إجابات على أسئلتهما ـ حدقت فيهما فقط دون أي تعبير على وجهها.

قالت لها. «انتظري هنا ولا تتحركي، سأعود لأخبرك بمستجدات الموقف، وكيف حاله». نهضت وغادرت الغرفة لتتحدث في الأمر مع مرؤوسها.

في هذه اللحظة، نادى صوت باسمها. «زهرة؟».

التفتت زهرة إلى الوراء لتجد بيهو هي من يناديها. «نعم؟».

سألت بيهو. «ماذا حدث؟ و... و... لا أستطيع أن أحرك يدي».

«كنت على وشك الاختناق حتى الموت. أعتقد أن قلبك توقف أيضاً. أخبرتني الممرضة للتو أن دوشيانت استعاد وعيه». قالتها ثم غادرت الغرفة. «لقد أنقذك». بينما أربعة أعين مندهشة تتابعها.

26 ـ أرمان كاشياب

قطع حجرته ذهابا وعودة، غاضبا، محبطا ـ ومرعوبا تماما. انتظر زهرة أن تعود إلى مكتبه وتحكي له بالضبط ما حدث. للمرة الأولى منذ سنوات عديدة، شعر وكأنه سيموت من القلق. إنها السيجارة الثالثة، ولازال أبعد ما يكون عن الهدوء. إذا فشلت العملية الجراحية، عليه أن يرتب عملية جديدة وبأسرع وقت ممكن. إجراء عملية معاكسة ليس صحيحا، وفي منتهى الخطورة، علينا مواصلة العلاج والانتهاء منه.

على مسافة منه، رأى زهرة تسرع الخطى نحو مكتبه، بخطوات متثاقلة غير واثقة. أمسك الباب مفتوحا لها، وما إن وصلت إلى الباب حتى سألها. «ماذا حدث؟». كان عاقدا يديه فوق صدره، دليلا على التأثر.

«دوشيانت في حاجة لزراعة كبد. ربما لا يعيش ليوم آخر. بيهو تحتضر». قالت. «إنها لم تعد تشعر بيديها، وكادت تختنق حتى الموت. ثم جلست. يجب أن يتم وضعها على جهاز التنفس باستمرار، إذا كنا لا نريد أن يحدث هذا مجددا».

اجتاح الصمت الغرفة، بينما يواجه كلاهما الحقيقة التي انفجرت في وجهيهما. كاد رأسه ينفجر بفعل الفشل والقلق. يجلس على مقعده يتطلع إلى تقارير بيهو التي أمامه، تحول سلوكه من ذلك الطبيب العنيف عديم العاطفة، إلى الأب الذي على وشك أن يخسر ابنه أو ابنته. وبينما هددت

الدموع بالسقوط، أجرى عددا من الاتصالات لإجراء بعض الفحوصات على بيهو. وبعد ذلك، دعا صديق دراسته الجامعية ـ الجراح لإخباره أنه يحتاج إلى مساعدته مجددا. بينما ينظر حوله بلا حول ولا قوة، يمرر يديه فوق رأسه من وقت لآخر، لاحظ زهرة تنتحب بهدوء وقد دفنت رأسها بين راحتيها.

قال. «سأرى ما يمكننا فعله. يجب عليك التحدث إلى والديه. ربما يكونوا أفضل المتبرعين المحتملين». في محاولة لاستعادة بعض السيطرة على الوضع. لم يكن لكلامه أي تأثير على زهرة التي صار صوت نحيبها أعلى. أضاف. «سأدفع مالا إذ اما كان المال هو المشكلة». ولكن في أعماقه، كان يعلم أن كل هذا لا يهم. ومن شأن عملية زرع الكبد أن تمنحه بعض أيام أخرى يعيشها، ربما شهر، ولكن كليتيه توقفتا تماما. فرص بقاء شخص على قيد الحياة بكبد وكلى مزروعة ضعيفة، هذا إذا تمكن المريض من الحصول على الأعضاء في المقام الأول.

قالت ثم غادرت الغرفة. «أعتقد أنه يجب عليّ أن أتحدث إلى والديه».

«آن الاوان أن يقبل بالحقيقة، أيضاً. لقد فشل على الأرجح. ربما تنجو بيهو من الجراحة المقبلة أو لا». أخذ زجاجة سكوتش من الدولاب، الذي نادرا ما يفتحه، وصب كأسا لنفسه. انساب السائل داخل حنجرته بسلاسة، ليحرقها قليلا، ويهدئها نسبيا. أخذ الهاتف وطلب أن يأتي والدا بيهو إلى مكتبه. بينما كان ينتظر والديها، تجرع كأسين آخرين. الألم، والعذاب لا يزالا هناك. رأى والدي بيهو قادمان نحو باب مكتبه، والدها بدا متماسكا، بينما أمها في حالة هيستيرية.

سأل والدها. «ماذا حدث لها؟» بينما تعقد جبينه بخطوط متقاطعة.

قال. «أخشى أن أخبركم أن علاجنا لم يفلح». محاولا أن يبدو كطبيب، مباشرا واضحا قدر الإمكان.

قالت والدتها. «ماذا تعني؟». وهي تتطلع إليه، بينما أوردة عينيها تكاد تنفجر.

قال. «علينا أن نقوم بعملية جراحية أخرى، ونرى ما إذا كان بإمكاننا أن نساعدها على العيش لفترة أطول نسبيا. هناك بالطبع فرص للنجاة.... لكنها ضئيلة. ربما لا تملك سوى بضعة أيام».

صرخت أمها فجأة. «لقد قتلتها!» واندفعت نحوه، وسقطت يدها بقوة على وجهه، بينما تحاول أن تمسك به. حاول والدها بكل جهده أن يمنعها. استسلم وانتظر تلقي الضربة، وهو يؤمن أنها ضربة عادلة. شعر بالمسؤولية، وإذا أراد أن يخفف آلام أمها، عليه أن يتحمل هذا. ظلت الأم تصرخ وتكرر أن ابنتها كان يمكنها أن تكون بحال أفضل دونه، حتى لو كان أبوها يعلم أنها ما كانت لتتحسن. وعلى مدار خمس دقائق، واصلت محاولتها للهجوم عليه. قذفته بدباسة غريبة، وآلة تخريم، كلاهما اصطدم برأسه، بينما جلس دون حراك. وأخيرا، بعد أن استبد بها التعب، ولرغبتها في قضاء بعض الوقت مع ابنتها، غادرت الغرفة تحت إصرار الأب.

قال. «أنا آسف». وهو يهز رأسه.

قال الأب. «لقد فعلت كل ما يمكن القيام به. لو لم تكن أنت، لما رأيناها تسير على قدميها مرة أخرى. كنا فقدناها منذ زمن طويل. كل الشكر لك. أنا آسف لزوجتي. إنها تعلم هذا أيضاً، ولكنك تعلم صعوبة الموقف. إنها...» ثم تراجع صوته بينما تجول عيناه في أنحاء المكان إلا نحو. أكثر الأشياء التي جاهد من أجلها في حياته أنه لم ينهار أمام والد بيهو. جمع شتات نفسه، ربت على كتف والدها، الذي جحظت عيناه. ثم شاهد والد بيهو وهو عاجز عن حجب الدموع التي انهمرت من عينيه. أمضى عاما كاملا يحكم السيطرة على نفسه، محاولا أن يكون قويا، مثل الناس حوله، ممن منحوه المحبة، متجاهلا الألم الرهيب داخل صدره، بينما يرى ابنته تتهاوى بالمرض بمعدل متسارع. نظر نحوه وبدا ألمه مثل طرف ابره. فقدان الطفل الوحيد هو أسوأ ألم يمكن أن يتحمله بشر. في كل الظروف، لمن يعيش آبائنا؟ مع زوال أفضل سنوات شبابهم، لا

يملكون أية تطلعات، للرفاهية، المال، الشهرة. كل ما يريدونه هو أن يرونا نكبر سعداء، أصحاء، لدينا كل الرفاهيات التي تجعلنا نحيا حياة لم يحققوها لأنفسهم. أن ترى سنوات من الحب والرعاية والتنشأة تذهب مع الريح، تحترق وتدفن، هذا يجرد أي من الوالدين من كل شيء. صارت تنهداته أهدأ على نحو بطيء، أصبحت اهتزازات كتفه أكثر انتظاما، مسح أبوها وجهه بمنديل عدة مرات، قبل أن يتوجه بالشكر له.

«هل يمكنك أن تخبرها؟ أعتقد أنها تشعر بالسعادة عندما تكون إلى جوارك». ثم استدار وغادر الغرفة للحاق بزوجته.

سحق كرة تخفيف التوتر بأقصى ما يستطيع. لفه الظلام بينما كان يحاول تخيل الموقف حين يخبرها أنها قد لا تعيش لفترة طويلة. لقد ألقى العديد من الكلمات في العديد من المناسبات، لكنه لا يزال يجد في هذا الموقف صعوبة. يعتقد أنه سينتظر حتى تظهر نتائج الاختبار. ربما فقط كان شعور بالذعر. أو نوبة، انسداد، عموما. على مدار الساعة التالية، كان يسير جيئة وذهابا دون هوادة. بعد عدد من المكالمات الأولى، طلب منه مساعد المعمل أن ينتظر، بذلك الصوت الصارم الذي يتميز به الأطباء الصغار. وأخيرا، وصلت النتائج. أرسلها إلى صديقه الطبيب على الفور. وكانت النتائج واضحة لا لبس فيها. إنها تحتضر، بل إنها ستموت في أسرع وقت. كان يتعين إجراء العملية الجراحية التالية في أسرع وقت ممكن. تمالك نفسه وترك مكتبه متجها إلى غرفة رقم 502.

دخل الغرفة ووجد السرير المجاور لبيهو فارغا. تذكر كلمات زهرة. «إنه بحاجة إلى عملية زراعة». ولإلهاء نفسه قليلا، حاول أن يفكر في أن على الأقل هناك إمكانية لإنقاذ دوشيانت. بعض خطوات أخرى ثم نظر إلى بيهو مباشرة. قابلت عيناه وابتسمت. كان يعلم أنها تعرف، لذلك قرر ألا يراوغ. فكر أن الأمر صعب عليه كما هو الحال معها.

قال بوجه عابس خالي من السعادة. «لقد ظهرت نتائج الفحوصات الخاصة بك. علينا أن نجهزك لجراحة أخرى».

قالت بصوت مبحوح. «ما هي فرص نجاتي؟». لم يكن من السهل عليها أن تتكلم أكثر من ذلك. إنها تجاهد لتتنفس وبدت ممتقعة ومتعبة.

لا أعرف. لا يمكنني الجزم. ثم شرح. «جهازك المناعي ربما لا يتحمل العملية نظرا لضعفه، لكن ما من مفر».

جحظت عيناها عندما نظرت إلى السقف. وهمست. «سوف أموت». واندفعت الدموع من عينيها. شعر كأنه ينزع قلبه من جسده، ويمنحه لتلك الفتاة الصغيرة، التي تملك روحا لا يمكن هزيمتها. إنها هناك، مسجونة في السرير، أطرافها عديمة الجدوى، لكنها لازالت الجنة على الحياة.

قال. «لا تقولي هذا». ثم وضع يده على خدها.

قالت. «أنا لست خائفة من الموت. رأيت هذا يحدث لي من قبل. وأنا على استعداد لذلك. وأخشى من أن أذهب في طي النسيان. أنا مرعوبة، ما مصيري بعد النهاية. أخشى مما سيحدث لوالدي. طوال هذه الأشهر، وأنا أقضي الليالي، باكية، أفكر فِي رد فعل أبي عندما أموت. أعلم أنه لا يظهر الكثير، لكني أعرف أن في داخله، رجل مكسور. والدتي، التي ربتني، التي كان حلمها الوحيد أن تراني عروسة بصحبة أولادي، مإذا سيحدث لها؟ إنهم عاشوا من أجلي أنا فقط. ما كان يجب أن تسير الامور على هذا النحو. لماذا عليهم أن يعانوا؟ ألم أعاني بما فيه الكفاية؟ ماذا جنيت؟ لقد كنت دائما فتاة جيدة. لماذا أنا؟ لماذا عائلتي؟ لماذا يجب أن أموت؟ لماذا لا يمكنني الزواج؟ قضاء ليلة أخرى معك؟ أنا... أموت؟ لن أكون هنا بعد الآن؟».

وبعد ذلك، انهارت في البكاء، انهمرت دموعها وبللت وسادتها. مال وقبل جبهتها.

قال، وهو يعلم أن وعده عديم المعنى، لا قيمة له. «سيكون كل شيء على ما يرام». كاد يختنق بكلماته.

قالت. «ليس صحيح». ثم واصلت النحيب.

قال. «لدي شيء لك». ثم دس يده في جيبه.

توقفت بيهو في هذا اللحظة عن البكاء ونظرت إليه مباشرة. لو كان في استطاعتها النهوض ومعانقته لاحتضنته. وكانت لتعانق أبيها وأمها. إنها الآن تغادر إلى عالم مجهول. وعلى الرغم من أنها لا تعرف ماذا سيحدث لها، بعد أن يودعها النفس الأخير، أينما ستذهب، ستفتقدهم.

أخرج أرمان ما كان يحمل معه منذ أسابيع. ثم لوح بها أمام عينيها. إنها سلسلة من الذهب. انطفأ اصفرار الذهب، تعلق تحته قطعة من الماس ثلاثة قيراط، إنها فائقة الجمال.

قال. «هذه لك». ثم أخذ يد بيهو بنبل ولفها ثلاث مرات حول المعصم الميت. لمعت عينا بيهو ما إن نظرت إلى مقتنياتها الجديدة.

«هذا جميل».

«إنها تتوارى خلف بهاء جمالك. أنت أجمل شيء في الدنيا اعتبرته مني. قبل أن تظهري في حياتي، كنت وحيدا، شخص لا يهتم بشيء، إلا عمله، هوسه. لكن في أحد الأيام الجميلة، دخلت حياتي، بمساعدة العكازات، ببساطة، فقلبتيها رأسا على عقب. لأول مرة في حياتي، أحب شخصا أكثر مما كنت أحب نفسي».

قالت. «حتى الموت تجعله جميلا». تجولت عيناها في كافة أنحاء الغرفة، ورأت والديها يدخلان. لاحظ وجودهم أيضاً، وكان هذا إيذانا برحيله.

قال ثم استدار. «سأراكم لاحقا».

نادته. «لمن هذه الأشياء؟». وأشارت إلى السلسلة والقلادة.

أجاب وهو يغادر الغرفة بعيون امتلأت بالدموع. «كانوا لجدتي. أرادت أن تهديها لزوجتي الجميلة». تطلعت بيهو إلى معصمها وبينما تدور الكلمات في رأسها، زوجة جميلة. تغيرت حياتها فجأة إلى فيلم قديم من التسعينيات بنهاية متوقعة.

27 ـ كاجال خورانا

جلست كاجال في مقعد السيارة الأمامي بجوار زهرة، فركت يديها، وهي تشعر بخيبة أمل. اتضح أن فصيلة دمها ليست هي فصيلة دوشيانت. كانت زهرة تقول دائما أن الناس تقع في الحب نتيجة لتوافق فصيلة الدم، كأن الأمر مدبر سلفا. واصلت زهرة القيادة دون أن تقول شيئا. شعرت كاجال أنها ربما تكون منزعجة.

قالت كاجال لكسر حاجز الصمت المزعج رغم غضبها. «هل تحدث إلى والديه في أي وقت يا زهرة؟ لو كان هناك من يخيف دوشيانت أبدا، انهما والديه، والجميع يعرف أن على شخص من الصعب أن يخيفه أحد».

«كلا، لا يحبهم. حسبت أنه سيكون من الافضل عدم التحدث معهم». قالت زهرة. «لم أكن لأفعل، لو وجدت متبرعا مناسبا بيننا». وعيناها تحدقان بالطريق.

«بيننا؟» بدت الصدمة على وجه كاجال. ارتبكت زهرة لمدة دقيقة ـ تعثرت يدها على ناقل الحركة، بينما زاغت عيناها بعصبية.

قالت أخيرا. «تصورت أن بإمكاني المساعدة».

لم تقل كاجال شيئا. تراجعت في مقعد السيارة، ونظرت في وجه زهرة. وكان من الواضح أنها ليست مجرد طبيبة بالنسبة لـدوشيانت، وكانت أكثر من ذلك بكثير. في تلك الليلة، روت بيهو كل التفاصيل منذ دخول دوشيانت، تجاهلت

كاجال تلك الأجزاء التي أشارت لذلك، طبيب مجهول لم يترك سرير دوشيانت. وعندما رأت وجه زهرة ملتويا، أوردة جبهتها بارزة، يدها متوترة على المقود، عرفت أن الطبيب المجهول هو زهرة. وأدركت أن وجودها بجوار دوشيانت لم يكن لأنها الطبيب المسؤول.

سألت كاجال. «هل تعتقدين أن دوشيانت سيعيش بعد عملية الزرع؟». وقد تاهت كاجال وسط سيل من الأفكار التي سيطرت عليها.

بعد وقفة طويلة، قالت زهرة. «فرصة محدودة للغاية».

سألت كاجال. «هل قمتي باختبار التوافق كمتبرع لأنك فقط أردت المساعدة... ربما الأمر أكبر من هذا، أليس كذلك؟».

قالت زهرة. «لا أريد الخوض في هذا. على أي حال، يبدو أنكما سعيدان معا. لقد رأيت النظرة التي ارتسمت على وجه دوشيانت عندما يتحدث عنك. إذن هذا الحوار لا معنى له».

أجابت. «لدينا تاريخ. كنت صديقته الوحيدة».

قالت زهرة مقاطعه. «هذا من حسن حظك».

ارتبكت كاجال من رد فعل زهرة الوقح. ومع فقدان الكلمات المباغتة، نظرت في الاتجاه الآخر من نافذة السيارة. بدون شك، يبدو أنه خلال السنتين الماضيتين، فقدت كاجال دوشيانت. حتى عندما كانت بين ذراعي فارون، اعتادت أن تغلق عينيها وتفكر في دوشيانت، وكيف كان يفعل هذا. في بعض الأحيان، كانت تستحضر لقطات من المعارك التي خاضها دوشيانت باستمرار، شجارات السكر، المناوشات مع حراس النزل، وما شابه. زادت الحوادث المماثلة بعد انفصالهم. ربما تفكر كاجال في سببين لهذا: إما أن دوشيانت كان يدمر نفسه،

أو كان يحاول جذب انتباهها، بعد أن كانت قد قطعت كل العلاقات معه. أو كلا السببين. بعد فترة من الوقت، توقف. كسر أثاث الكلية ومبردات المياه وحرق مكاتب الموظفين، كل هذا توقف. أو هكذا اعتقدت.

ماتت الشائعات. تراجعت أسطورة الولد الشقي للكلية إلى الرقاد على سرير وانتظار موت هادىء. في الكلية، كان هناك رفاق أسوأ منه يستعرضون قوتهم هناك. لم يعد دوشيانت يحاول أن يلفت انتباهي. لكنه غرق تماما في الإدمان. الكحول والحشيش والماريجوانا، والهيروين... سيد جميع المخدرات، لم يتخصص في نوع بعينه.

في بعض الأحيان، حدثت بعض اللقاءات بالمصافدة في الشوارع المؤدية للكلية ـ دوشيانت دائما يحمل سيجارة في يده، وكاجال لا ترفع عينيها عن أصابع قدميها. لم يتحدثا مطلقا، وتجنبا بعضهما البعض في الممرات، المعامل، إذا كان ولابد هناك تقاطع للمسارات. بين كل ما تعرفه، أن أثر الانفصال عليه كان أقوى بكثير من أثره عليها. وعلى أية حال، بعد عدة أشهر، كانت تتواعد مع فارون بكل قلبها. كان دوشيانت هو الشخص الذي بكي، شرب، دمر نفسه بعد الانفصال، وليس هي.

وصلت السيارة إلى العنوان. إنها شقق متواضعة يعيش فيها الناس لأجيال، مع إضافة غرفة أو اثنتين ضد ما قررته القواعد الحكومية. تحققت زهرة من رقم البوابة مرتين قبل أن ترن الجرس. أضواء ديوالي لاتزال من أكتوبر الماضي معلقة على الباب. لم يكن هناك أي حوار بين زهرة وكاجال.

فتحت امرأة في منتصف العمر البوابة وسألتهما عن هويتهما.

«أنا زهرة، طبيبة من مستشفى نيودلهي التخصصي».

سألت السيدة. «ماذا تريدين؟».

كنا نعالج ابنك، دوشيانت روي، على مدار الأسابيع القليلة الماضية. وأخشى أن فرصته في الحياة محدودة، لذا فهو في حاجة إلى عملية زرع كبد. إذا ساءت الأمور، ربما يحتاج لعملية زرع كلى أيضاً. وضعت زهرة الحقائق أمامها بلا مواربة، وبلهجة صارمة. لا تأكيدات كاذبة.

نظرت الأم في وجهها عاجزة عن التصديق، وبعد أن تبينت من صدق الرواية، التوت ركبتيها وانقلبت عيناها، وسقطت مغشياً عليها. وصلتا إليها لتحمياها من السقوط برأسها فوق الأرضية الاسمنتيه. حملتاها إلى أريكتها داخل المنزل، ذلك الذي كان أكثر تواضعا (فقرا) من المباني السكنية في الخارج. أريكة بالية، تلفاز قديم، جهاز كمبيوتر صغير على الطاولة، ثلاجة ذات باب واحد، وهاتف أرضي على الطاولة الجانبية الصغيرة. صارت الأمور أسهل باقي المساء. ظهر والد دوشيانت، الذي كان مصدوما لرؤية فتاتين وزوجته التي فقدت نصف وعيها. شرحت زهرة الأمر، فبدا كأن عينيه امتلات بالضيق أكثر من التعاطف. طلب منها مزيدا من التفاصيل، وكما قالت زهرة، ظلت السيدة تتوسل إليهم حتى يحملوها إلى المستشفى.

بعد خمس عشرة دقيقة، كان والداه يسيران خلف السيارة الحمراء سانترو إلى المستشفى. جهزت الأم غداء لابنها الذي كان غائبا عن الوعي. وخلال هذه الأحداث الدرامية، وقفت كاجال بعيدا بلا حراك ولم تنطق بكلمة حتى على سبيل الخطأ. زهرة، من ناحية أخرى، كانت أكثر شجاعة، وثباتا، نجحت في ترويض غضب الأب، ونفاذ صبر الأم. شعرت كاجال أنها عديمة القيمة. مذنبة. مصدر ازعاج.

عندما وصلوا إلى المستشفى، طلبت منهم زهرة الانتظار في مكتب، وطلبت من كاجال أن تبحث عن مكان آخر. وبينما هي تحت تأثير الطريقة التي تتعامل بها زهرة معها، شعرت كاجال بالضياع. أو ربما كان شعور الضياع ملازما لها على الدوام... منذ ذلك اليوم الذي قررت فيه إلا تبقى معه بعد الآن.

وربما كان هذا أفضل لها.

28 ـ بيهو مالهوترا

توقف الزمن عند بيهو. غمرت رأسها مشاعر متناقضة، ما إن راجعت أحداث اليوم. جراحتها ـ الثانية ـ تقرر لها اليوم التالي وقد سيطر عليها الخوف. طالما كان معها، فإنها تشعر بالسكينة، ولكن الآن، هي وحيدة في غرفتها بالمستشفى، مذعورة. ستنقل في وقت لاحق على نقالة إلى الغرفة، ولن تخرج منها. مجرد التفكير سبب لها الرعب. كيف سيكون رد فعل والديها؟ بدأت ترى نفسها كجثة ملقاة على طاولة العمليات الجراحية، بينما تحلق الجراحين حولها، يهزون رؤوسهم في خيبة أمل. كانت ميتة. ماذا لو لم تكن؟ ماذا لو كانت لا تزال محاصرة داخل ذلك الجسد الميت، تصرخ وتحاول لفت انتباه الأطباء، الذين سيغادرون الغرفة؟ إنها محاصرة داخل جسدها، ماذا عساها أن تفعل؟ تسربت من جبينها بعض حبات من العرق. أعربت عن رغبتها أن ترى والديها إلى جوارها. أخبرتها والدتها بأنها ستعود. هناك بعض الأوراق عليهم أن ينتهوا منها. إنها متأكدة أن هناك الكثير منها.

بينما ترقد هناك، تحرك وجهها بلا هوادة من جانب إلى آخر، حضر ثلاثة من المساعدين في الجناح يجرون نقالة، بصحبة أحد الأطباء. عاد دوشيانت في حالة أسوأ من أي وقت مضى. لم يكد يستعيد وعيه، حتى تمايل رأسه من جانب إلى آخر، وهو يتأوه من فرط الألم. جعله ألمه في حالة أسوأ. سقطت حبات كبيرة دائرية من الدموع من عينيها. حاولت تحريك يدها لمحو دموعها، لكنها أدركت

أنها لن تستطع. تركه الأطباء على السرير وراقبوه على الشاشات. فحص الأطباء احصائياته، وهزوا رؤوسهم قبل مغادرة جناح المستشفى. ظلت تنظر إليه، وهي تتساءل متى سينظر تجاهها. وقد فعل.

قال متأوها. «كيف حالك؟».

إبتسمت. «أنا بحال جيد. أو بخير ـ بقدر ما أستطيع».

سأل. «هل تشعرين بالخوف؟ هل أنت خائفة؟». أومأ دوشيانت. أومأت في المقابل.

سألت. «ماذا يقول الاطباء؟».

«إني بحاجة إلى عملية زراعة الكبد بالتأكيد. والكلى أيضاً». سأل. «وماذا عنك؟».

«شكرا لك لإنقاذي. كدت أموت».

قال. «لا عليك».

«أنت أنقذت حياتي. هذا يعني لي الكثير. ويثبت شيئا واحدا». قالت وابتسامة تعلو وجهها. «على الرغم من أنني متأكدة أنك سوف تتوق للعراك معي».

«ما هذا؟».

«إننا رفاق غرفة، وأننا دائما سندعم بعضنا البعض.النتيجة الآن 2 ـ 1».

«أنتي رفيقة غرفة أفضل مني!».

«أووه... لا عليك. أفضالي بسيطة». احمر وجه دوشيانت خجلا.

«حسناـ إذا كنت تعتقدين أن النتيجة الآن 2 ـ 1، كيف يمكنني أن أختلف معك؟».

تطلع دوشيانت إليها وتبسم، ثم ضحك كلاهما. ضحكا حتى تألمت بطونهم. الأيام أو حتى الساعات الباقية لهم على قيد الحياة، قبل أنفاسهم الأخيرة، إنهما يتقاسمان أول لحظات الصداقة الحميمة.

سأل دوشيانت. «ماذا يقول؟. هل تتحسن حالتك؟».

قالت. «بل تسوء». وأخبرت دوشيانت عن الجراحة وعن النتائج المحتملة. لم تكن بيهو تتوقع حقا أي رد فعل من دوشيانت، وربما أصابتها الدهشة بايجابية عندما شحب وجهه، كأنه رأى شبحا. كان متوترا إلى حد فاق الألم، وقد ضم قبضتيه، واحتدت ملامح وجهه، ونفرت عضلاته وعروقه. لم يخفف من انفعاله سوى تأكيد بيهو له مرارا وتكرارا أنها ستكون بخير.

قالت. «ولكن على الأقل لن أموت دون حب، «ليس هناك ما يسيء».أشارت بعينيها إلى السلسلة الذهبية والسوار حول معصمها. «أعطاها لي. كان من المفترض أن يعطيها لزوجته». اكتسى وجهها بملايين الظلال القرمزية. «هل من الممكن أن أضيف، أنه استخدم كلمة جميلة».

قال ساخرا. «لم يكن لديه أي خيار آخر. من يقبل غيرك بزواجه؟ من يرضى بالزواج به غيرك؟».

«هذا سخيف!»

«هذا مجرد مزاح. وهو شيء جميل. أنا سعيد لأجلك. على أي حال، من يرفض الزواج منك!».

احمر وجهها خجلا. «واو، هذا لطيف».

سأل. «أين والديك؟». وبمجرد أن قال هذا، سمعا صوت خطوات تقترب من باب الغرفة.

قالت. «إنهم هنا ـ». ثم توقفت لتتطلع إلى وجهين غير مألوفين يحدقان في كافة أنحاء الغرفة، عيناهما مفتوحتان عن آخرهما، وأفواههما فاغرة.

«دوشيانت!» صرخت السيدة وهرعت على الفور إلى سرير دوشيانت، بينما وقف الرجل بعيدا واضعا يده فوق صدره، والأخرى على وجهه، وقد تملكته خيبة أمل.

لم تتبين بيهو ما تقوله السيدة وراء نحيبها وبكاءها. ظلت تداعب وتقبل وجه دوشيانت وشعره بجنون. لم تفهم بيهو كلمة واحدة من لهجتها الغريبة الباكية. على مدى النصف ساعة التالية، تواصل البكاء الصاخب. في بعض لحظات، كانت السيدة تتطلع إلى زوجها وتقول له شيئا وهي تبكي غاضبة. لا يمكنها أن تتبين الكلمات، كانت الكلمات باللهجة البنغالية على أية حال، لكن يمكنها التأكيد أن والد دوشيانت كان يرمي لوم عنيف على كل شيء.

وفي الوقت نفسه، كان دوشيانت، الذي لم يبدو عليه أي درجة من التأثر، بدى غاضباً، ولكنه شرع يبكي، وأخذ أمه بين ذراعيه. والده لا يزال واقفا هناك بلا حراك، يكتفي بمشاهدة فصول القصة وهي تتكشف. فكرت بيهو: يا له من أخرق! لم يتحرك إلا بعد أن وبخته والدة دوشيانت، فتقدم نحو السرير وجلس عليه. وجد النفور والاشمئزاز طريقهما إلى وجه دوشيانت مجددا، وعجز أن ينظر إلى عيني والده. في حين كانت والدته تبكي، كان يشيح بنظره بعيدا عن والده. برؤيتة لكراهية ابنه، استأذن الأب في الانصراف، بينما دفنت والدته رأسها في صدر ابنها الباكي.

دخل والدا بيهو معا، بعد قليل، وجلسا بجوارها. كان ثلاثتهم ينظرون إلى السيدة التي كانت تنتحب بشدة على السرير المجاور. حكت لهما بيهو ما تعرفه عن والدي دوشيانت وكيف أنه وأبوه لم ينظرا لبعضهما وجها لوجه.

أومأت والدتها باستنكار، وكأنها تريد أن تقول. من كان يريد مثل هذا الابن؟ ذكرت أمها على الفور كيف أنقذ دوشيانت حياتها مع أنه كاد يفقد حياته. تمتمت أمها بشيء عن رقم الغرفة، وأنه رقم سيئ الحظ، ولمعت عيناها.

وعلى سبيل التغيير، جلس أبوها بدوره بجوارها وأمسك يدها. اكتشف على الفور أمر السلسلة الذهبية التي بها بعض الماس، ونظر إليها بعيون متسائلة. أحمر وجه بيهو على نحو غبي، فأصبح واضحا من أين أتت السلسلة. ابتسم والدها ابتسامة رضا. لو أتيح لها المزيد من الوقت كي تخرج في مواعيد غرامية سرية، ونزهات ليلية، دون أن يعرف والدها، وأن تخفي بطاقات الفالانتاين في أركان خزانتها، أن تدخر المال لشراء هدايا ثمينة لصديقها، وأن ينكسر قلبها وتفقد حبيبها الذي سيقع في حب أخرى ويتزوج. فقط لو...

شدد والدها قبضتة على يدها، ورغم أنها لا تستطيع أن تشعر بها، إلا أنها تشعر بيده... الكرب والخسارة التي لا تعوض، والهزيمة. جلست المجموعتان من الآباء، كل مع طفله. في كثير من الأحيان، تجتمع عيناها بعيني دوشيانت، ويبتسمان. وبعد هذا بقليل، دخلت زهرة إلى الغرفة، ثم طلبت من والدي دوشيانت أن يصحبا اثنين من مساعدي الجناح إلى تحليلات الدم والآنسجة. أنهم يبحثون عن متبرعين محتملين. يكاد وجه زهرة يصرخ من فرط القلق، وعجزت أن تتطلع في وجه دوشيانت مباشرة.

استأذن والدا بيهو أيضاً في الانصراف لتناول الغداء بعد أن أجبرتهما بيهو على ذلك. كانت متأكدة من أنهما لم يتناولا طعاما جيدا منذ أيام. كانت أمها جميلة أيام الدراسة بالكلية. الآن بدا أنها جثة هامدة خالية من الحياة.

كانت زهرة تتفحص بيانات دوشيانت، بينما ألقت عليها بيهو التحية. «مرحبا». أجابت زهرة بابتسامة مفتعلة. «مرحبا، بيهو. كيف حالك؟».

قالت ضاحكة. «عليك أنت أن تخبريني؟ أنت الطبيبة».

قال دوشيانت. «إنها تقوم بعمل عظيم. أعلم هذا». فنظرت له بيهو بنظرة توبيخ. «أووو، انتظري، أنت لا تعرفي شيئا، أليس كذلك؟».

تساءلت زهرة المرتبكة. «لا أعرف ماذا؟».

قال دوشيانت ساخرا. «بيهو تقريبا تزوجت». احمر وجه بيهو خجلا.

قالت زهرة متعجبة. «ماذا؟».

«أعني لم تتزوج تماما. لكن انظري إلى معصمها، إنها السلسلة الخاصة بجدته التي تركتها لزوجته. الآن، إذا لم يبدو هذا كله أشبه بجزء من فيلم هندي تقليدي، لا أعرف كيف يبدو. إذن فقد تزوجا زواجا رمزيا. من يتولى أمر الاوراق وكل هذا الهراء إذن! أليس كذلك يا بيهو؟».

مالت زهرة لرؤية السلسلة، والحجر اللامع الذي يتدلى منها، وابتسمت ابتسامة عريضة... تلك التي تحولت تدريجيا إلى تكشيرة وعانقت بيهو المسكينة... من الواضح أنها لم تشعر بدفء بالعناق لكنها شعرت بالحب.

قالت زهرة. «نعم، دوشيانت على حق. أنتما الآن متزوجان، إذن، خالص التهاني!».

غضبت بيهو واحمر وجهها خجلا في ذات الوقت، وقالت. «أوو، كفى».

قالت زهرة وهي تجلس إلى جوارها. «لكن هذا أمر جميل يا بيهو». كانت سعادة بيهو بلا حدود. وهو أمر خاص بالفتيات... حيث تحمر وجوههن وتشعرن بالسعادة عندما ترضى صديقاتها عن الرجل الذي اختارته حبيبا. لم تكن زهرة صديقتها في الحقيقة لكن من يهتم لهذا الأمر؟ كانت لحظتها الخاصة. أغلقت عينيها للحظة متخيلة نفسها وهي تركب سيارة مزينة بالورود، بينما كتب على لوحة أرقام السيارة «تزوجنا للتو».

قالت بيهو. «أشعر بالسعادة لأني أتيت إلى هنا». بينما شردت عيناها وكان مزاجها حزينا.

قال دوشيانت ساخرا. «هذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها شخص يشعر بالامتنان لوجوده في مستشفى». وضحك الجميع.

قالت بيهو. «أتمنى لو كان هنا».

قالت زهرة بينما عاد التوتر ليظهر على حاجبيها. «أووووه! بالتأكيد، لكنه مشغول بالإعداد للجراحة. لم أره منفعلا هكذا من قبل. أتمنى أن يسير كل شيء على ما يرام. لازال هناك أمل يا بيهو».

قالت بيهو بسعادة بدت مزيفة. «أتمنى حظا موفقا!» كل ما أود معرفته الفرص المتاحة في أن أبقى على قيد الحياة بعد هذه الجراحة.

لم تنطق زهرة بكلمة. ثم قالت بعد صمت طويل. «أتصور... مئة في المئة!».

غفرت لزهرة كذبها. إنها تعلم أنها ربما لا تفتح عينيها مجددا بعد أن يحقنها طبيب التخدير بمادة كان من المفترض أن تمنحها فرصة جديدة. تجاوزت ذلك الشعور. فات أوان أن يعني لها أي شيء الآن. أخبرت من تحب أنها تحبهم... مرات ومرات. استغرق وداعها لوالديها سنة كاملة. خلال السنة الماضية، كانت في انتظار الموت. ابتسمت بينما تسترخي برأسها فوق الوسادة. كان انتظارها طويلا مرهقا، قررت ألا تمر ساعاتها الأخيرة في فزع.

قالت زهرة وهي تحتضنها. «سأعود حالا».

قالت بيهو. «عودي بسرعة. سيأخذوني خلال ساعات قليلة، وسيبقى دوشيانت وحيدا. إنه حقا يحتاجك». قالتها وهي تغمز بعينها.

قالت زهرة. «لديه من يعتني به. لا أعتقد أنه في حاجة إلى أكثر من كوني

طبيبة». تبادل دوشيانت النظرات مع بيهو، وهما في حالة صدمة، لا يعرفان كيف يمكن تفسير كلام زهرة.

قالت بيهو بحماس، رغم ما بدا على وجه دوشيانت من حرج وغضب. «من الواضح أنه يحتاجك».

قالت بعصبية. «أنا على يقين أن هناك غيرها ربما يتجاوب مع وسامته وكلامه على نحو أفضل مني».

كان دوشيانت لا يزال في حيرته متململا وسط غابة الأنابيب حوله. على الجانب الآخر، فهمت بيهو ما ترمي إليه زهرة على الفور، ولاذت بالصمت. وقبل أن يحل نور الإدراك على وجه دوشيانت، غادرت زهرة الغرفة.

سألت بيهو. «هل تعرف عما كانت تتحدث؟».

قال. «لدي فكرة باهته، كاجال».

سألت بيهو.«ماذا تريد أكثر من هذا؟».

قال. «هل هذا مهم؟ ربما لا أعيش للغد، أو اليوم الذي يليه، أو الشهر القادم».

ردت بيهو. «الأمر مهم بالنسبة لها. ألا تتصور أهمية ما تعتقده حيال زهرة بالنسبة لها؟ وبعد رحيلك، إن رحلت، هل تعتقد أنه من السهل عليها أن تشعر بالحزن تجاهك، وفي ذات الوقت لا تعلم كيف تفكر فيها؟».

«ليس لدي فكرة. سؤال صعب حقا. أعني، لدي تاريخ مع كاجال. رأينا الكثير، مررنا بمواقف عصيبة، لكن مع زهرة، رأيت الاسوأ على الاطلاق. مع زهرة، لم أمنحها سببا واحدا للابتسام أو للشعور بخير حيالنا».

«لقد فعلت، ثق بي».

«هل تعتقدين ذلك؟».

«إنها تقضي الساعات عند الباب تشاهدك وأنت نائم».

تعجب. «هل تمزحين!».

قالت. «كلا. إنك تردد اسمها وأنت نائم أيضاً».

«لا!».

«حسنا، نعم، الأخيرة كانت كذبة، لكنها معجبة بك حقا».

سأل مرتبكا. «وكاجال؟».

«إنها تحبك أيضاً».

«وأنا أيضاً؟».

قالت وهزت كتفيها. «هكذا، لا يمكنني المساعدة».

«لماذا؟ أنا أحمق. لماذا يحبونني على أية حال؟ هذا مفزع. لماذا لا يبحثون في مكان آخر عن شخص لطيف، وسيم، محبوب... وليس شخص يحتضر مثلي؟».

قالت. «بالنسبة لهم، فإنهم يرون أنك لطيف، وسيم، محبوب... وأنت لا تحتضر».

انهار دوشيانت في البكاء مثل فتاة صغيرة. وضع وجهه بين كفيه، بدت شفتاه مثل قارب مقلوب، وعيناه كبرك من الدموع.

«ماذا حدث؟».

قال. «أنا آسف، لقد كنت وقحا معك». ثم استجمع قواه ومسح دموعه، كم كنت أتمنى لو تحدثنا من قبل.

«أنا بخير. على الرغم من أنها نصيحة ـ لا تبكي. أبدا. أنت الفتى الشرير. دوشيانت، عنك يصنعون الأفلام. أنت لا تتحمل أن تكون ضعيفا».

رد دفاعا عن نفسه. «ضعيف! كيف؟ روجر فيدرير يبكي وهو هذا الرائع».

«هل روجر فيدرر أكثر جاذبية وسحرا... أو ربما مايك جاجر؟».

«أيا كان».

قالت غاضبة. «لا تحدثني هكذا».

«أيا كان».

ضحك الاثنان. إنهما يرقدان، يتحدثان عن أي شيء لا يذكرهما بما سيحدث لهما. دقت الساعة الخامسة. هناك وقع أقدام بالقرب من الباب. دخل والدا بيهو، معهما مساعدو القسم بصحبة الطبيب. بمجرد أن رأت دموع أمها، انهمرت دموعها. لبضع لحظات. جذبوا الستارة بين دوشيانت وبيهو، فانكشف لها وجه دوشيانت المفزوع المختبيء خلف الستارة.

قال الأب متوسلا. «هل عليهم أن يجروها الآن؟ قلتم في السابعة، وليس الخامسة».

تدلى رأسه. قال بصوت ناعم حاسم. «أعرف يا عمي، لكن غرفة الجراحة ستخضغ للفحص لاحقا، باكرا، صباح الغد. علينا أن نجري الجراحة الآن، أو ربما لا نستطيع أن نفعل. رجاء، حاول أن تفهمني».

«لكن... لكن...» ناحت أمها وألقت بنفسها على بيهو، التي شعرت بالعجز والقليل من الرعب. قالت الأم صارخة. «لا تأحذوها، إنها بخير».

همست بيهو والدموع في عينيها. «سأكون بخير».

لحق والد بيهو بها على السرير وتبادلا العناق. الدموع تنهمر بلا توقف الآن. انزوى في ركن وبدا عليه الرعب أيضاً. انتظرت أن ينظر إليها، وعندما فعل، برقت ابتسامة في وجهه وكأنما تقول له، أنا مستعدة.

حملها فتية القسم إلى النقالة وتحركا ببطء لنقلها للعمليات، بينما لازال والداها ممسكان بكلتا يديها ويسيران معها. أخذت نفسا عميقا، واستجمعت قواها استعداد لما هو قادم. عاشت حياة جيدة. ليس هناك ما تندم عليه. مرت أمام دوشيانت، لاحظت الصدمة على وجهه، أيضاً. ابتسمت له، حركت شفتاها لتقول. «سأعود. لا داعي للقلق».

ابتسم لها دوشيانت، وغادرت النقالة الغرفة. قال لها والداها الملايين من الأشياء التي تصف مدى حبهم لها. أغلقت عيناها وفكرت في مدى السطحية والمبالغة في تلك الكلمات. إنها تعرف. إذا ماتت، فإن مصابهما سيكون أعظم بكثير من مصابها. تعلم أنهما يعرفان حبها لهما.

وبينما مال أرمان، متظاهرا بأنه يساعد فتية الجناح في دفع النقالة إلى داخل المصعد، همس في أذنها. «أحبك، زوجتي الجميلة».

29 ـ دوشيانت روي

سار الوقت ببطء. مرت أربع ساعات حتى الآن. وكان دوشيانت قد أمضى قسطا كبيرا من وقته في المستشفى، لا يتحدث مع الفتاة على السرير الآخر، لكنه شعر بالوحدة دون وجودها على السرير المجاور. افتقد حضورها الملائكي المزعج. ارتعد من مشهد السرير الخالي والمفرش المكوي بعناية، حيث تم تغييره منذ المرة الأخيرة التي رقدت فيها عليه.

غفت أمه على السرير بعد أن بكت بحرارة، بينما كان الأب يتطلع إلى دوشيانت كأنه يريد التأكد أنه غفر له ـ أو ما إذا كان السبب فيما وصل إليه دوشيانت الآن. أو هكذا بدا الأمر لدوشيانت.

باستمرار، تتجه عيناه إلى السرير المجاور، لا يزال يرى جميع الكتب المتناثرة، والعكازات التي استخدمتها بيهو، عندما رآها للمرة الأولى، أغلفة الهدايا التي أحضرها أصدقائها لها. اعتصر قلبه إحساس مدمر، كأنه فقد شيئا عزيزا. وبغض النظر عن صعوبة الأمر، ومحاولته إبعاد أفكار هبوط نبض بيهو إلى الصفر، ووصول خط حياتها إلى نقطة النهاية، وخروج آخر أنفاسها على طاولة الجراحة، إلا أنه عجز عن التخلص من تلك الأفكار. تتباطىء ضربات قلبه في كل مرة يفكر فيها أنها غير موجودة في الجوار.

دخلت زهرة إلى الغرفة بعد قليل وهي تحمل في يدها ظرفاً. لم يلتفت دوشيانت للظرف، أو يعيره اهتماما، الا بعد أن أعطته له زهرة...

«كيف حالها؟». سألها دوشيانت بينما كانت زهرة في طريقها للمغادرة.

«لا تزال العملية مستمرة». ثم قالت زهرة. «أنا مرعوبة لدرجة أنني أعجز أن أذهب إلى هناك وازعجهم».

«وما هذا؟». وأشار إلى الظرف في يده.

أجابت زهرة باقتضاب. «ليس عندي فكرة». لم يتغير مزاجها منذ الصباح. يبدو أنها لا زالت تتألم مما حدث في وقت سابق من ذلك اليوم. كان دوشيانت ليوقفها عن مغادرة الغرفة إلا أنه لم يكن هو نفسه واثقا مما يريد.

مزق غلاف الظرف بعصبية. كانت هناك قطعة ورقية مكرمشة داخله مكتوب عليها بخط يد مألوف. يقرأ:

عزيزي دوشيانت،

أتمنى أن تكون بخير. طالما تمنيت ذلك.

سأرحل. كنت لأبقى، ولكن لا أستطيع. حان وقت الرحيل. للمرة الثانية، لكن هذه المرة بسببي. أنت تستحق الأفضل. ما كان ينبغي أن أعود، لكن لم يكن بمقدوري حينها أن أمنع نفسي. بينما أنا راحلة، أريد أن أخبرك أن كل لحظة قضيتها معك جعلت مني شخصا أفضل، حبيبة أفضل، ابنة أفضل وأختا أفضل. أعلم أن العالم حذرني من ذلك الرجل المهووس، المغرور، الغاضب، ولا شك أنك كذلك، ولكن أنت أعظم من ذلك بكثير، وأعتقد أنهم لن يعرفوا هذا أبدا. عرفته، وأنا على يقين أن أي فتاة تنعم بجولة معك تحت ضوء شمس الغروب، ستكون الفتاة الأكثر حظا على وجه الأرض.

لقد فقدتك في اليوم الذي تركتك فيه. أنا لا أريد أن أعود بالزمن للوراء ومناقشة ما حدث بيننا. ولكن ما حدث سأحتضنه في قبري وعلى وجهي ابتسامة.

لقد حان الوقت لك أن تمضي قدما، وتعثر على حياة جديدة، تجد شخصا يقبلك كما أنت، يحبك لشخصك. وكما أرى، فإن هذا الشخص على مقربة منك. ولا تحتاج سوى أن تعترف بوجوده.

أتمنى لك حياة سعيدة. سأفكر فيك. كما أفعل دائما. بغض النظر عمن سأكون بصحبته.

أحبك،

كاجال

ملاحظة: أنا لن أختفي من حياتك. لا أعتقد أن بإمكاني فعل ذلك بعد الآن. سأذهب إلى لندن. اتصل بي وقتما تحتاجني. سأكون إلى جوارك دائما. توقف عن الشرب.

عندما أنهى دوشيانت قراءة الرسالة للمرة الثانية، أدرك أمرين: على الرغم من أن كاجال تعني الكثير بالنسبة له، ودائما ستكون، فقد دفع ضرائبه، وعانى الأمرين حتى يعود حبها من جديد بجنون كما اعتاد. استنزف الليالي الطوال التي قضاها يتساءل عما إذا كان لا يزال يعني لها شيئا كل ذرة منه. كان عشقها عذابا، وهو لا يعرف ما إذا كان يملك من القوة ما يجعله قادرا على العودة إلى هذا مجددا. وحتى مع ذلك، دفع السطر الأخير بالابتسامة إلى وجهه. تقول إنها ستبقى قريبة، وستكون جزءا من حياته، وتواصل مساندته عندما يهجر ما يضره، ومعه حال أصيب بأي صدمة عاطفية، هذا لو حدث. هذا في حد ذاته يعني الكثير بالنسبة له.

ربما كان بحاجة إلى شخص مكسور، مثل زهرة، وليس لشخص له حياة مثالية مثل كاجال. وهو واثق من شيء واحد، أنه لم يقع في حب زهرة حتى الآن. إنه نوع من الاعجاب، لكنه يكبر يوما بعد يوم. لقد رافقته في أسوأ الأوقات،

وساعدته في جمع شتاته عديم القيمة. من يدري ماذا سيحدث؟ أغلق عينيه، وبدأ يتخيل أنه يطلب موعدا غراميا مع زهرة. فكر في حال بيهو في غرفة العمليات. مرت بضع ساعات، ويجب أن تكون العملية قد تمت الآن.

ما إن أغلق عينيه، حتى أظهرت الشاشة خطا مستقيما.

الصرخات في كل أنحاء الممر.

«نقّالة الطوارىء!» صاحت زهرة، فحضر مساعدان يجران النقالة. كان قلب دوشيانت متوقفا تقريبا، حيث تعرض جسده لنوبة عنيفة منذ عدة ثواني وصار الآن رخوا. والداه يصيحان، يعويان، ينتحبان، يصرخان، بكل ما بهم من قوة، «كيف يمكن أن...!»، وجوههم شاحبة، وأياديهم تخفق بعنف.

أمسكت زهرة المقبضين وفركتهما، ثم مزقت معطف دوشيانت، وأرسلت صدمة كهربائية مباشرة إلى قلبه. لم يحدث شيء. حاولت مرة أخرى. لا شيء. ومرة إضافية. وأخيرا، استجاب القلب وبدأ دوشيانت التنفس مجددا، لكنه سعل قليلا. لكن ظلت كل المؤشرات منخفضة، بل تتراجع. طلبت زهرة من المساعدين نقله لوحدة العناية المركزة، وأسرعت إلى هناك، متجاهلة صرخات وتوسلات والديه.

«إنه في حاجة لعملية جراحية. الآن!». صرخت زهرة في شخص ما على الهاتف. تدلى وجه زهرة.

لم يكن هناك شيء يمكن أن تفعله. ما من متبرعين مناسبين.

30 ـ بعد خمسة عشر يوما

لكل منا مكانه في هذا العالم. أنا أيضاً لي مكاني. أنا، دوشيانت، التفاحة الفاسدة في السلة. سأبقى في السلة وقتا طويلا، فأنا أميل إلى إفساد كل شيء. هذا هو مكاني في العالم. هذه هي هويتي حتى آخر رمق في حياتي. تماما مثل هوية زهرة التي تحتاج إلى ألا تخدع نفسها. أما أرمان، فهو يسعى إلى تحقيق ما لم يحققه أحد، وكذلك كاجال، في محاولتها العثور على ما يريده قلبها. بالنسبة لبيهو، أن تبتسم وتجعل من العالم مكانا أفضل.. هذا ما يحدد هويتنا.

ولكن في ذلك اليوم الذي قررت فيه أن أشرب ثلاث جرعات إضافية من الفودكا، أدخن خمسة أنفاس من الماريجوانا، ثلاث سحبات من الكوكايين، ثم أصبت بإغماء ودخلت في نوبة، لم أكن أعرف أنني سأعود لألقى صباحا جديدا، وهوية جديدة... عانيت الألم، ألم شديد، ولم يكن هناك سوى إنسان وحيد لازال يبتسم في وجه حشد من الأنسجة البشرية الفاسدة، وهو الشخص الذي أصبحته. كانت بيهو هي ذلك الإنسان. فتاة صغيرة، صاحبة أكثر الابتسامات بريقا على هذه الأرض، وقلب كبير لا مثيل له، لا تظن أبدا أن هناك إنسان يحمل شرا داخله. وبالنسبة لشخص مثلي، يملك عشرة آلاف طبقة من الشر أمام قدر ضئيل من الخير، كان يعني الكثير. ماذا كان سيحدث لو قررت أن أفعل ذلك بعد شهر واحد؟ من يعرف؟ ربما لقيت حتفي، وهذا أمر مؤكد. كنت سأموت بهوية الشاب المغرور الغاضب. هل أنا الآن سعيد؟ هل سأكون سعيدا خلال خمس

سنوات من الآن؟ لا أعرف ـ هل أشكرها لإنقاذها لي؟ نعم. هل أشعر بالرضا لأني نجوت؟ مرة أخرى، أنا لست متأكدا. لماذا عليّ أن أكون سعيدا لمجرد أن أمامي بضع سنوات أخرى للعيش؟ لماذا يجب أن أكون سعيدا فقط لأن لدي المزيد من الوقت أقضيه مع والداي؟ لماذا عليّ أن أكون سعيدا لأن أهلي لن يصابوا بالحزن؟ بالنسبة لبيهو، تكمن الأجوبة في تلك الأسئلة. ثم لماذا لم تحصل على تلك الآنفاس القليلة الاخيرة؟ السنوات القليلة الاضافية؟

بينما أتطلع إلى السرير المجاور الفارغ، وإلى الكتب المفقودة، ضحكتها المرحة التي غابت، أشعر أن العالم بأسره صار مظلما على نحو ما، أكثر حزنا. كل ما أذكره منها هي كلماتها الأخيرة لي: «سأعود. سيكون كل شيء على ما يرام».

حسنا، لقد كذبت. لا أعتقد أني سأسامحها على هذا. لا الآن، وللأبد.

لقد تركتنا كي نتحسر على فراقها، كي نشتاق إليها، كي نبحث عن أشياء تشتت انتباهنا وتبعدنا عن شعورنا بافتقادها. إنها ليست هناك. ليست على مقربة منا. لن أرى تلك الابتسامة أبدا. لن تكون على السرير المجاور تحاول أن تهيج أعصابي. لن تثرثر حتى تنفجر رأسي وتزيد حنقي. لم أقابل أرمان، لكنني سمعت الكثير من القصص على مدار الأيام القليلة الماضية. أخبر زهرة أنه على يقين أنها ابتسمت في وجهه بعد أن توقف نبضها، وصار خط الحياة على الشاشة مستقيما، وعجز الأطباء عن إنقاذها. تحكي زهرة أنه قضى الليل في المشرحة واقفا خارج النعش المجمد لأن بيهو كانت تخشى الظلام. تحكي كذلك أنهم أجبروه على المغادرة قبل أن يصاب بالتهاب رئوي أو ما هو أسوأ. وكيف يمر كل ليلة بكل من الغرفة والبلكون حيث قضيا معا أول موعد غرامي لهما. كيف سقطت أمها مغشيا عليها عندما عادت للغرفة المنحوسة رقم 502، وكيف أُبعدت عن فراش بيهو من قبل والدها. وكيف سار والدها مثل جثة متحركة عندما سمع الخبر. وكيف بكى الوالدان معا وهما ممسكان كل بالآخر.

وكيف هدأ والدها والدي الباكي (الباكي!) عندما كنت أقاتل للبقاء حيا بينما كانت ابنتهما ميتة. تحكي زهرة أن والدها لم ينطق بكلمة منذ اليوم الذي فارقت فيه بيهو الحياة على طاولة العمليات، راقدة على جنبها بينما ظهرها مشقوقا، وابتسامة تغطي وجهها. لم يكن الأمر مؤلما، تحكي زهرة.

هل علمي أن الأمر لم يكن مؤلما يجعلني أفضل حالا؟ كلا. لم تكن شخصا غريبا على الألم. كانت قوية، وكانت لتختار الألم والحياة في أي يوم ولا تختار الراحة والموت. مثلها من البشر لم يخلقوا للموت. إنهم لا يموتون أبدا لأن أحد لا ينساهم. هل منحتنا من لحظات عمرها ما يكفي معا؟ لم تكن لتفعل حتى لو ماتت بعد مائة عام. مثلها فقط لا يعيش بما فيه الكفاية. مهما طال الزمن، ومهما كانت حيواتهم ناجحة، ومهما كان فراقهم خاليا من الألم، يفتقدهم الناس. كما أفتقدها، وأنا بالكاد أعرفها. لم نكن حتى أصدقاء. كنا رفاق غرفة.

تموت. وأنا أعيش. أنا أبكي. أين المعنى في ذلك؟ لم أكن حتى أريد أن أعيش. وأعتقد أن الإجراءات، الأدوية، الأطباء، القطارات، درب من العبث. كل ما أردته هو الحصول على قليل من حقن المورفين الإضافية في القطّارة، لأعبر لعالم آخر دون ألم. لم أكن أريد هذا. لقد كرهت الألم. لقد فعلت كل شيء كي أهرب منه. اعتدت أن أخمد الألم أن أحقن نفسي أو أشتم أي شيء تصل إليه يدي. لقد كرهت الألم وكرهت الحياة. لم أحصل على شيء، وحصلت هي على كل شيء. لا أحد يريد هذا. ما ظنكم بشعوري عندما أنظر لأبويها، يا له من حزن يقطع أوصالي على مصابهما؟ ماذا تظنون ما أشعر به عندما أصادف أرمان؟ كنا في غرفة واحدة. غرفة واحدة! ما مدى صعوبة أن تتبدل أقدارنا؟ إلى أي مدى يمكن أن يخطىء الله، إن كان هناك إلاها؟ كنا هناك. كيف يمكن ألا يرى؟

هل عثرت على متبرع؟ نعم. كانت هي المتبرع! تطابق كامل. كنا رفاق غرفة.

لم يكن هذا هو الشيء الوحيد الذي منحتني إياه. خمسة عشر يوما بعد الجراحة التي أجريت لي، عندما أعادوني إلى غرفتي، كان السرير المجاور لي خاليا، إلا من ورقة صغيرة استقرت عليه. فتحت الرسالة التي كتب عليها:

«أنت أفضل رفيق غرفة على الإطلاق. الآن، النتيجة التعادل 2 ـ 2. لا تضيعها».

أبكي.

الفهرس

1 ـ دوشيانت روي 5
2 ـ أرمان كاشياب 13
3 ـ بيهو مالهوترا 19
4 ـ كاجال خورانا 35
5 ـ زهرة ميرزا 51
6 ـ بيهو مالهوترا 57
7 ـ مستشفى نيودلهي التخصصي 67
8 ـ دوشيانت روي 77
9 ـ أرمان كاشياب 87
10 ـ زهرة ميرزا 97
11 ـ بيهو مالهوترا 107
12 ـ دوشيانت روي 119
13 ـ كاجال خورانا 129
14 ـ أرمان كاشياب 135
15 ـ زهرة ميرزا 147
16 ـ بيهو مالهوترا 153
17 ـ دوشيانت روي 163

18 ـ أرمان كاشياب 173
19 ـ بيهو مالهوترا 179
20 ـ كاجال خورانا 189
21 ـ دوشيانت روي 199
22 ـ زهرة ميرزا 211
23 ـ بيهو مالهوترا 219
24 ـ دوشيانت روي 229
25 ـ زهرة ميرزا 237
26 ـ أرمان كاشياب 247
27 ـ كاجال خورانا 255
28 ـ بيهو مالهوترا 259
29 ـ دوشيانت روي 271
30 ـ بعد خمسة عشر يوما 275

أحمد صلاح الدين

كاتب ومترجم مصري، من مواليد القاهرة في الحادي والعشرين من نوفمبر عام 1973. درس اللغة الإنجليزية وآدابها بقسم اللغة الانجليزية، جامعة عين شمس. بدأ العمل في مجال الترجمة أثناء دراسته الجامعية عام 1992. عمل كباحث لغوي ومترجم، وشارك في مشروعات ترجمة لعدد من المؤسسات الدولية كالأمم المتحدة، البنك الدولي، منظمة التجارة العالمية، اليونسكو، الاتحاد الأوروبي، دور النشر العالمية، المحطات التليفزيونية، شركات الانتاج السينمائي. سافر عام 2001 إلى موسكو لدراسة اللغة الروسية والأدب الروسي، بجامعة رودين، وأتم دراسته حاصلاً على تقدير امتياز. تقدم لنيل درجة الماجستير في الأدب المقارن، لكنه لم يستكمله. عاد للقاهرة عام 2004. قارب إجمالي ما ترجمه الخمسة ملايين كلمة بين الانجليزية والروسية والعربية. قدم عدة أبحاث في اللغة، الأدب، الأدب المقارن. يكتب المقالات لعدد من الصحف المحلية والإقليمية باللغة العربية، إضافة إلى كتاباته باللغة الإنجليزية. من أعماله "ورثة تالستوي على جسر كوزنتسكي"، رواية "أورشليم" للكاتب البرتغالي جونسالو تفاريس، كتاب "صلاة تشرنوبل" للبيلاروسية سفيتلانا أليكسيفيتش الحاصلة على جائزة نوبل في الأدب عام 2015، إضافة إلى مؤلف تحت الطبع باللغة الإنجليزية وعدد من كتب الأطفال. يدير حاليا مشروع "أصوات" للترويج للأدب العربي في العالم.

حتى رحيل الروح

الحياة قاسية بما يكفي، ومع قراءة الرواية نكتشف أننا أحيانا من نزيد صعوبتها، إنها الكارما التي من صنع أيدينا. هي رواية الحب كفعل وحالة، الماضي وأثره على مسار حياة الناس، عن موت الأحياء، خلود الراحلين، المواجهات المؤجلة التي تنحر في حياة البشر حتى تحدث. هل علينا أن ننتظر اقتراب الموت حتى نرى ما أغفلناه في حياتنا؟ مريضان جمعتهما الغرفة 509، طالبة نابغة تصارع من أجل دقائق إضافية لجسد هالك لا محالة، وشاب يفعل كل شيء حتى يتخلص من جسده بأسرع وقت. طبيبان شهيران تطاردهما أشباح الماضي، يضحيان بكل شيء حتى يبقى المريضين على قيد الحياة. أيام أخيرة قاسية تغير الجميع على نحو غير متوقع.

Designed by Studio